رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد الثاني عشر
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٨
السنة السادسة

No. 12 Dec. 1958
6ème année

محاولات في فهم التاريخ المعاصر

عيوب الحياة العربية الراهنة

بقلم عبد اللطيف شرارة

كان من شأن الاحداث السياسية الخطيرة التي مر بها العالم العربي مؤخرا ، ولا سيما في لبنان والعراق والاردن ، ان فتحت العقول والقلوب والعيون على امور ثلاثة : ١) السياسة الغربية ٢) اخلاق الزعماء والساسة ٣) فساد التنظيمات الادارية العامة ، داخل تلك الاقطار .

هذه الامور التي انكشفت لكل ذي فكر ونظر ، اطلعت الاجانب ايضا في الوقت نفسه ، على مسالك سياستهم وزعمائهم في ديارنا العربية ، واتاحت الفرصة للناس ، ان يلتقطوا العلاقات الخفية التي كانت قائمة ، في نجوة من النقد والملاحظة ، بين السياسة الغربية ، واخلاق الزعماء من جهة ، ثم بين هاتين مجتمعتين ، وفساد التنظيمات الداخلية ، من جهة ثانية .

وانه ليكفي ان نعيد الى الاذهان ما افشت محاكمات العراق من اسرار مذهلة ، مدهشة ، عن تصرفات اكثر الرجال في مختلف الاقطار العربية ، وفي العراق ولبنان على الاخص ، ليجد القارىء ان التاريخ الذي كنا نحيا في اجوائه ، قبل الانقلاب العراقي الاخير ، انما كان احجية من الاحاجي التي يصعب فهمها على ادق الناس ذكاء ، في داخل العراق ، ناهيك عن خارجه !

يمكن القول اذن ، ان كل ما خفي على الناس من اسرار التاريخ العربي في هذه المرحلة من سيره ، اصبح اليوم شبه ظاهر ، وان ما ظهر منه حتى الان يعيننا على ادراك الواقع الذي نعيش فيه ، واسباب نقائصه وعيوبه الكثيرة .

واول هذه النقائص في الحياة العربية الراهنة التي تبرز لكل ذي عينين ، فقر الجماهير العربية ، المتمثل في كثرة العراة والحفاة والمتسولين ، ثم في كثرة العاطلين عن العمل والمتسكعين على ابواب الزعماء ورجال الحكومة ، واخيرا في كثرة الساعين الى الوظيفة ، والعازفين عن الاعمال الحرة والهاربين من القرية الى المدينة .

هذه الفاقة التي لا تجد ما يبررها في حياة اي بلد عربي ، ظهرت اسبابها الان ، وتبين ان امرها مفتعل من اساسه ، وليس لها ادنى صلة بما كان يقرره فلاسفة الاستعمار الغربي من الكسل الرائن على طبيعة الناس في هذه المنطقة ، الى عتو المناخ وقسوته على الجسم البشري ، الى فساد الافكار والعقائد التي يحملها ابناء هذه البلدان وتحول دون اجتهادهم وهم في تحصيل الرزق ، الى ما اشبه .. من نظريات سخيفة ، عتيقة ، لئيمة اخترعها العقل الغربي .

تبين ان ثروة البلاد العربية تنفق على التآمر ، وتذهب الى جيوب افراد لا همّ لهم غير تخريب الاخلاق ، وافساد الضمائر ، ويبذرها الحاكمون في سبل تعود على البلاد بالاضرار الفادحة ، ولا يفيد منها احد . فلو ان الاموال التي انفقها رجال العهد البائد في العراق ، على الاشخاص والملذات والمؤآمرات ، وظفت في مؤسسات وشركات ومشروعات عامة ، لما وجد في العراق بل في اقطار العرب كلها ، اسرة تشكو الفاقة ، ولا فرد ينتحر لضيق ذات يده !

واذا كانت اسباب الفقر – وهو العلة الاولى لكل ما يعتور الحياة العربية الراهنة من آفات ونقائص – تكمن في سيرة الساسة والزعماء والقادة ، في طريقة انفاقهم للأموال ، في اسلوب معاملتهم للشعب ، فان العلل الاخرى الناجمة عن الفقر ، كالجهل ، وانتشار الامراض ، وتدني المستوى المدني ، وضعف الجانب الثقافي ، وضآلة العناية بالفنون والاداب والعلوم ، وسقم الذوق الاجتماعي ، تجد اسبابها بصورة اوتوماتية ، في التشكيلات الادارية العامة ، في التنظيمات الداخلية ، في سن القوانين ومراقبة تطبيقها واخيرا في رعاية الشؤون الحيوية العليا التي وضعت في ايدي رجال يكفرون بالشعب ، ولا يؤمنون بشيء ..

والرجال في حيز التاريخ ظواهر !

معنى ذلك أن الحاكم ، او الاديب ، او الفنان ، او العالم المخترع، يعبر بمسالكه ، وآرائه ومناهجه وخططه واعماله، عن العصر الذي ظهر فيه ، والبيئة التي انبتة ، والمجتمع الذي عاش فيه واخذ منه واعطاه ، فلا يمكن ان يتحلل امرؤ تحللا كاملا شاملا من جميع ظروفه . ولا يتاح لـه ان يكون ما كان ، الا محصلة عوامل ودوافع وجواذب ، افضت الى بناء شخصيته ، وتلوينها ، وصوغها في القالب الذي تظهر به على مسرح الحياة العامة ، في اي حقل من حقوله النشاط الانساني .

والرجل السياسي على الاخص « ظاهرة » تحمل من التعبيرات الواضحة عن المجتمع ، في بيئة ما وعصر ما وامة اما ، اشياء لا يحملها الفنان ، ولا المفكر ، ولا العالم ، ولا الاديب ، لان هؤلاء يسبقون عادة مجتمعهم ، ويفيضون عليه من مواهبهم وجهودهم وتطلعاتهم ما يحفزه الى التقدم ويستثيره لاجراء تبديل ولو طفيف ، في طراز معيشته ، واساليب تفكيره ، وقواعد اجتماعه ، بينما يظل السياسي مكانه ، لا يتحرك لتغيير واقع ، الا تحت ضغط من الضرورة او املاءات يتلقاها من فوق ، في وضع استعماري ، ومن تحت ، في وضع متحرر طليق .

نستطيع على اساس من هذه الحقيقة التي ترى في الحاكم السياسي ، ظاهرة معبرة عن وضع وتاريخ ، ان

نتلمس مضامين السياسة الغربية ، واخلاق الساسة ، وفساد التنظيم الداخلي في البلاد العربية ، عبر الحقبة التي تمتد من الحرب العالمية الاولى حتى الانقلاب العراقي الاخير — نتلمس ذلك كله ، في سيرة نوري السعيد ، وهو الظاهرة الكبرى في التاريخ العربي المعاصر ، اذ لم يكن لنوري السعيد وامثاله أن ينشأوا في البلاد العربية ، الا في هذا العصر ، وعليهم تقع تبعة النقائص والعيوب التي تعتور الحياة العربية في مرحلتها الراهنة .

ثم ان نوري السعيد واعوانه وانداده واتباعه ، انما ظهروا ومارسوا الشؤون العامة على قاعدة من تربية اجنبية خالصة ، وعملوا ما عملوا بمبررات اجنبية خالصة ايضا ، وحكموا ما حكموا بتأييد من الاجنبي ، فهم بذلك ، لا يمثلون فترة من التاريخ العربي وحسب ، وانما يمثلون « الحالة » التي انتهت اليها حضارة الغرب ، في علاقاتها بمن هو خارج عنها ، ويعبرون عن السياسة التي اتبعها الغرب في ديار العرب ، لانهم كانوا — وفيهم من لا يزال — لسان الغرب ، ومظهر حضارته ، وعبارة افكاره ، وسبيل وجوده في هذه الارض .

ولقد كان نوري السعيد — ومن اليه — يصارح الناس بولائه للغرب ، ويعتبر انه بمجرد تترسه بذلك الولاء ، يؤدي رسالته في الحياة ، ويحسب ان كل من يخالفه في الرأي ، او يعارضه في الاتجاه ، انما يخالفه ويعارضه ، انحيازا للشيوعية ، وانتصارا لمذهبها .

هكذا كان يحسب ، ولم يخطر له قط ان يفكر يوما من الايام ، بعواقب اعماله ، ولا سبق له ان اقام وزنا الا لما يمليه عليه الغرب من حركات واتجاهات ، ولا استطاع ان يحترم حركة وطنية قامت في طول آسيا وعرضها ، ودعك من افريقيا وانتفاضاتها ، فهذه لم يكن يطيق لها ذكرا .

اما طريقته في الحكم ، فاننا نطلع عليها في الانتخابات النيابية التي اجراها اكثر من مرة ، وكان عدد المرشحين الذين يربحون بالتزكية اضعاف اضعاف الذين ينتخبهم الشعب ، ثم في اسقاط الجنسية عن المواطنين ، وهو السلاح الذي لم يعتمده حاكم في الدنيا بمقدار ما اعتمده نوري السعيد ، ثم في زج المعارضين في السجون ، واخيرا في النفاق العميق الذي لا يبلغ الناس قرارته ، كأن يحارب فرنسا من اجل الجزائر ، على صعيد التصاريح ، وفي حدود الداخل العراقي ، ثم يقف من حملة السويس الى جانب فرنسا في غزوها لمصر .

هذا هو نوري السعيد الذي وصفت مجلة « لايف » الامريكية مصرعه ، على انه « استشهاد » ، وكتبت صحيفة الديلي ميل البريطانية ، تقول عن يوم ١٤ تموز الذي اطاح فيه احرار العراق بعهد نوري السعيد . « هذا اليوم اسود لبريطانيا » .

وذلك التعاطف بين ظاهرة سياسية اسمها نوري السعيد ، وصحف الغرب ، يؤكد ان نوري لا يعطي صورة عن مجتمعه وامته وحياته وبيئته ، بمقدار ما هو صورة للغرب وسياسته واتجاهاته ، في علاقاته مع العرب

عدد «الآداب» الممتاز

سيكون العدد القادم من «الآداب» عدداً ممتازاً، على جاري عادة المجلة في مطلع كل عام. وسيكون الموضوع الرئيسي لهذا العدد «البطولة في الأدب العربي»، وهو الموضوع الذي سيبحثه المؤتمر الرابع للادباء العرب حين ينعقد في الكويت بين ٢٠ و ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) القادم. كما ان موضوع «الكتاب العربي» الذي سيعالجه المؤتمر، سيجد في «الآداب» صفحات عديدة.

وبسبب حرص المجلة على ان تنقل للقراء ابحاث هذا المؤتمر، فلا بدّ ان يتأخر صدور العدد القادم من «الآداب» زهاء عشرة ايام، وسوف يقدر القراء الكرام هذا الوضع. والى اللقاء. «الآداب»

والاقطار العربية.

واما اخلاق الزعماء والساسة في الديار العربية، خلال هذه الفترة، فليست في تفاصيلها غير اقتداءات وسعدنات وتمثيليات، نجد نسختها الاصلية في اخلاق نوري السعيد وتصرفاته الشخصية والعامة، من تعلق بالحكم، ونشدان لمظاهر الفخفخة، واحتقار للشعب، واستثمار لاحط الغرائز البشرية في نفوس الضعاف من الناس، وتظاهر باللطف امام السذج، وتنكر لكل ما هو فكر، وعلم، وانسانية، وفنُ، وادب، ثم هزء بالمثالية، ومقاومة للتحرر العقلي، تحت ستار واه شفاف من اكبار لعبقرية الغرب وحضارته، وازدراء للشرق وتاريخه وافكاره.

***

نعود الان الى تلك «الموالاة» للغرب، على نحو ما تمثلت في سيرة السعيد وامثاله واتباعه، نستقرىء اسرارها، ونبحث اعراضها، فهي جديرة بالاهتمام، حرية بأن تلقي النور على تاريخنا المعاصر، ولا سيما في الجانب السياسي منه:

اول ما يطالعنا في تلك الموالاة للغرب، من قبل الساسة والحكام والزعماء والقادة في اقطار العرب، انها ليست خالصة لوجه الحق، ولا قائمة على اساس من اقتناع وجداني، وتفهم عميق للحضارة الغربية، وادراك شامل لمنابعها واصولها، فأكثر هؤلاء الموالين المستغربين ممن يجهلون الحقائق التاريخية، ولا يهتمون بالقضايا الفكرية، ولا يدركون شيئاً من تطور الفكر البشري ونشوء الحضارات، ولو كانوا على شيء من المعرفة والادراك في هذه الامور، لوقفوا على اقل تقدير، موقف المنصفين من فلاسفة الغرب وعلمائه وباحثيه، ولم ينجرفوا مع اضل التيارات الغربية واشدها ظلامية وتعصبا في النظر الى قضايا العرب، ومشاكل التاريخ العربي!

وليس هذا كل ما تنطوي عليه «موالاتهم» من سخف وحقارة نفسية، وانما هي تلتزم جانب النفعية، بمعنى ان مناصبهم وبقاءهم فيها رهن بما يبدون من التصاق بالغرب ودفاع عن مصالحه الآنية المباشرة، ثم بما يظهرون من غلاظة على الشعب وقسوة في معاملته ومقاومة لكل متحرر. وبهذا، تكون موالاتهم غير صادرة عن ايمان بشيء، بمقدار ما هي طمع بالمنفعة الشخصية، بالمنصب، بالوظيفة اول الامر، ثم تتطور بعد الفوز وتحقق المنفعة، الى خوف من الشعب، من الناس، من الضمير، ومن الغرب نفسه، في آخر مرحلة.

والصفة الثالثة التي تتميز بها موالاة الموالين للغرب، انها تتحول مع الزمن الى «مرتكز» لسلوكهم العام والخاص، وتصبح اداة يبررون بها كل ما يرتكبون من حماقات وما يستعلن في شأنهم من قباحات، وهذا يفيد انهم يتخذون منها حصنا لاتقاء الهجمات من اي نوع، ودرعا يتقون بواسطتها الانتقادات التي توجه الى تصرفاتهم، بحيث ينسون معها او يتناسون كل ما تواضع عليه مجتمعهم من شمائل نبيلة، ومزايا كريمة، واخلاق عالية، ويوغلون بعد ذلك ما شاء لهم ضلالهم العميق، في تصور الظروف والاوضاع العامة، وتصويرها...

وتأتي اخيرا الصفة الرابعة لموالاة الغرب، هي أنها محض اصطناع وزلفى، فلا تمثل شيئا من عبقرية الشعب، ولا تعبر في شيء عن امانيه وحياته ومشاغله وهمومه واتجاهاته وتطلعاته الاساسية.

ذلك بان حياة الشعب، اي شعب، لم تكن يوما من الايام، وقفا على موالاة لاناس، ومعاداة لاناس آخرين. والذين يمثلون الشعب، انما يمثلون رغباته وامانيه وآماله وآلامه، ولا يمثلون منه جانبا نظريا خالصا مصطنعا

كالتعلق بحضارة ، والانصراف عن حضارة ، فالمهم في نظر الشعب هو حياته ككل بجميع ما يمثل من قيم ومعان انسانية . وهذا يردنا الى القول ، في التحليل الاخير ، ان الموالين للغرب ، لا يمثلون بصفتهم هذه احدا ، حتى انفسهم التي اضطربت بين الطموح والخوف . واقامت في وسط هاتين النقيضتين فلا تبرح مكانها بعد ابدا ..

***

لنأخذ الان الجانب العملي من سياسة الغرب ، من تمثلات حضارته ، في كيان الشعب العربي وحياته ، فهذا الجانب نفسه يلقي المزيد من الضوء على حقيقة الموالين للغرب ، ويوضح معنى تلك الموالاة ، في جوهره :

الاكيد الذي لا يرقى اليه شك ، هو ان الغرب سعى بكل ما لديه من امكانات ووسائل ، الى نزع فلسطين من ايدي اهلها . وتسليمها بعد ذلك لليهود ، وهم يصنعون بها ما يشاؤون .

وكان ان تحققت مساعي الغرب في اعقاب الحرب العالمية الاولى يوم وكلت عصبة الامم الى الانكليز امر الانتداب على فلسطين ، وراح الانكليز يستغلون ذلك الانتداب لما هو في مصلحة اليهود ، الى ان تمكنوا اخيرا من ارهاق الشعب العربي هناك ، وتحطيم قواه ، وتشريده في آخر مرحلة ، وتسليم البلاد للصهاينة الذين اقاموا فيها دولة موالية للغرب وسياسته . وبهذا تكون دولة اسرائيل امتدادا للانتداب البريطاني في فلسطين . ومعنى ذلك ، انها لا تمثل حقيقة ، ولا تعبر عن اصالة ، وما هي بعد كل حساب ، سوى حادث سياسي اوله الغرب ، وآخره الغرب . اوله بريطانيا وآخره امريكا وبينهما تأييد فرنسا ، وسائر الدول التي تخضع لهذا الثالوث الغربي .

هذا اول مظهر من مظاهر السياسة الغربية في البلاد العربية . والمظهر الثاني نجده اليوم في الجزائر ، ففرنسا الملكية التي احتلت الجزائر او بدات في احتلالها عام ١٨٣٠ ، لا تختلف من وجهة النظر الشرقية في شيء عن فرنسا الجمهورية التي يذهب بها الطمع الى اعتبار الجزائر فرنسية . اين هو التقدم الحضاري الذي حققته فرنسا الغربية حين انتقلت من النظام الملكي الى الديمقراطية ؟ وكيف لها ان تفاخر ، على صعيد الدعاية ، بما حققت للانسانية من معان كريمة ، في الوقت الذي نجد به عهد لويس فيليب ، لا يختلف ابدا في شيء، عن عهد الجنرال ده غول ؟

ان مأساة الجزائر وحدها تكشف غور الهجمية في اعماق الحضارة الغربية ، وتنهض وحدها بالبرهان على ان الغرب لا يمثل في حياة العرب سوى الدور الذي يمثله اكلة لحوم البشر مع اخوانهم في ادغال المجاهل ، وظلام الغابات الكثيفة النائية عن العمران والتاريخ والثقافة .

اما المظهر الثالث والاخير الذي يكمل الصورة الغربية في دنيا العرب ، فهو هذه المقاومة التي لا تمل ، ولا تكل ، ولا تنقطع ، لتوحد العرب وجمع كلمتهم ، ولم شتاتهم ، ففي كل يوم مؤامرة ، وفي كل لحظة دسيسة ، بحيث لا يهدأ الغرب طرفة عين ليلاحظ بها نفسه واعماله ، ويراجع بها وجدانه ، ويتفهم على الاقل ، بعض ما يجب عليه عمله في اكتساب الصداقة ، لا اثارة العداوة .

ذلك ما ينم عنه مسلكه الاخير في سوريا ، في مصر ، في البريمي ، في العراق في عمان ، واخيرا في عدن ، ولا تذكر ما قام به في شمال افريقيا ، ففي حاضره ما يغني عن ماضيه .

اذا كانت هذه هي سياسة الغرب ، فما يكون معنى موالاته ؟ لقد عرف القارىء الجواب ، ولا حاجة الى تكراره .

***

هذه الطريقة في التفكير بين موالاة عالم ، ومعاداة عالم — وهي خاطئة من اساسها — اساءت الى الحياة العربية الحديثة ، وحشتها حشوا بالعيوب الاجتماعية ، والنقائص الاخلاقية .

وكان اول هذه العيوب ذلك الولع الطافر الطاغي بالحكم ، والوجاهة ، والزعامة ، والتسلط على الناس ، وما رادف ذلك واشبهه من حالات تتكون وتختلف وتتباين في الدرجات ، ولكن اساسها يظل واحدا هو استشراف وضع في الحياة يكون به المرء طفيليا على جهود غيره ، متمتعا بنتائج العلم والفن والفكر على حساب الاخرين ، دون ان يشارك الناس لا في الفكر ولا في العمل .

تلك هنة لا علاقة لها بالطموح ، وليس لها به ادنى قرابة ، وانما هي انبثاق عن اوضاع سياسية كاذبة ، تستعمل الالفاظ وتهدر المعاني كأن تتغنى مثلا بالديمقراطية .

وتنادي بالحرية ، وتتبجح بالعدالة الاجتماعية وهي في قرارتها تتنكر فعلا لجوهر الديمقراطية والحرية والعدالة.

في مثل هذه الاوضاع التي لا يكلف بها الكلام شيئا ، ويرتفعبها الفرد الى المنصب الذي تؤمنه لهموالاته او معاداته ــ لا فرق ! ــ يصبح الغرور شيئا عاديا ، منتشرا ، في جميع الاوساط ، وتظهر رغبة السخفاء بالحكم عنيفة قوية ، تلبية لذلك الغرور الذي يسود الافراد والاسر والفئات ، وتتوارى الكفاءات الصحيحة ضنا بكرامتها ان تمس ، وتأبى ان تكون على قدم المساواة مع الطفيليين والمغرورين والتافهين من كل جنس ولون .

والعيب الثاني هو سريان الروح الرومانطيقي الى الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية .

ذلك العيب يتمثل أكثر ما يتمثل في لبنان اليوم ، وان كانت لا تخلو منه العراق ، ولا الجمهورية العربية المتحدة، ولا شمال افريقيا .

الرومانطيقية اذ تضع العاطفة فوق العقل ، تضعف في كيان صاحبها كل قدرة على التمييز ، وتشل جانب التنظيم في عيشه ، وتحول الناس الى « هائمين » في اودية التحسر والتأوه والنواح ، او الى « طائرين » في سماوات الفرح والامل والجمال ، وبهذا .. ينقطعون عن الواقع ، في جميع مواقفهم ، وتصبح محاكماتهم للقضايا العامة مصبوغة بصبغة شخصية ، يستلها كل فرد من حزبه ، او طائفته، او اقليمه ، او من اشياء تاريخية لا اثر لها اليوم ولا قيمة.

هكذا استغرق اللبنانيون مثلا في مدح انفسهم ، والتغني بجمالات مناخهم ، و « داخوا » بما قاله لامرتين عن ارز لبنان ، وما تحدث به عنهم السياح من كل قطر وبلد ، وحسبوا انه لم يبق من واجب للناس الا ان يتابعوا هذا المديح ، وليس عليهم الا ان ينشروا تلك المدائح على اوسع مدى . اما تنظيم حياتهم ، اما التفكير في نقدها ، اما التمييز بين طريقه وطريقة في العيش ، والافادة من التجارب التي تمر بها الشعوب في شتى بلاد الله الواسعة ، فهذا ما لا يخطر لهم ببال !!

والعيب الثالث في حياة العرب الراهنة ، هو عدم الاعتماد على حقائق الاشياء فياصدار الاحكام على الافراد والجماعات ، وهذا افضى الى «النفاق» في تركيز العلاقات.

لقد سرى الى اذهان الكثيرين من تلامذة المدرسة السياسية القديمة ان « السياسة » مكر ودهاء وتحايل ونفاق . ومذ كان الولع بالسياسة اظهر الصفات في الشرق العربي، فقد ساد النفاق عن هذا الطريق .

★★

تلك هي مساويء الحياة في التاريخ العربي المعاصر ، ولكن الجهود الجديدة الجبارة التي تقوم بها جمهورة الشعب العربي للتخلص من هذه العيوب والقضاء على مخلفات العهود السابقة التي ران عليها الاعجاب بالغرب وحضارته، اخذت تؤتي ثمارها بشكل واضح في الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية الجديدة .

ولن يمضي ــ على ما احسب ــ زمن طويل ، حتى تذوب هذه النقائص ويتحرر العرب منها .

عبد اللطيف شراره

رأي أول في رواية

« الخندق الغميق »

بقلم رئيف خوري

من الآثار الادبية ما يقدم نفسه بنفسه خير تقديم ، فلا يحتاج الى وسيط يقرب منه بعيدا ، او يشرح غامضا ، او ينوه بما يمتاز به من خصائص الفن .

ورواية « الخندق الغميق » للدكتور سهيل ادريس هي في الصميم من هذه الآثار التي يحسن الناقد صنعا اذا هو خلّى بينها وبين القاريء يمضي مع سطورها وصفحاتها ، فلا يفيق من استغراقه وذهوله الا وقد بلغ منها خاتمة المطاف . ذلك بان هذه الرواية ليست قصة حياة مع ما تستتبعه القصة — ولا بد — من الاحتيال الفني، وبالتالي التكلف ، وانما هي نفسها حياة بكل صدقها وطبعيتها ، وبكل لمساتها الانسانية ، الساذجة احيانا في



مؤلف رواية « الخندق الغميق » وبطلها الرئيسي ، كما تخيلهما الفنان الفرنسي « دامبريير » بعد قراءة الرواية ...

حلاوة تمس الشغاف .

تحيا في هذا الخندق الغميق اسرة تضطرب حياتها بين جيلين اختلفا باختلاف السن والمزاج ، واختلفا في اكثر الاحيان باختلاف المفاهيم بين حقبتين اوشكت الحقبة الاخيرة منهما ان تخضع كل شيء لتطور عميق .

فهذا سامي ، الشيخ سامي ، ينطلق في اول الشوط من نقطة ترضي اباه ، ثم ينقلب الامر بينهما الى تباعد، فاذا الشيخ الصغير يضيق ذرعا بحياته في الجبة وبثقافة تقدم اليه على وجوه لا يسيغها لا المدرس ولا الدارس ، فينصرف الشيخ الى ورود مناهل الثقافة الغربية ، ويحب بنت الجيران ، ويشهد الافلام السينمائية ، ويستبدل الزي الشيخي ، وينكر على ابيه حقه في ان يتزوج زواجا اخر فيجمع بين امه وامرأة اخرى ، ثم لا يجد هذا « الشيخ » ضيرا في ان تسفر شقيقته ، وفي أن تلقى أحد الشبان لقاء لا يؤذي الحشمة ولا يخل بالحياء . بل هو يصر على ان تصيب شقيقته حظا من العلم العصري ولو اضطر الى بذل ما ادخره بشق النفس من دريهمات . وحين يعلم ان اللقاء بين شقيقته وهذا الشاب قد آل الى حب جدير بان يقرن بينهما في زواج ، ويؤلف بين حياتيهما ، يحس انه اسعد خلق الله .

ما اريد ان اعترض سبيل القاريء ، فاسوق اليه احداث هذه الرواية واقطع عليه متعته حين يعمد الى قراءتها . كلا ، ولا اريد أن اناقش من قد يزعمون انها رواية لا تثير خلافا جذريا في المفاهيم بين جيلين ، فهي اذا ليست برواية تحررية جذرية . وانما اريد ان يتناول القاريء هذه الرواية في بساطة على نحو البساطة التي حكى فيها الكاتب حكاية نفسه بهمومها ، وصور لنا تجربته ، فلعل القاريء خليق عندئذ بان يرى كيف يعبر التطور عن الاستعداد الجذري للتحرر بمظاهر جد بسيطة .

وليس الدكتور سهيل ادريس باول من حاول في الادب العربي الحديث مثل هذه المحاولة التي يصور فيها انتقالا اجتماعيا من خلال تجربته الخاصة او تجربة أسرة اتخذها له نموذجا . فالدكتور طه حسين قد حاول شيئا من ذلك في كتابه « الايام » ، لكنه لم يوفق الى مثل ما وفق اليه الدكتور ادريس في تصوير هذا الانتقال تصويرا قصديا حافلا

بالحركة والحياة وباللمسات الانسانية .

يزاد على ذلك هذا الحب الدافيء الغامر الذي اشاعه الدكتور ادريس في روايته وأضفناه على أشخاصها . فكلهم حبيب اليك، ألرجعي منهم والتقدمي. انك تحبهم جميعا على فضائلهم وعيوبهم ، حتى فوزي الذي يبرع في النفاق على ابيه ويسرق مال اخيه الشيخ سامي لينفق على ملذاته ، ثم يرد المال ساعة يتثاءب عليه ضميره .

وبعد هذا كله ، سيعجبك من رواية الدكتور ادريس انه بعيد فيها عن التطفل على اي اثر من الاثار الادبية التي اتيح لك أن تعرفها ، شرقية كانت او غربية . وهو ابعد ما يكون فيها عن التطفل على الحياة ، وهذا اهم !

رئيف خوري

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

★

الادارة

شارع سوريا – راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات
في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

★

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣

ثورة .. موتسارت .. وامريكي !

بقلم نجيب المانع

في مقهى « اولد فينا » وقد اخذ المساء النمساوي ينتشر على الجدران والارصفة مشيرا الى ان لكل مدينة ليلها وقمرها وشمها تتشكل بما فيها من تاريخ وصخور وما يكسو ارضها من نبات ورمال والسماء مرآة الارض ، فما بقية شعاع الشمس الغاربة على ذوائب كاتدرائية سان شتيفان العليا الا لون من الوان الكاتدرائية لا تكاد تكون له صلة بالشمس ، والمطر حين يتنزل على مدينة نبيلة ،انما هو زخات من العطر تحمل معها ندى الغابات المحيطة وشذاها ، وكما لا يبقى من العطر سوى بهجته ، فان المطر لا يخزن هناك نتنا في شقوق الارض السوداء .

وقد كنت اخذت حاجتي من صحف اليوم الانكليزية التي ترد الى فينا مساء بالطائرة لاقرأ فيها اخبار العراق وقد مر على مولده اربعة ايام وكنت افعل ذلك منذ بدء الثورة .

اذن لقد زحف رجال وبايديهم حديد غضبهم يفتحون بيوتا شيدت من قلوب الاطفال وارتفعت ضجة جهيرة كبحر من غناء لتسكت آبادا كثيفة من صمت رصاصي وتختنق ضحكات كانت قسوتها الساخرة تخيف العائدين من عمل نهارهم الاشعث ، وتزفهم الى فراشهم المندوف بالجوع . واخذت احلم بارضي التي كانت شمس عاتيه تجفف احلامها وكانت مخالب وحشية تنديها بعد ذلك بالدماء . فلقد آن للجراح الحارة تبردها الدموع ان تبرأ ، وللحنين الذي كان صبرا ضخما يذروه اليأس والقنوط حفنة حفنة أن يبرعم اليوم الياسمين .

اذن سيكون لمن يطلبون خبزا ان لا يلقموا الحجارة ، ولمن يطلبون عملا ان لا يحملوا قطعا من الجبال يجزون على آثارها في ظهورهم سياطا على الظهور .

افيكون لتلك السواعد وهي ذهب اسمر ان تصنع بينها سبائك من صداقة ومسرة ؟

واخذت أحلم بالانسان في بلدي وقد اصبح جميلا مقدسا واحلم بالطيبة والثقة وهي حناجر حريرية يخرج الناس اصواتهم منها بسامين زالت عن جباههم اخاديد الشك والكراهية والكذب والقبح .

وتذكرت في نشوة تلك الاخبار أولئك الذين عرفتهم والذين ماتوا قبل ان يروا هذا اليوم واحسست تجاههم بحزن جديد ، فلقد كان يلون احلامهم اليه حنين .

كما تذكرت الذين عملوا من اجل هذا اليوم باذلين لمطلعه كل شيء حتى ارواحهم ، وكان من العدل ان يسعدوا به ، فهم جديرون بهذا الفرح ، واحسست تجاههم بحزن جديد .

ودارت برأسي ابيات بول ايلوار يرثى بها غابرييل بيري الذي اعدمه النازيون :

قتل انسان ما كان عنده من دفاع
سوى يديه المفتوحتين للحياه
قتل انسان ما كان يسير
الا في طرق تكره لعلعلة الرصاص .

الى قوله :

هناك كلمات تحيى
وهي كلمات البراءه
ككلمة دفء وكلمة ثقه
وحب وعدل وكلمه حريه
وكلمه طفل وكلمة رقه
وبعض اسماء الازهار والثمار
وكلمة شجاعة وكلمة اكتشاف
وكلمة اخ وكلمة رفيق
وبعض اسماء البلدان والقرى
وبعض اسماء النساء والاصدقاء
فلنضف اليها بيري
بيري الذي مات لكي نحيا »

لقد قتلوا بعد ان حمل كل منهم صليبه على ظهره وركزه في الميادين ومنعطفات الطرق ، وقد آن للناس الا يخجلوا حين يمرون بمواضع الصلبان ، فما من اجل الخجل قتلوا ، بل قتلوا من اجل فرح هذا اليوم . ولقد آن للخجل ان يكون اعصارا من كبرياء .

والعدل ؟ لسوف يعيد الانسان في بلدى اكتشاف هذه الكلمة الطيبة ولعله ان ينظر الى ظلمات هذا الكون متسلحا بخوفه من قتل البراءة . وربما كان هذا العالم المدوخ في كبره لا يجتاز الا بخطوات صغار كخطوات الاطفال . ولئن كان العدل مصباحا يستضاء به في هذه الظلمات فالاجدر الا يوجه الى امام فيقدم الرؤية بل يوضع بازاء ما يرى ليرى بشكل اكثر استيعابا واحاطة ، فان النور القوي الموجه الى الامام باتجاه واحد يعدم الظلال ، ويضع كل شيء في مدى بصري واحد ومجال حسي محدد .

وقلت في نفسي : لعلنا ان نكون من اليقظة في انفسنا بحيث لا تعشو عيوننا ولو لحظة واحدة عن النظر في وجه البراءة فتنقلب علينا دهرا من ظلام !

ان علينا ان نرمي بالحرية بعيدا بعيدا ، فذلك هو السبيل الوحيد لاحتضانها بكل اليدين .

ان توهب الحرية والبراءة هو امتلاكهما الكامل، وامتلاكهما في حرص وورع سبيل الى تبديدهما . فما اشد ولع الحرية بالتطواف في الهواء الطلق ، وما اشد ضمورها وهزالها حين تحتجز في بيت ذي جدران !

وكنت اقرأ واحلم في امن عميق ما كان يكدره سوى «الجيوك بوكس» يرتعش باغنية تجارية «لا استطيع النوم» فما هذا الشخير اذن ان لم تكن نائما ؟. ومرتاد اخر يدير اغنية « ديانا » ، لا ديانا الهة القمر الحانية على الشباب ، بل ديانا اخرى : هي اخر نوبه ارتجاف من نوبات الحمى الامريكية المعدية ، وعاصفة رملية لافحة جديدة تهب من صحراء القلب الامريكي المجدب .

واذ كنت في شغل عن هذه الترهات غير منتظر ان تهبني هذه الآله شيئا يوازي جمال الاخبار التي كنت التهمها اذا بالجيوك بوكس يفصح عن اغنية موتسارت (دوفيه سونو Dove Sono) وخمنت فيها صوت اليزابيت شفارتزكويف الاثيري ، وهو احد الاشياء القليلة التي تستطيع ان تفخر السماء بمنحها للارض . وكانت تطرز ذلك المساء بهذه الاغنية الداكنة في اوبرا « زواج الفيغارو » المشعة الملتمعه ، وحين يضع موتسارت العتمة بازاء الاشراق فان عتمته تكتسب اشراقا مضاعفا . وبعد ذلك من الذي يستطيع ان يرسم الظلال ان لم يكن قادرا على الاضاءة ؟

ووجدت بين ذلك الغناء الداكن في اطاره المشع توازيا مع احساسي خلال فرحي الغامر بالحزن على اولئك الذين لم يشهدوا هذا اليوم . وكما ينتصر الفرح في الموسيقى ، فقد تملكتني النشوة والغبطة . غير اني كنت في غبطتي وحيدا ، وادركت للمرة الاولى مرارة الغربة في فرح الانسان وحده .

وعجبت لتلك الآلة الخرساء تتحدث هذا الحديث الورود، والتفت فرأيت شابا منحنيا يصغي على مقربة من « الجيوك بوكس » فعرفت فيه الذي اطلق هذه الحزمة من النور ، وما ان نظرت اليه حتى احسست تجاهه بصداقة لا تاريخ لها ، وهي الى ذلك مديدة بعيدة . ثم قام بعد انتهاء الاغنية وادار اغنية (بورجي امور) من نفس الاوبرا المعجزة. وحين انتهت هذه قمت انا اتطلع في « الجيوك بوكس » لعل في هذه الآلة التي تكاد تكون مليئة بالفراغ شيئا جديا آخر، فوجدت ماريو ديلموناكو يغني نهاية اوبرا عطيل لفيردي فوضعت العملة المرادة في الموضوع المطلوب، ولم اكن اعرف على اي الازرار لمتعددة اضغط ، فاستعنت بصديقي المحتمل (وكل محب لموتسارت ككل محب للحرية صديق محتمل) وكان هذا سببا لتعارفنا .

عرفت انه امريكي تخرج من هارفارد في الادب الانكليزي ودرس الغناء على سبيل الهواية . وتحدثنا عن العراق والعرب فكان كما توقعت من نظافة ذوقه ذا تفكير نظيف.

كان احساسه بالانسان وقيمته احساس رجل تملك البلاغة وتجاوزها ، فما تسمع منه كلمة واحدة الا تشكلت عندك جملة ، ولا جملة منه الا كتبت في ذهنك صفحات ، فكأنه يوصل اليك وعيه كله بمجرد النظرة والبسمة وعبارة الاندهاش . وكان لادراكه العظمة الطيبة في الناس كأنه يصافح خضما من اياد لا ترى ، ويضحك مع الاف الوجوه عبر المكان ، كل ذلك دون أن يفقد رزانة الرجل الحريص على الانسان ، البخيل عليه بالموت باي شكل ، فلا ترى عنده مرح العابث حين يجد متعته في رقص نزق فوق القبور ، حتى اذا كانت تلك القبور البلاطات اللامعة لمرقص انيق . وكأني بمجرد لقائه اضفت الى حياتي حيوات ، بل كان لقاؤه برهانا على ان حياة واحدة لا تكفي على هذه الارض ، وان الانسان الواحد يستطيع بل يتعين عليه ان يكثر حتى يصبح عديدا من الناس ، وان الانسان لا يمل حياته الواحدة الا اذا ظلت مفردة ولم تتضاعف وتزدهر .

كان مدركا لقضايا الشعوب : تهمه حريتها وكرامتها وخبزها بحيث جعل عجبي منه يتسم بشيء من قلة الكياسة ، اذ سألته مستغربا : أأنت امريكي حقا ؟

فقال مبتسما : يبدو أنك لا تصدق ، فهل رأيت امريكيين كثيرين خيبوا ظنك ؟

فقلت : لقد صادفت بعض الامريكيين ، غير اني مهما حاولت ان افتح مغاليق نفوسهم وجدتهم معتصمين بجهلهم وانانيتهم وكسلهم الروحي .

فقال : في الحق أني اخشى هؤلاء الامريكيين الذين ذكرتهم ، واهرب من رؤيتهم وليس هناك في نظري اقبح

من السائح الامريكي في اوروبا وعلى صدره آلة التصوير يصور بها كل شيء يجعل « البوماته » مستودع ذكريات ميتة . وحين يعود الى أمريكا وتهد مناهج التلفزيون اعصابه يخرج البوماته ليفخر امام من لم يروا اوروبا بانه احتضن التاريخ وارخ الحضارة : هذا هو قصر فرساي . هذا انا امام تمثال غوته . اخذت هذه الصورة امام كنيسة سان جيرمان وهي كنيسة قديمة جدا ، فهو يكره سيارة السنة الماضية ، ولكن فيه جوعا صبيانيا لكل ما هو قديم . يحاول الاميركي ان يجد ذاته في بطاقة السفر التي يحملها فهي تذكرته الى السماء من غير ان يعلم اين هي وماذا تعني ، اذ يكفيه القدم فيها . الم تسمع بذلك الامريكي الذي أرسل برقية الى المشرفين على مهرجان فاغنر في بايرويت هذا العام قائلا : ارجو الغاء حجز محلي نظرا للاضطرابات ، فاجابوه ان المسافة بين بيروت وبايرويت ثلاثة الاف ميل باجابهم : انا قادم اذن .

تصور رجلا يحجز مقعده منذ الشتاء في مكان لا يدري اين هو ! لقد وجد اسمه في نشرات السياحة واعلاناتها التي تفرض على بصره وعلى سمعه الاف المرات حتى استسلم لندائها المنوم ، فاذا عاد الى اميركا بعد ان احترق ضجرا تحت وطأة فاغنر فانه سيعود وهو في غاية الزهو : الم ير اوبرات فاغنر الطويلة ؟ الم تحدث عنده المغص الضروري لكل رجل امريكي كي يصبح مواطنا صالحا ؟ اما اذا كان حسن الحظ واصبح يشكو قرحة في المعدة ، فقد ارتفع درجتين فوق المواطن الصالح : لقد امتلك مؤهلات الترشيح للكونغرس او لادارة نادي البيسبول في ولايته !

قلت : من عجب اني لم أجد امريكيا معقولا هو في الوقت ذاته يحترم امريكا . فالادباء الامريكان المتازون هم دون تعلقات امريكية ، انهم دائما في منفى روحي عن امريكا ، خذ مثلا همنجواي وهنري جيمس وميلفيل واليوت وباوند وهنري ميلر وارثر ميلر وحتى فولكنر فان منفاه في الماضي .

ولا يسعد كل السعادة بكونه أمريكيا الا الذي لا يستحق الاحترام : مكارثي ، تافت ، مؤلفو القصص البوليسية ، الفيس بريسلي ، هاري جيمس ، مخرجو الافلام الراقصة الملونة ،واصحاب تايم ونيوزويك واصحاب المجلات السادية وكبار الملاكمين .

قال : نعم ، ينفرد بهذه العقدة الامريكان وحدهم . اما ان تكون امريكيا صرفا وتعيش حياة نباتية ، دون ان يكون فيها ما للنبات من تواضع وتلقائية ، واما ان تتجنب امريكا لتحب العالم والحضارة . ارجو الا أعطيك صورة عن نفسي باني مجرد ماسوكي يلذ له ان يلعن نفسه ويحطم جذوره واصوله ، فالامر يتعدى هذا التحديد النفسي البسيط . انه في الحقيقة يتعلق بمحاولة الامريكي لاكتشاف مكانه في هذا العالم ولن يكتشف مكانه مطلقا ان ظن أنه هو المركز . وكما كان رجل القرون الوسطى يظن ان الارض مركز الكون والانسان ، مركز العالم ومن اجله خلق الله الارض والسماء ، فان امريكي القرون الوسطى الحديثة يحاول أن يؤكد ان امريكا هي مركز الثقل الكوني وان ما يسميه طريقة الحياة الامريكية The Ameuicon way of Life هي الجنة وانه آدمها ومعبودة السينما حواؤه .

وتستطيع ان تستثني والت ويتمان ، فقد كان حبه لامريكا والارض الامريكية حبا للانسانية . ولكن ويتمان من ابناء القرن التاسع عشر الخائبين . لقد كان يظن خيرا بامكانيات امريكا ، فما ان تحققت حتى ظهر وجهها الكريه . لم يعش ويتمان ليشاهد قبح ناطحات السحاب ولو انه رآها لما تحدث عن الضخامة والسعة والامتداد والامتلاء بهذا الحنين الى مجهول لم يدر أي وباء هو .

الرجل الامريكي على عكس انتايوس في الاساطير الاغريقية ، يزداد ضعفا كلما ازداد لصوقا بارضه ، وعلى الامريكي ان يتواضع ولا يظن انه هو المركز الذي تدور عليه ومن اجله الامور في الكون . والذين ذكرتهم كلهم متواضعون بشكل او بآخر . ولم يفقد الاوروبي على العموم هذا التواضع ، فهو لم يتوهم بعد ان التسهيلات الميكانيكية تستطيع ان تكسبه لحظة السعادة الكامنة في مقطع صغير لباخ ، فهناك تعيش في دوامة تتلقفك سيارة السنة الجديدة لتلقى بك على اثاث الموديل الاخير ، وما تكاد تستريح عليه حتى تضمك مترنحا رقصة الموسم ، آناء كل ذلك تظن انك قاب قوسين أو ادنى من السعادة ، وهي سعادة مؤجلة مشروطة بحيازة ما ينقصك ، وسيظل ذلك الشيء ينقصك باستمرار لان الاثاث الجديد لا يكاد يمضي عليه

الزمان الكافي لاصابته بادنى خدش حتى يكون اثاثا قديما في حسبان الموديل الذي بعده . وتعود مع الدوامة من جديد. انها حلقة مفرغة قلقها فارغ،وهو لذلك ممض متعب من الناحية الجسمانية اولا ، ثم ينصرف بعدها الى الناحية النفسية . اما مع باخ فانت امام الغاية والنهاية والكمال والابدية فلا تكون لذلك مؤجلا سعادتك لحظة واحدة ، اذ انك فيها وما دمت فيها فانت لا تعي اهي سعادة أو الم ، لانـك اجتزت حدود هذه المسميات ,وصلت درجة من الاطمئنان والوجد والرضى كفيلة كلها ان تحيل الالم قوة وثراء . امام الكمال يكون الانسان متواضعا ولكنه لا يكون قط وضيعا.اما الامريكي فانه حينلا يستطيع التواضع يظل في مكنته ان يكون وضيعا الى حد الزحف الدودي على الارض . أيزور امريكي باريس دون ان يذهب الي الا نفاليد ليرى قبر نابليون ولكي يحس بالضآلة امام ما يتصوره من عظمة نابليون ومغامراته (فهو النسخة الاوروبية من ملاكم نال اعجابه) ولكن يندر ان يجيء على بال الزائر الذي تلذ له تلك الضعة التقارنية ان يعرج على بعد خطوات من الانفاليد ليزور متحف رودان ، ولو زاره فلن يهمه ما في القاعات ، بل يكتفي بأخذ صورته في الحديقة ، وذلك بان يقف بكل ما يستطيع من بلاهة امريكية امام تمثال « المفكر » فيكون قد حقق صنعتين ذلك اليوم لا غنى له عنهما وسوف يضيفهما الى مجموعاته : لقد أحس بالضعة الكافية امام قبر نابليون واحس بالضعة امام تمثال «المفكر» لرودان وهو الذي لم يخطر له ان يفكر في حياته قط اذ ان جريدته اليومية تفكر عنه بانتظام .

***

حدثني كيف ركب مركبا واشتغل فيه خادما كي يصل الى اوروبا ، وان النقود التي لديه لم تكن تكفيه للانتقال من بلد الى بلد ، فكان يستعين على ذلك بالنقل المجاني Hitch Hiking وينتظر خارج المدن من اجل ذلك وكان يقتل وقت الانتظار الطويل في حفظ النوطات التي يحملها ومنها سلسلة اغاني « الطحانة الجميلة » لشوبرت. وقال : « من طول ما انتظرت بين المدن استطعت أن احفظ موسيقى هذه الاغاني عن ظهر قلب . » قال ذلك ببساطة واثقة تبعث على التصديق الفوري ، رغم ان هذه الاغاني الرائعة لا تسهل على غير موسيقي محترف ، فهي لا تشبه في شيء القيء الذي يصبه في الاذان امثال عبد الوهاب في العشرين سنة الاخيرة ,وفريد الاطرش وعبد الحليم حافظ منذ صرختهما الاولى حين ولدا ، وهو وقف على صعاليك السكارى في الشوارع النتنة .

وكانت الانباء قد وردت بان الاسطول الامريكي السادس قد نزل في لبنان ، وكان الرأي أن يكون اتجاهه نحو العراق، وقلت ان هذا الرجل الذي لا يضمر لي حقدا والذي جمعني معه اجمل شيء في الوجود : موتسارت ، كان يمكن ان يكون واحدا في الاسطول السادس ليحاول اهالة التراب من جديد على الاحداث التي نشرت ، ولجمعني معه اقبح شيء في الوجود : القتل . فما اشد الاستقطاب بين الفن والقتل ! وقلت في نفسي : لقد احسن بابلوكازاس الاسباني عازف الفيولونسيل والمايسترو النبيل حين قرر مؤخرا ان يترك عزلته في قرية براد Prades جنوبي فرنسا ، بعد ان كان انتبذ عن جميع المنتصرين على الفاشستيه في الحرب الاخيرة اذ لم يجهزوا عليها في اسبانيا ــ احسن صنعا في ترك عزلته ليقوم بجولات في العالم قائلا : ان خطر الحرب على الانسانية اشد من خطر الفاشستية في اسبانيا عليها ، وانه سيقوم بنصيبه في نشر السلام حين يجعل الناس يحبون باخ وموتسارت وبيتهوفن ، وهيهات لاحد أن يهرب من حبهم ان صورتهم له يد كازاس الحبيبة ، وهيهات ان يفلت من سلمهم قلب اذا اصغى لكازاس وهو يصلي لهم في عزفه السحري.

وافترقنا وليس يظن لنا ان نلتقي في هذا العالم العريض، وقد ترك صوته المتحفر اصداءه في نفسي،وعدت الى فندقي خلال شوارع فينا وقد ضمها الليل ونقلها من مكانها في الزمان الراهن الى مكان بعيد هو بدوره اصداء ، وتذكرت وانا اسير عازف الكمان الذي رأيته منزويا داخل ممشى جانبي في مخزن هائل للاحذية في ميدان ليستر في لندن . وكان قد كفأ قبعته للصدقة ووضع امامه لافتة تقول « نعزف باخ وموتسارت وبيتهوفن وبرامز ونأسف اذ لن نستطيع عزف الروك اند رول » وقطعة اخرى تقول

ــ البقية على الصفحة ٧٠ ــ

مذكرات مسافر (١)

لندن ١٣ تموز ١٩٥٨

ماذا سأكتب عن شوارعك المضاءة من دماء
ودموع شعبي الكادح المحزون في ليل العراق ؟
ماذا سأكتب يا مدينه ؟
فعلى ملامحك العجاف تجوب اخيلة الضغينه
سأقول انك توقدين
مصباح عارك من دم الموتى ، وجوع الاخرين
مهلا وانك تشربين
مائي وبترولي وانك تبصقين
الاف الاف الرجال وتقتلين الطيبين
بالامس في رمل السويس وفي روابي بورسعيد
والان في عمان حيث الموت والدم والحديد

★

استوكهولم ١٤ تموز ١٩٥٨

يا ايها الخلجان يا أفقا توشحه السينه
يا زهرة في البحر هائمة على جرف المدينه
الآن المح ضوء نجمه
عبرت على الافق البعيد كأنها خفقات نغمه !
والآن اسمع في ضفافك صوت اغنية خفيه
تحبو على الامواج قادمة مع الريح الرخيه
من اين ؟ من وطني البعيد ؟ ايا عراق ، ايا عراق
لو ان لي في الفجر اجنحة لجئتك بالعناق
متلألئا مثل السهول ، مصفقا كمياه دجله
مترنحا كظلال نخله
من فورة الفرح العميق ، من الربيع ، من انتصاري
وهبوب اضواء النهار
خضراء تغمر بالصفاء حديقتي ،وسياج داري
لو ان لي ، اواه ، أجنحة لغنيت الرحيل
يحدو بي الامل الوليد اليك يا وطن النخيل
اواه يا وطني البعيد
اواه يا وطني البعيد

★

استكهولم ١٦ تموز

« مؤتمر التعاون بين الشعوب ...

انا في لقاء والشعوب : انا سأرحل للعراق
فاحس الف يد تصافحني واغمر بالعناق
واظل ابكي والدموع تشع فرحتي الطليقه
انا ههنا حر واني همس افئدة رقيقه :
« مرحى لموطنك العظيم فخذ لبغداد التحايا
انّا مع الفجر الكبير سنلتقي ، نحن الضحايا
نعدو الى الينبوع مخترقين
نيران المعارك والرزايا »
ـ مرحى والف تحية لكفاح كوكبنا السعيد
يا اخوتي المترنمين بمجد موطني السعيد
انا عائد فالى اللقاء ، الى اللقاء
في عالم ثان سيولد من ينابيع الضياء
ومن المحبة والسلام ومن اساطير الدماء

(١) من ديوان (من اغاني الحرية) يصدر في القاهرة قريبا

برلين ٢٧ تموز ١٩٥٨

« مؤتمر الحضارات الشرقية »

ابواب سورك في الصباح تمد اذرعها الدفيئه
للقادمين اليك عبر خرائب سود صديئه
ماذا تبقى غير سورك ؟ او قباب دون قمه
ومنازل مهجورة في عالم لم يرع ذمه
ما كان يعرف ما الهوى ؟ ما الحب ؟ ما بسمات رحمه
لكن هتلر لم يمت ، في الارض الاف كهتلر
متعطشون الى الدم المسفوح ، مسعورون اكثر
فهناك صوب الغرب حيث الحقد والدم والطلول
في اللافتات وفي الشعارات الصفيقة والطبول
تتوعد الاسعار تاريخ الحضارة والشعوب
وترن صيحات الحروب .
برلين اني عائد ، ماذا سأكتب عن رحابك ؟
سأقول انك يا جميلة قد اعدت رؤى شبابك
واقول انك يا كريمة تفتحين الان بابك
للوافدين اليك كي يجدوا المعامل والحقول
خضراء من بعد الذبول
فاليك يا برلين اشعاري ، واشواقي ، وحبي
واليك يا اخت الشعوب تحيتي وسلام شعبي

✶✲✶

القاهرة ١٠ اب – (الى الكتاب المصريين)

مرحى ! وقبلة شاعر لك ايها النيل الرحيم
يا موطني الابدي يا زيتونة الحب الحميم
يا فارسا كالريح يجري تحت افياء المنائر
يدلي حقائبه المليئة بالسنابل والازاهر
وعلى حوافر
ذاك المطهم تستفيق شرارة ويهم طائر
انا بين اخوتي الكبار هنا اعز من الصديق
بين النجوم ضحى ، وتحت الشمس في الليل العميق
اواه لو اني استحلت حمامة ، او كنت قبله
لطبعتها غردا على شفتيك في الصبح الجديد
ولعدت شعله
ولهي تغني بور سعيد
والعالم الرحب الوليد

✶

دمشق ٢ ايلول

انا في لقاء والحياة ، انا هنا امل وشوق
برزت على الليل العميق ، تهيم كالرؤيا دمشق
وكأن اصداء المعارك في ضلوع النجم خفق
باب من التاريخ يفتح بل نواقيس تدق
في الفجر تعلن عن نضالات على الباغي تشق
باب بكل « يد مضرجة » مصممة يدق
رثت اكاذيب القرون ، وهب كالعملاق شرق

✶

بغداد ١١ ايلول

بغداد يا وطني المقدس ، لو سمعت دوي شوقي
لتوهجت قبلاتك الحرى على شفتي وعنقي
وتلفتت عيناك سائلتين عن لفتات طرقي
تهفو الى الحب المجنح عبر غرب ، عبر شرق
مترنما بالشعب ، بالسلم الوديع وشمس حقي
انا عائد بعد الغياب ، بدون قيد ، دون رق
في صبح دجلة هائم في مونق الارجاء طلق
وعلى الضحى « عبد الكريم » يشف عن ومضات برق
لمعت فهب الشعب ينهل من تباريحي وحنقي(٢)
عات ليثأر من عصابات مسلطة لمحقي
بقيودهم سيشد ارجلهم ويشنقهم على اعواد شنقي
بغداد اني عائد بعد الفراق اعيش صدقي

بغداد — **كاظم جواد**

(٢) المتحدث هنا ابن الشعب ، الانسان ...

من أجل العدالة !

مسرحية بقلم وجيه رضوان

(في مطلع القرن العشرين اندلعت في مقاطعة سلافيا ثورة شعبية ضد الملك الفاسد اسكندر .. والمشهد التالي يجري في احد شوارع سلافيا .. الليل مظلم شديد البرودة .. جنديان ، في جيش الملك ، يحرسان الشارع امام بيت متواضع له نافذة .. وام عجوز تطل من النافذة ..)

المشهد الاول

الام : هاكما اقداح الشاي!

الجندي ميلان : اوه .. شكرا يا اماه :

الام : (بحنو) انك صغير وجميل يا ميلان وهكذا ابني بترو !

ميلان : بترو ؟

الام : نعم .. بترو العزيز ، ولدي .. وحيدي !

ميلان : واين هو الان ؟

الام : في الجبال .. مع الثوار !

ميلان : (بدهشة) ماذا ... يفعل هناك ؟

الام : (مستغربة) الا تعرف ماذا يفعل الثائر ؟

ميلان : نعم اعرف ، انه يحارب ، انه يقتل مثلنا تماما !

الام : اوه .. ان الثائر لا يقتل .. انه يحارب من اجل قضيـــة عادلة !

ميلان : تعنين ان الثوار ، اي ثوار ، يحاربون دائما من اجل قضايا عادلة ؟

الام : هذا يتوقف على معنى الثورة .. (فجاة) ان الجنود احيانا لا يحاربون من اجل الوطن !

ميلان : وماذا يفعلون ؟

الام : ان جيشنا يحارب من اجل الملك !

ميلان : ان جيشنا هو .. جيش الملك !

الام : حتى ولو كان فاسدا ؟

ميلان : انه مليكنا !.

الام : حتى ولو كان ظالما مستبدا ؟

ميلان : انه مليكنا قلت لك !

الام : ان ابني بترو خير منك !

ميلان : خير مني ؟

الام : نعم .. انه ثائر ؟

ميلان : وانا جندي !

الام : وماذا يعني كونك جنديا ؟

ميلان : يعني انني احافظ على النظام ، واحمي الوطن واصون العرش !

الام : ان الثوار لا يريدون هدم النظام ولا هدم العرش ، انهم يريدون ملكا عادلا .. هل استشعرت قط عظمة معنى وجود ملك عادل ؟

ميلان : (متأففا) حسنا يا اماه .. ماذا تريدين من وراء هذا النقاش ؟

الام : (بحزن) لا شيء سوى ان يعود ابني بترو (صمت) نعم ، ان يعود منتصرا .. (تخاطب ميلان ورفيقه) حسنا ، سآتي لكما بقطعتي خبـز وبعض الجبن ، لا بد انكما جائعان .. يا الهي ! انكما صغيران وجميلان مثل ولدي بترو ..

(تختفي من النافذة)

ميلان : انها تحب ابنها بترو كثيرا ..

جوزيب : وهل تريدها ان تكرهه ؟

ميلان : ولكنها تحب الثورة لان بترو فيها !.

جوزيب : وانا احب الثورة كذلك لان قضيتي فيها !

ميلان : (بدهشة) قضيتك ؟

جوزيب : نعم .. انا ايضا لي في الجبال ثائر اسمه بترو !

ميلان : لا افهم .. انت ايضا ...

جوزيب : نعم .. انا ايضا ، هناك في الجبال عندي بترو ، عندي ولد وحيد احبه وارعاه ، عندي قضية عادلة تقاتل ، اننا نعشق الحريـة يا ميلان ، اننا نعشق الحب والعدل والمساواة !

ميلان : انك تخيفني يا جوزيب .. انك .. حسنا انك من جنود الملك ، اليس كذلك ؟ وانت الان تحاول حماية الملك ، وها نحن نحرس احد شوارع سلافيا من الثوار ، نفعل ذلك من اجل من ؟ اليس من اجل الملك ؟

جوزيب : ميلان .. نحن لسنا جنودا في جيش الملك .. الملـك لا جيش له ، الجيش للشعب ، لابناء سلافيا العظيمة .. اسمع يا ميلان ان الثوار الذين يحاربون هناك في الجبال هم ايضا جيش الشعب !.

ميلان : يا الهي ، ان الجيش يحافظ على الوطن ، وعلى النظام ، وعلى الملك !

جوزيب : والحرية .. الا يحافظ عليهاايضا ؟ تعني يا ميلان ان الجيش وجد لحماية الملك ، لا حماية الحرية ؟

(تطل الام من النافذة ثانية وتقدم للجنديين قطعتي خبز وبعض الجبن)

الام : كلا يا صغيري ، يا طفلي ، اوه يا الهي متى يعود ابني بترو ، متى يعود منتصرا ؟

ميلان : يخيل لي يا اماه انك تعشقين انتصار بترو اكثر مما تحببن بترو نفسه ؟

الام : اوه ان بترو والنصر ها في منزلة واحدة عندي .. انهمـا قضيتي !

ميلان : هل انت ايضا ثائرة على الملك يا اماه ؟

الام : نعم .. لانه فاسد !

ميلان : فاسد ؟

الام : بترو كان يقول لي : لقد سخر الملك اسكندر الدولة لخدمة عشيقته ماريا ، وهذه امرأة ساقطة ، وقد جعل منها ملكة ..

ميلان : هذا ما فعله ؟

الام : بترو كان يقول لي : ان الملك لم يعد ديمقراطيا ، لقد رجـع مستبدا ، وهو يتفاوض مع الاعداء ، اعداء سلافيا !..

ميلان : (هازا كتفيه) ان ذلك لا يغير من الوضع شيئا .. طالما نحن

جنوده !

جوزيب : صه .. عليك الان ان تقوم بجولة في الشارع ، هذا وقت نوبتك !

(تتراجع الام من النافذة ، يمر فجأة شاب ، يلقي التحية على جوزيب ، ينادي ام بترو ثم يدخل ، بعد لحظات يخرج الشاب ... وعندما يختفي تطل الام من النافذة .. يعود ميلان من دوريته .. يبدو على الام اللهفة والفرح)

الام : يا الهي شكرا لك .. سيعود بترو .. لقد قال لي انه سيعود !

جوزيب : من قاله لك ؟

الام : ميخائيلو .. ميخائيلو .

جوزيب : من ميخائيلو هذا ؟

الام : لقد كان عندي منذ لحظة !

جوزيب : اوه .. انه هو اذن ؟

الام : ماذا تعني ؟

جوزيب : انه ثائر !

الام : نعم انه رفيق بترو .. انه يحارب معه من اجل القضية !

ميلان : (بحدة) كان عليك ان تلقي القبض عليه !

جوزيب : (ثائرا) لقد سئمت يا ميلان .. ان هناك شعبا يثور من اجل العدالة ، وان هناك ملكا يتآمر عليه .. ومع ذلك تريد حمايته !.

الام : سيعود بترو .. سيعود الليلة (فجأة) اوه .. اذا جاء فلسوف تلقيان القبض عليه .. يا الهي .. لماذا اخبرتكما ؟ (تبكي) سيموت بترو .. ستعتقلانه وسيعدمونه رميا بالرصاص !

جوزيب : هدئي روعك يا اماه .. فلن يصيبه مكروه !

ميلان : لننته من هذا الكلام .. حسنا ليأت بترو .. ليأت !.

المشهد الثاني

(غرفة متسعة الارجاء في قصر الملك اسكندر .. ثلاثة ضباط يبدون منحنين يتأملون امامهم خريطة على طاولة مستديرة ... القائد العام الكابتن نقولا ، الكولونيل اركادي .. يدخل فجأة الملك)

الملك : حسنا ايها الضباط .. ما هي اخبار المعركة ؟

القائد : مولاي .. اننا نحاول عبثا تطويقهم .. انهم يقاومون ببسالة !.

الملك : هؤلاء العصاة .. يجب تاديبهم !

القائد : بالطبع يا مولاي ، ولكن ذلك يتطلب صعوبات هائلة ، ثم ان المعركة قد تستمر سنة كاملة !

الملك : (بدهشة) سنة ؟

القائد : نعم يا مولاي .. انهم يزدادون قوة يوما بعد يوم !

الملك : وما العمل ؟ يجب توجيه ضربة قاضية (صمت) هل نربح المعركة ؟

القائد : بعد سنة من القتال .. لا ادري !

الملك : (مذعورا) بعد سنة من القتال .. لا تدري ؟ (يصر على اسنانه) هؤلاء العصاة سأعرف كيف اسحقهم .. (يصمت ، يبدو عليه التفكير) حسنا دعوا كل شيء لي ايها السادة ، سأطلب نجدة عسكرية من ملك كورانيا !.

القائد : (يتراجع بذعر) مولاي .. ان هذا مستحيل ، ان كورانيا تضمر لنا العداء !

الملك : (بنبرة) ماذا تريد كورانيا ؟ تريد ان تستغل المناجم في جبال سلافيا ؟ حسنا سامنحها هذا الامتياز ، وسأقول لملكها تلك هي الجبال .. خذها ، جبال سلافيا العظيمة ، الغنية بالثروات المعدنية ، الحبلى بالكنوز، انها لك فاستثمرها ، ولكنها في قبضة الثوار ، فتفضل .. اقض عليهم واستول عليها !

القائد : (وقد اشتد ذعره) مولاي .. ان هذا امر خطير .. ان كورانيا ستهدد وطننا ، ستقضي عليه ، ان طمع مليكها باستثمار المناجم في جبالنا ليس الا وسيلة لاحتلال سلافيا فيما بعد !

الملك : ان علي حماية عرشي .. انني وريث خمسماية سنة من الملكية المجيدة ، وقد دافع جدي العظيم عن عرشه دفاعا رائعا واهرق الدماء ، وانا لا اكون وريثا ضعيفا في سلالة « كوغانين » العظيمة !

القائد : هذا محال يا مولاي .. سيثور الضباط ، سيتذمر الجنود ، سيعتبرون ذلك امتهانا لكرامتهم وتدخلا في شؤون سلافيا ، وانه من العار على جيش سلافيا العظيم ان يطلب نجدة من جيش اخر لان ثمة تمردا في صفوف الشعب !.

الملك : (بثورة) انني هنا القائد الاعلى .. وعليك تنفيذ اوامري..!

(يهم القائد بالكلام ، ولكن الملك يخرج وهو ما ازل ثائرا يلوح بقبضة يده ، يغلق الباب خلفه بعنف)

القائد : (مخاطبا احد ضباطه) حسنا يا اركادي .. ما هي خطتك ؟

اركادي : لقد انتهيت يا سيدي من وضع الخطة النهائية . يجب علينا القيام بهجوم مباغت في الليل ، واعتقد ان قواتنا جاهزة على اتم الاستعداد، وعلى المدفعية ان تمهد لتقدم قواتنا فتضرب بشدة ضربا متواصلا معاقل الثوار في كهوف الجبال ، واذا استولينا على الجبل الشمالي الصغير

نكون عندئذ قد عرضنا قوات الثوار الى ...

القائد : حسنا يا اركادي ! والان دع ذلك جانبا !

اركادي : (بدهشة) ولكن يا سيدي .. ان الوقت يسبقنا ؟

القائد : هل سمعت ما قاله الملك ؟

اركادي : كلا .. لقد كنت مشغولا باعداد الخطة ،

القائد : اسمع اذن .. ان الملك يطلب نجدة من جيش كورانيا !

اركادي : (وقد استولى عليه الذعر) مستحيل يا سيدي .. مستحيل هل وافقت ؟

القائد : طبعا لا .. ان ذلك سيكلفنا غاليا !.

اركادي : ان ذلك سيكلفنا كرامتنا ..

القائد : لقاء مساعدة جيش كورانيا فان الملك سيمنح ملكها رخصة استثمار المعادن في جبال سلافيا ..

اركادي : ان ذلك مريع .. ان ملك كورانيا لا يؤتمن وسوف ينقض على سلافيا ويبتلعها بعد ذلك ..

نقولا : سيدي القائد .. ان الملك يخون ..

اركادي : اخفض صوتك .. يا نقولا !

نقولا : بل سأرفعه عاليا ولو سقت الان الى الاعدام رميا بالرصاص !.

القائد : انني لا اريد انشقاقا في الجيش .. هنالك الملك و ..

نقولا : اذا كنت لا ابالي بان اعدم رميا بالرصاص فسأقول كلمتي .. ان الملك يخون سلافيا ويطالب بسحق ابنائها من اجل عرشه ، واذا اتفقنا على ان الملك خائن فقد التقينا مع الثوار عن طريق غير مباشر .. ان الثوار اعداء الملك ، والملك عدونا !..

القائد : هذا صحيح .. ما العمل ؟

اركادي : يجب خلع الملك !.

نقولا : اذا دخل جيش كورانيا لسحق الثوار واحتل الجبال فانه لن يخرج منها بحجة التنقيب عن المعادن ، وعند ذلك سنظر لان نخوض ضده حربا غير مأمونة النتائج !.

القائد : حسنا .. اين هي قطعاتك يا نقولا ؟

نقولا : انها مرابطة في ثكناتها قرب القصر وعلى اتم استعداد !

القائد : وانت يا اركادي ؟

اركادي : كانت قواتي تستعد للالتحاق ببقية القوات المحاربة وهي بطبيعة الحال .. مستعدة !

القائد : حسنا .. ان الجيش لا يمكن ان ينحاز مطلقا ، الا في الحالات التي تهدد الحرية والعدالة والمبادىء ، وقد اختار جيشنا العدالة ..

(يصب القائد اقداح الخمر لمعاونيه .. يرفع الثلاثة الانخاب)

القائد : ليسقط الملك ..

اركادي : تحيا العدالة ..

نقولا لتحي سلافيا ...

المشهد الثالث

(المنظر الاول نفسه .. في الشارع .. ميلان وجوزيب يجلسان على الرصيف ، جوزيب يضع بندقيته جانبا بينما اتكأ ميلان على .. بندقيته)

جوزيب : ان هدوء الليل يثيرني !

ميلان : نعم ، فثمة صمت قاتل ..

جوزيب : الشوارع كلها خالية ، يخيل الي اني ارى اشباحا !.

ميلان : انك دائما تحلم بالثوار !

جوزيب : انا احلم بالعدالة !

ميلان : قل لي .. ما معنى العدالة ؟ ان يسقط الملك !

جوزيب : لا.. ان تبقى سلافيا حرة ..

ميلان : وهل سلافيا مستعبدة ؟ بربك قل لي يا جوزيب .. هل هي كذلك؟

جوزيب : ما دام الملك لا يريد خيرها بل حماية عرشه !

ميلان : (فجأة) جوزيب .. هل سينتصر الثوار ؟

جوزيب : اني اتمثل نصرهم منتصبا في هذه اللحظة امامي مثل عملاق سابح في النور .. ان العدالة يا ميلان قادمة من الجبال مثل العروس .. ان الثوار سيزفونها قريبا الى سلافيا !

(يلمحان فجأة شبحا يقترب ..يختفي لحظة ثم يظهر ، ينهضان بسرعة ، يلتقطان سلاحهما .. الشخص يقترب ، تسمع صرخة ((قف))..)

ميلان : من انت ؟

الشخص : انني قادم الى بيتي ..

ميلان : اين ؟ (يفتشه)

الشخص : (رافعا يديه) هنا (يشير الى البيت ذي النافذة)

جوزيب : يا الهي .. انه .. انه !

(في هذه اللحظة تطل الام حاملة اقداح الشاي)

الام : لقد شعرت انه ربما اصابكما التعب والعياء والبرد فجهزت لكما بعض الشاي (تنظر فجأة الى الشخص المجهول .. تشهق ، يسقط القدحان من يديها على الارض .. فيتحطمان .. تهتف) بترو .. حبيبي بترو ، ولدي .. لقد عدت ..

ميلان : (ضاحكا) انه بترو .. حسنا كل شيء على ما يرام .

جوزيب : نعم .. ان له عيني الصقر (يخاطبه) كيف حال الثورة ؟

بترو : (بجفاء) ان الثورة لا تخصك .. انها تخص الاحرار !

جوزيب : (كأنه لم يسمع) هل هي على وشك النصر ؟

بترو : (بنفس الجفاء) صه لا تلطخها بلسانك الكريه !

الام : (معترضة) بترو .. انهما صديقان يا بترو .. لقد قالا لي .. ليأت بترو ولن نؤذيه !

بترو : منذ لحظةكنت ساطلق عليكما الرصاص !

(يحيط امه بذراعيه القويتين) حسنا يا اماه .. لندخل !

(يدخلان .. يسمع من بعيد وقع حوافر خيول ، يقترب الوقع شيئا فشيئا ثم يعلو ، ينتبه ميلان وجوزيب للضجة ، تظهر دورية من الجنود الفرسان ، تقف قربهما)

الضابط : حسنا .. انضما الي رفاقكما !.

(يلتحقان بالدورية)

جوزيب : ماذا هناك ؟

فارس : لا شيء .. لقد سقط الملك !

وجيه رضوان



جزائري

اسطورة عربية

جزائري .. عينـاي .. ما ارحبا   يا ليـت قلبي .. نسمة من صبا
تبـوح في سـمعك كل الـذي   لا تستطيـع العين .. ان تكتبـا
شيء .. يهز القلب .. مثل الهوى   مهما رمى في القلب .. ما أتعبـا

★

جزائري .. لن يحرقوا ارضنـا   لن يقطعوا اليك .. كل الربـى
عيونهم .. أقصر مـن ان تـرى   شرارة النسر .. اذا صوبـا
سل قمة الاوراس عن حبـهم   كم مرة .. قالت لهم : مرحبـا
يا فارس الثوار .. حـوّل على   هذي الربوع الحمر .. لن تذهبا
اريد ان أهدي .. الى قلبكـم   رصاصة الحقد .. الذي الهبـا
واشعل الهواء .. فـي عينكـم   فيصطلي اعصابكم ... ما خبـا
لن تذهبوا .. فالجار اولـى بمن   جار .. واحرى الناس ان يصلبا

★

جزائري .. يا نار اسـطورة   تنزّه النضـال ان يغلبـا
يا نفحة التاريخ .. لن تنطفـي   ويا حروفـا .. بعد لن تكتبـا
ويا شموخا لم يزل صـامدا   يعلّم الاجيـال معنـى الابـا
لن تهدأ الثورة ... في ارضنـا   تبـارك الـدم الـذي خضّبا
وفجّر الاجيال حقـدا عـلى   احفـاد « ميرابو » الذي أذنبـا
جزائـري .. لا نـارنا أخمـدت   كلا .. ولا شعبي انطفـا اونبا
وحق قتلانا .. لنـا جـولة   يذهل فيـها الظالمين النبـا

★

جزائري .. والفجر يسقى نـدى   لقد نمـا الدرب .. وقد أعشبـا
لن تعدمي الايدي التـي تعتنـي   بالزهرة الحمراء .. كـي تخصبا
الاصدقاء ... كلـهم اقسموا   جزائري .. لن تصبحي مخلبـا
ارادة الشعوب اقـوى ... وان   تأخـر الفجر .. فـلن يغلبـا

عندما يلد الرجال ..!

قصة بقلم سليمان فياض

ان تكون مسافرا ، وتقف على محطة ، في انتظار قطار ما ، ذلك شيء مقبض ، يثير الحزن في القلب ، وان تكون في انتظار قادم عزيز ، ذلك شيء مقلق للنفس . ولكن ان تكون متفرجا ، وتقف لغير غرض ، على ذات المحطة ، فذلك شيء رائع جدا ، بالغ الروعة . انك ترى العالم مصغرا مقتضبا في ابسط صورة ، على كفك . انت لا تشعر آنئذ بالفراغ ، ولا بالوحدة فقط . وكثيرا ما وقفت عصر كل يوم ، على الرصيف الرئيسي الكبير بمحطة الزقازيق ، لاشهد العالم ، عالمنا الصغير : أناس قادمون من كل جهة ، من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب ، وهم ابدا دائمو التجدد ، لا يشبه احدهم الاخر .

كان ثمة رفاق اخرون معي من طلبة المعهد الديني . كانوا يهربون من بيوتهم مثلي ، ثم يقفزون سور الاسمنت الى قلب المحطة ، ويعبرون عشرات القضبان ، مخلفين الورشة الكبيرة الفاحمة اللون وراء ظهورهم ، وعلى الرصيف الكبير ، كنا نتناثر هنا وهناك . اما انا ، فكنت اختار لنفسي عمودا حديديا ، في المنتصف تماما من الرصيف ، وأروح اراقب القادمين والذاهبين من مجهول الى مجهول .

ذلك العصر ، جاء القطار رقم ٣١٢ ، كان محملا بجنود مسلوخي الجلد . كانوا يسمونه قطار البيض . وكالعادة ، تعالت صيحات باعتنا ، وراحوا يقاضون الجنود الانجليز بالصابون ، والتماثيل النسائية العارية المصنوعة من الخشب او الجبس ، والمناديل النسائية الملونة ، والعطور البلدية . وكانوا يأخذون في مقابلها سجائر انجليزية فاخرة ، ماركة : النصر والمختار ، وجون بول .. سجائر فقط . كانت تثيرني دائما جرأة الانجليزي البالغة ، على ان يقف مطلا من نافذة قطار ، عاري الصدر ، وليس على جسده كله ، سوى سروال قصير اصفر اللون .

... وجاءت « سكينة » ، وراحت تنادي ، كالعادة ، ثانية عنقها لليمين واليسار ، متأودة ، متقصعة ، مادة يدها بالمنديل ، والمشط ، وعشرات الاشياء النسائية ، الخاصة جدا . كانت حلوة المنظر كالليمونة . كانت تأكل خبزا . وكنت ارقبها في صمت ، دائما ، عندما يأتي قطار البيض ، وعندما يأتي قطار السود . ويوما بعد يوم ، تدربت على ان اكف عن غيرتي وسخطي . وكنت اقول لنفسي دائما : « انها تأكل خبزا » ..

واقترب مني « هلال » وقال لي ، وهو يشير نحوها بعينيه :

ـ اتعتقد ، يابكر ، انها ستظل واقفة على قدميها ؟ . غير معقول . فمن يضع قدميه في الوحل ، لا بد ان يتلوث به يا بكر .. ضروري ان يحدث ذلك !

واذ كنت اعرف « هلال » جيدا كما اعرف « سكينه » فانني لم اغضب . قلت له فقط ، بثقة وحسم :

ـ هذه ! لقد مضت عليها سنة كاملة ، وما تزال واقفة على قدميها . منذ عام ثلاثة واربعين هي واقفة وحدها ، واقفة على قدميها مثل الرجال . لا يمكن أن تقع .

ونظرت للقطار ، للايدي ، والوجوه ، والاسنان الصفراء المفلجة ، المطلة من النوافذ ، وقلت لـ « هلال » :

ـ ايعجبك ذوو الدم الثقيل هؤلاء؟ انهم لا يعرفون شيئا سوى الصفير ؟ ولا يجعلني افقد اعصابي ، سوى ابناء السكسون ، عندما يسيرون في شارع عباس ، نافشين ريشهم ، وقد صنعوا من ايديهم مثلثا على الجانب الايمن ، واخر على الجانب الايسر ، ثم ... يأخذون في الصفير في الليل ، والناس نيام .

انا اعرف « سكينة » . اعرف انها مسكينة جدا .. لم احادثها قط ، ولكنني ابحث دائما عنها في المحطة ، وارقبها دائما . وهي تعرف ذلك . ولكنها مشغولة بالخبز ، بالبحث عن اللقمة التي تضعها في سبعة افواه من خلفها ، تنتظرها كل ليلة ، في حجرة من خشب « البغدادلي » بشارع الحريري . ومعرفتي بـ « سكينة » كلها من افواه الناس . وانا لا اشك فيما اسمعه من تاريخها . انهم يحادثونها ، فلماذا اكذبهم فيما يختص بها ؟ قال لي « أحمد » آنئذ :

ـ اترى . انها مسكينة جدا . ماذا يمكنها ان تصنع . انها تأكل خبزا . أبوها مات ذات ليلة تحت احدى العمائر . طائرة المانية ضربتها بالقنابل . مات في الاسكندرية ، وهو يطعم الناس ، في المطعم الوحيد بالعمارة .

اعرف ذلك جيدا . اعرف ان « سكينة » جاءت باسرتها الى هذه المدينة . ولم يمكنني قط ان اكتشف السبب في انها اختارت هذه المدينة بالذات ، دون سواها . ولكنني استطيع ان احزر السبب . استطيع ان ازعم مثلا لاقنع نفسي ، انها جاءت هنا لتأكل خبزا ، من المناديل ، والامشاط ، والتماثيل النسائية ، والاشياء الاخرى ، الخاصة جدا .

نظرت اليها ، وهي تسحب يدها بدلال ، من جندي اهتم . نظرت بغيظ . كم كانت رائعة في ذلك اليوم .. منذ شهرين وعشرة ايام تماما ، عرض عليها جندي اخر ، وسيم جدا ، ورقة صغيرة بخمسة وعشرين قرشا . كانت يده مسلوخة الجلد هو الاخر . وقال لها الجندي الوسيم كلمات بذيئة جدا . قالها بالانجليزية . وكنا جميعا نحفظ هذه الكلمات جيدا . واشار لها الوسيم . البغل اشار لها الى ما تحت القطار . المسكينة ضحكت آنئذ بدلال . المسكينة التمعت عيناها بلمعة الرغيف عندما يخرج ساخنا من الفرن . المسكينة وافقت . كدت اصرخ من الرعب والتقزز . هنا . تحت القطار . وسط الف رجل ومائة طفل . ومعها . مع عزيزتي « سكينة » المسكينة اخذت الورقة اللعينة . اخذت الثمن . وضحكت هي ، وتأودت . واختفى هو من النافذة ليخرج من باب العربة . وفي اللحظة ذاتها جرت هي شمالا مع الرصيف ، وانحرفت شرقا عند بوابة المعسكر الصغير . كان هذا المعسكر لابنائنا ، لجنودنا الذين يحرسون المحطة من غدر اللصوص والانجليز معا . كنت اعرفهم جيدا ، جنودنا . وكثيرا ما جلبت لهم زميلا ليغني او يقرأ القرآن ، في هدأة الليل . راح الجندي الوسيم يبحث عنها كالمسعور . كلم بسرعة جنديا اخر مفتول العضلات . وحملا بندقيتهما ، وذهبا وراءها الى بوابة المعسكر الصغير . أسرعت انا . « سكينة » هناك . سيقتلون « سكينة » . ربما حدثت معركة مع جنودنا . وقد يموت احد . عبرت الباب . لم يعترضني الحارس

الاول . كان صديقي . لم يعترضني الحارس الاخر . كان صديقي كانت « سكينة » هناك ، داخل الخيمة ، صفراء اللون ، مبهورة . كان جنودنا يتحلقون حولها . قلت لهم بسرعة :

ـ الانجليز قادمون ليبحثوا عنها . البنادق في ايديهم .

هتف الشاويش مفزعا :

ـ بنادق ؟!

.. وجاء الجنديان ، المسلوخا الجلد . ايديهما كانت على زنادي البندقيتين . كان جنودنا ايضا يقفون صفا واحدا ، شارعي البنادق بدورهم ، في صدري الجنديين . كانت الرمال ساخنة ملتهبة تحت الاقدام . وصرخ الشاويش غاضبا :

ـ ابتعد من هنا يا كلب انت وهو

وتكلم الجنديان المسلوخا الجلد كثيرا . لم يفهم جنودنا كلمة من حديثهما ، طلب الجنديان ان يفتشا الخيمة باشارة من طرف البندقية ، بندقية الوسيم . ورفض الشاويش ، واخذ « التكة » الاولى في زناد البندقية . اصفر وجها الجنديين ، وانسحبا عائدين . لقد سارا آنئذ مسافة طويلة بظهورهما ، وبندقيتاهما مدلاتان الى اسفل . وذلك اليوم . ابتسمت « سكينة » لي ، والشاويش يطاردها حانقا ، قائلا لها:

ـ كنت ستتسببين لنا مجزرة .. لا تأتي هنا مرة ثانية

ما كان اروعها ذلك اليوم .. بحثت عن « سكينة » حولي . كانت قد اختفت ، وكان قطار البيض قد اختفى ايضا ، حاملا معه الجندي الاهتم ، وقال لي « محمود » :

ـ بعد ساعة يأتي قطار الموريشان

وقلت لنفسي : «ساعة . يا لها من زمن طويل» . وتركت مكاني بالمحطة. وعبرت بوابة الرصيف . ولم يعترضني عامل التذاكر . كان صديقي . السير على شاطىء بحر مويس ، اواخر الخريف ، في قلب ضباب رمادي ، متعة جميلة حقا ، لمن يحمل في يده عودا اخضر اللون من القصب. ان رشف العصير من العود يدوي في الاذنين كالطبل . وليس احلى للنفس من رؤية السحاب الرمادي في السماء . والوجه اللامع لطريق الشاطىء ، عندما لا تكون على الطريق سوى سيارات قليلة ، متباعدة ، لا تطلق نفيرا واحدا .

لا ادري لماذا تذكرت ذلك الجندي . ربما كان السبب هو طول عامود النور الهائل في اول الكوبري .. كان الجندي فارع القوام . كان يتكلم الانجليزية ، ولكن لم يكن انجليزيا . كان محروق اللون لدرجة شديدة. وكانت له لحية سوداء بيضاء في وقت واحد . وكانت حول رأسه عمامة هندية لا تخطئها العين . كان هنديا اذن . وعندما راى بعضنا يلبس عمائم بيضاء ، نزل من العربة ، راح يرطن بكلمات لا تفهمها . وآنئذ قدمنا له « شوقي » فأخذ يرطن بمقابله . كان « شوقي » تلميذا في المدرسة القانونية المجاورة لنا . التفت « شوقي » الينا آنذاك وقال لنا :

ـ انه مسلم من الهند . وهو ذاهب ليحارب في شمال افريقيا . ويقول انه يريد منا مصحفا ، لكي يعلقه كتعويذة حول رقبته . ويقول ان المصحف سيحميه من الموت في الميدان

ارتعدت تلك اللحظة . لم تكن الحرب حربه هو . ومع ذلك سيحارب. ولذلك يحتاج مصحفا ليدفع عنه موتا لا يريده . ونظرنا الى بعضنا . لم يكن مع احدنا مصحف ما . وتقدمت « سكينة » وفكت ازرار ثوبها ، ونزعت من رقبتها مصحفا كان معلقا بعناية . مصحفها الخاص . كانت تحمله ايضا ليدفع عنها اخطار حياة لا تريدها . وقدمت المصحف للهندي الطيب ، وعيناها دامعتان . واخذه الهندي بلهفه ، وقبله بحنان . ثم مد لها يده بجنيه ، ولكنها رفضت . رفضت بشدة . وقالت انه هدية منها . وضحكت . وذهبت الى عربة اخرى ..

وعلى شاطىء بحر مويس اخضلت عيناي بالدموع ، دموع مشرقة . ووقع عود القصب الى جواري ، على سور الكوبرى . كم كانت «سكينة» رائعة في ذلك اليوم ايضا ..

على البعد رايتها .. يا الهي.. سكينه؟. لا يمكن ان تكون هذه هي ..سكينة . محال . محال ان تكون هنا الان ، على شاطىء بحر مويس . كانت ترتدي فستانها الاسود . كان فستانا بالغ البساطة . وكانت تلبس شبشبا اسود في قلبه شريط احمر . اعرفه جيدا على بعد ميل . كانت تقف هناك بعيدا في الجنوب ، على الرصيف المقابل . هبطت من فوق السور ، وسرت نحوها ، على رصيفي . لقد ابدلت ثيابها بسرعة ، ولم يمض على قطار البيض وقت طويل ، وجاءت الى هنا : « لماذا ؟ » و« لاي سبب ؟ ». قلت لنفسي . وقفزت الى رأسي ، عربات جيب انجليزية ، وعربات اللوري الاخرى . قلت لنفسي : « اتكون قد سقطت؟». وقلت لنفسي : « سأمنعها ، اذا لم يكن الوقت قد فات » .

اسرعت اليها . عبرت الشارع ، الى رصيفها . كادت سيارة «لودي» انجليزية ان تدهسني . تراجعت خطوتين بسرعة . ورايتها آنئذ . رايت « سكينة » في اللحظة ذاتها ، تقف في وسط الشارع ، في قلب ضباب شفيف ، مادة ذراعيها تحت السحاب ، كان على ذراعيها « ايشرب » ازرق ، كالدخان . وراحت « سكينة » تشير للعربة . زاقت عجلات العربة بشدة ، وهي تقف امامها ، على ارض الشارع اللامع . استدارت هي حول العربة بسرعة ، لتركب من الخلف . بدأت تصعد . الايدي المسلوخة تساعدها . عدوت نحو العربة . ورحت اصرخ بصوت داو :

ـ سكينه .. سكينه ..

التفتت هي الى الخلف ، بينا كانت تجلس . اقسم ان لونها قد شحب، اقسم انني سمعتها تهتف في نفسي : « بـــكر ... بكـــر » . ولكنهم اجلسوها ، واخذوها . اخذوها بعيدا ... الى عشرات الرجال . عدت حزينا اجرجر قدمي نحو عود القصب . حملته معي . وقلت لنفسي بغير ثقة : « ربما لم تكن هي » . كنت اعرف ثوبها الاسود ، وشريط حذائها الاحمر ، وذلك الـ « ايشرب » الازرق ، كالدخان. وكان قلبي يتفتت في داخلي !

عندما ينام الانسان سليما معافى ، ثم يستيقظ ليجد نفسه مريضا ، فانه آنئذ يرى العالم اصفر تماما . وتبدو الاشياء امامه كالاشباح . وعندما يصحو الانسان على اصوات استغاثة ، فان اذنيه تصفران ، ورأسه يطن ، وتستيقظ حواسه كلها ، لان عقله قد توقف . هكذا كنت تماما عندما ولجت بوابة الرصيف الحربي الكبير للمحطة . وعند ذاك ، ملأت انفي رائحة حريق ، وكان على لساني مذاق رماد . وحين تملأ الانف رائحة حريق ، ويعلو اللسان مذاق رماد ، فذلك معناه ان الكارثة تحدث ، وانت في قلبها . وماذا تكون « سكينه » ، والهندي ، سوى الكارثة بعينها . ان رائحة الحريق ، حين تسد كل منفذ لاية نسمة طليقة ، لابد أن تكون آتية من بيت يحترق . وهل تكون سكينه ، والهندي ، سوى هذا البيت الذي احترق ، وانتشر منه الرماد الاسود ، الى كل فم .

وقت الغروب كان يتلاشى ذلك اليوم . والظلمة كانت تنتشر ، وعقارب الساعة تقترب من السادسة ، دقائق فقط ويأتي قطار الموريشان : الجنود الذين هم من افريقيا واسيا ، وتأتي « سكينه » ايضا ، اذا لم تكن هي

فتاة اللوري . كم اتمنى الا تكون هي. المحطة هنا ، تحت اقدامي ، اعلى من اي مكان اخر في المدينة كلها . ورائحة الحريق اكثر وضوحا . حتى الظلمة الخفيفة محمرة اللون . والسحاب الرمادي آخذ في التكثف والتسربل بالسواد . كأن كل شيء على الرصيف يعكس حريقا هائلا في البعيد حريقا يمتد الى مدينتنا ليقتلعها من الجذور .. منذ عامين فقط، صحوت من نومي على صراخ بشري مرعب . وعدوت الى الشارع . كان كل شيء احمر اسود . كانت هناك ، يا للفظاعة ، كتل خشبية تتهاوى جمرات متقدة حول البيوت المجاورة . لم يستطع اي انسان ان يقترب . كان هناك بيت من « البغدادلي » يحترق ، وراح يتهاوى جدارا بعد جدار.

استندت بظهري الى عامودي الخاص على الرصيف . ساقاي مخدرتان، متعبتان . والمصابيح مدلاة مثل المشنوقين على اعمدة الارصفة . جاء « طاهر » وقال لي :

ـ أين كنت ؟.. لقد حدثت ثورة في التل الكبير .. لقد ثار جنود الموريشان ، ضربوا رصاصا في الانجليز . يقولون ان معركة قد دارت هناك ، ان قوات الانجليز قد جاءت من معسكرات فايد ، حاصرت معسكر الثوار . لا أحد يدري ماذا يحدث هناك الان .

فكرت آنذاك ، ان النار تشتعل في معسكر الموريشان بعيدا ، قرب مدينتنا . قلت لنفسي : « بيت آخر يحترق » .

في البعيد ، صوب الجنوب ، سقطت شارة « السنافور » ليمر قطار رقم ٥٧٦ . ومن البعيد راحت ضجة ما تتعالى وتقترب ، السماء قد تلبدت الان بغيوم سوداء كثيفة ، ربما امطرت السماء . سيزول البرد لو امطرت السماء . ربما انطفأ ايضا هذا الحريق الهائل تحت قطرات المطر . وآنئذ ستعود « سكينه » الينا . بدأت الضجة تتضح عندما لاحت عجلات القطار.
دخل قطار الموريشان بجوار الرصيف الحربي . احتكت عجلات القطار بالقضبان رويدا رويدا . وعلت صفارة القطار على كل ضجة . لم تكن في نوافذ العربات أية يد ، ولا اي وجه . ومع ذلك كانت الضجة في الداخل صاخبة تدوي . مر القطار من امامي : الونش ، العربات الست الاولى ، واحدة بعد اخرى . سكتت الصفارة والعجلات ، وانطلق دخان الونش الاسود عاليا ، وفتحت ماسورة في جدار الرصيف . الناس يتجمعون حول القطار ، حتى بين القضبان في الجهة الاخرى . جنود الحراسة في معسكرنا الصغير ، اقبلوا ليعرفوا الخبر . جنود الموريشان متكدسون وقوفا ، تحت الاف الاعين . ايديهم العجفاء الفاحمة ، مرفوعة الى اعلى في زوايا قائمة . ايديهم تتذبذب علوا وانخفاضا ، اعلى واسفل ، كما لو كانت تشد صفارات عديدة ، وافواههم تهتف ، تردد ، تبكي : « بوم بوم .. بوم بوم ... بوم بوم .. » يا له من موكب بشري. شعري يقف. اذناي ترتعدان . لم تحضر « سكينه » قط هذا القطار . « سكينه »بينهم على اي حال . «سكينه» بينهم على اي حال . «سكينه» تهتف ، تردد ، تبكي: «بوم بوم .. بوم بوم .. بوم بوم .. » . وجوم شامل يسود المحطة . ليس هناك من صوت اخر وراء صوت الفجيعة الرتيب ، سوى صوت دخان القطار من المدخنة ، وماسورة البخار في جدار الرصيف .

اسرع جنود الحراسة الانجليز ، اسرعوا يغلقون النوافذ والابواب على علب السردين . كانوا يخافون على الروح المعنوية لسكان افريقيا واسيا ، هنا ، في مدينة منعزلة ، في قلب الصحراء. الشاويش الانجليزي المسلوخ الجلد ، شاهدته يبكي ، فيما هو يأمر وينهي . دموعه تنحدر غزيرة . الناس جميعا بكوا . بكيت بدوري ، على « سكينه » ، والهندي . امن الضروري ان تكون الكارثة كبيرة جدا ، لكي نبكي جميعا . في تلك اللحظة فقط تحدث الناس : صدمة حرب . صدمة حرب هي صدمة حرب فقط. وسكينه ؟ هل اصابتها الحرب ايضا ؟. اخذوهم من قلب الغابات واكواخ القش . طرحوا من ايديهم الدروع ، والرماح ، ووضعوا فيها بنادق ومدافع ، قذفوا بهم من الطائرات ، التي تتقلب في الفراغ على ظهورها ، وبطونها . قذفوا بهم في وجه الالمان في خط النار ، في قلب الحريق الرئيسي. يا للفظاعة. ان يجتاز الانسان الف عام من الزمن دفعة واحدة. ان ذلك لمرعب حقا !

صلصل الجرس النحاسي على الرصيف ... سار القطار بعيدا . كان مقررا للقطار الموريشان ، كما هي العادة ، ان يبقى ساعتين . ولكن رئاسة المعسكر الانجليزي خافت بلا شك . وعندما اختفى تماما في البعيد ، اختفت « سكينة » تماما من رأسي : عيناها الحلوتان . وجهها الليموني . كله راح . وانهمر المطر ، وراح يسقط في قلبي :قطرة، قطرة !

تلك الليلة عند الفجر ، حاولت النوم دون فائدة . يقولون ان اليصابات ملكة الانجليز ، أعلنت ذات مرة ، ان الرجل الانجليزي ، الذي يحمل ويلد مثل النساء ، سيصبح ملكا على انجلترا كلها . ومن يومها والانجليز يحاولون ان يصبحوا ملوكا .. والليلة ، وانا عائد من « طاهر » سرنا بجوار جدار الورشة الهائل ، لنعبر السور الى حينا . كنا نقترب من كشك الحراسة الانجليزي ، حين شاهدنا قريبا من الكشك ، في الظلام الندي ، بائعا سريحا يرفض باصرار طلبات سكسوني . كان السكسوني يلح ويلح، كان شيئا يؤرقه . لا اعرف ما الذي جاء بالبائع هنا ، ما دام يرفض ان يدخل معه كشك الحراسة . ربما كان المبلغ الذي يعرضه سكسوني مجهول لا يعجبه . وقلت لنفسي : « انه ، هو الاخر ، يأكل خبزا » .. ولم يصدقني « طاهر » حين رويت له خرافة اليصابات ونحن نبتعد ، حسبها مزحة. انا اعتقد ذلك . ولكن ماذا افعل في مسألة كشك الحراسة هذه .
سألت نفسي وانا احاول النوم : هل يمكن ان يلد الرجال حقا ؟... ولكن : اذا كانت « سكينة » تسلم نفسها وجسدها في سيارة « لوري » اذا كان الهندي يطلب مصحفا ليحميه من الموت. اذا كان الموريشان يعبرون مئات السنين ليعيشوا في قلب مدفع . اذا كانت البيوت والمدن تحترق ولا يطفئها سوى المطر ، فلماذا لا يلد الرجال اذن ؟!

القاهرة **سليمان فياض**

قطرة حب

في المشرب لاقيت رفاقي الليله
كانت أعينهم تشدو بالحب
نجواهم من ذوب القلب
كانوا من عشاق الانسان
صناع مشاعل في ليل الشرفاء
رواد صراع فوق الانواء
شعراء ، كتاب

— • —

لم يعرفني الاصحاب
غاصوا بالاعين بين ضلوعي
حسرت موجتهم ظل دموعي
قالوا ما أشقى الطائر
في شرك الظلمات
لكن جناح الشاعر
يضرب فوق المأساة
يعصرها ، لا تعتصره
يضرم فيها جمره
لا يسلم دنياها عمره

— • —

نثروا حولي أزهار السلوى
رفت امنية ، ذابت شجوا
غنوا اشعاري
شربوا نخب نشيدي للحرية
واختلجت اجفاني عن دمعه
جفت لوعتها من الاماق
لم يلمحها الاصحاب
وانطفأت شمعه
يا ويلي
كانت آخر شمعه
تسكب في قلبي الاشراق
تومض للاحباب

— • —

يا رفقاء
أني اسمع خلف ضباب الفجر
أغنية العصفور الاخضر
يشدو للعالم ، كل العالم
يسقى المحرومين الفرحه
يحتضن الدنيا في لمحه
أن تغرب في بيتي شمس الحب
لا تأسوا يا اهل الود
واذا ما انتفضت في الغد
انهار سلام للبشريه
وانهارت احزان الشعب
فليذكرني عشاق الحريه
ولتغمرني قطرة حب

حسن فتح الباب

الشيخ والقيثار

الارض لم تزل بهم تدور
أشربة ، موائد ، عطور
وخطوة الساقي الصغير
لا تمل ، لا تثور
« سيدتي ، ما شئت في يديك
المجد للجمال ، للربيع ، لك »

— • —

في ليل مايو يسهر العشاق
وتلتقي في المشرب الاشواق
مباسم ، قلائد ، نحور
ودقة الساق الطروب ، والجسد
يرغب ، والاضواء تحجب القمر
والارض لم تزول لهم تدور

— • —

كطائر من عالم مهجور
جناحه سحابة بيضاء
فوق تل نار
الشيخ جاء يحمل القيثار
فالناعمون يأنسون بالوتر
والكأس تحلو بالنغم
والصدر والعينان والقدم
ترف ، تنثني ، تضمها قبل
تذوب ، تشتعل

— • —

« أواه ، ما أحلى النغم
لكنه حزين
وليل مايو ليس يعرف الالم
من اين جاء صاحب النغم ؟ »

— • —

« سيدتي ، ما شئت في يديك
المجد للجمال ، للربيع ، لك
لكنما بالباب عازف فقير
يهدي الينا لحنه الصغير
سيدتي ماذا ترى في الشيخ والقيثار ؟ »
.. وامتدت الايدي خفافا تغلق الابواب
منذ اشارت كالنسيم أنمله :
« اللحن اصفى من بعيد !! »

القاهرة **حسن فتح الباب**

ادب

نازك الملائكة في «قرارة الموجة»

بقلم خضر عباس الصالحي

تتسم الشاعرة نازك الملائكة بعمق العاطفة ، وبعد النظر ، وصفاء السريرة ، وقد أوتيت الموهبة الفنية ، والقدرة اللغوية على التحليق ، وبرعت في تحليل نفسيتها تحليلا صادقا موفقا ، بما يعتريها من مشاهد وتأثرات ، وما مر في حياتها من احداث اليمه ، غمرت نفسها بالرؤى الرهيبة ، واشاعت فيها جوا من الكآبة والالم المرير . وفي قلقها يكمن سر ابداعها ، مع روعة العبارة ، وخصب القريحة ، واتساع مدى المخيلة الفنية بانفعالها الدافيء ، وصورها الشعرية المتكاملة ، وسرعان ما منيت في حبها بالفشل الذريع ، فتفجر في اعماقها انسياب المعاني ، وتدفق العواطف المتجاوبة مع انفعالاتها وافكارها ونوازعها النفسية المضطربة القلقة فعبرت عن تجربة صادقة تعبيرا موحيا تحس فيه حرارة الصدق الفني ، وعمق الصراع الشعوري ، فتقول

اسكتي يا اغاني الامل
فالهوى قد رحل
وانطوى سره في مقل
رصفت بالملل
اين اين ترى تذهبين
في سكون السنين
والطريق الذي تسلكين
صامت لا يبين
ولمن تخلفين العطور
والليالي تدور
ولمن دفؤك المسحور
للدجى للقبور
كم ملانا بك الاقداح
وسقينا الرياح
كم منحناك للاشباح
في رضى وسماح
فابحثي في شعاب الوجود
عن هوانا الشرود
كفنا نديت بالوعود
وهو ليس يعود

وكانت تحب كأصدق ما يكون الحب ، ولكنها لم تظفر بالوفاء قدر قلامة ، فأساءت الظن بالحب ، وخرجت من قمقم الاوهام ، وكفرت بالمفاهيم التي كونتها لنفسها عنه . وفضت ثوبه الاسطوري ، واجهزت عليه وقتلته ، وفي الوقت الذي كانت فيه تشيع جنازة المقتول الى القبر ، ادركت انها لم تقتل سوى نفسها ولكن بعد فوات الاوان ، فتقول

وابغضتك لم يبق سوى مقتي اناجيه
واسقيه دماء غدي واغرق حاضري فيه
واطعمه لظى اللعنات والثورة والنقمه
واسمعه صراخ الحقد في اغنية جهمه
ومن اغفاءة الموتى اغذيه
وانثر حوله الاشباح والظلمه
وكان الليل مرآة فابصرت بها كرهي
وامسى الميت لكني لم اعثر على كنهي
وكنت قتلتك الساعة في ليلي وفي كاسي
وكنت اشيع المقتول في بطء الى الرمس
فادركت ولون اليأس في وجهي
باني قط لم اقتل سوى نفسي

وصورت في شعرها كثيرا من مجالي الطبيعة ، ومن مشاهدها الرائعة ، المواجة بالظلال والالوان ، والزاخرة بالصور واللمحات ، وعبرت عن تجربة انفعالية ، وانسجمت اصدق انسجام مع فكرة الموضوع وفي دقة تبعث على الاعجاب ، لفهمها جمالية الكلمة مع جزالة اللفظ وقوته التعبيرية ، وفي موحياتها لاشعارها كانت مشحونة بالعواطف المتدفقة ، والفورة الشعورية ، والمحفزات المثيرة ، وفي قصيدتها (ماذا يقول النهر) وصف جميل لدجلة في هدأة الليل حيث ضوء القمر يداعب النخيل ويستثير الشجر ، ويشق مجداف الزورق الحالم صدر الامواج المتراقصة ، ويظل هذا النهر منحدرا في الوادي وهو يروي حكايات الغرام ، ويطوي ضلوعه على أسرار الحب .

ماذا يقول النهر ؟ اقصوصة
ينسجها من غزل ناعم
من نور مصباح يغذي الدجى
من وقع مجداف خفيف الخطى
ماذا يقول النهر ؟ اغنية
غنى اساها مرة عاشق
مثقلة بالدفء ما زال في
وخشعة الهودج تحت الدجى
ينسجها من رقص ضوء القمر
يداعب النخل به المنحدر
حرارة ويستثير الشجر
يشق في الظلمة صدر النهر
قديمة بنت ليال طوال
والليل سكران بكأس الجمال
الحانها بعض حنين الجمال
ووقع اقدام الحداة الثقال

وفي الشتاء المتجهم حيث البرد القارس يحيل مياه الجداول الى جليد ، ويجرد الاشجار من اوراقها الخضراء وتقتطف يده القاسية الازهار الغرقى بالعبير تخاطب الشاعرة الشمس فتقول

اشيعي الحرارة والرفق في لمسات الرياح
ولفي جدائلك الشقر حول الفجاج الفساح
وهذا التحرق في شفتيك اريقي لظاه
على طبقات الثلوج الكثيفة فوق المياه
اذيبي بها قطرات الجليد
عن العشب عن زهرة لا تريد
فراق الحياه
فما زال فيها رحيق تخبئه للصباح
ومن دفء عينيك من ضوء هذا الجبين السعيد
اريقي عصير البنفسج فوق الفضاء المديد
ومن لون هذي الجدائل رشي ازرقاق الاثير
وصبي البريق الملون فوق مرايا الغدير
ومن عطر هذا الضياء المذاب
اريقي على صفحات الضباب
ربيعا نضير
يحيل البرودة فيه الى دفء حب جديد

وتهتم الشاعرة نازك الملائكة بمشاكل الحياة الانسانية

بكثير من البراعة والدقة ، وتسكب الواقعية في قالب فني خلاب ، وتعبر عن الاحاسيس تعبيرا فنيا يتجاوب مع انفعالات النفس ، وتلم بحياتنا الجديدة التي تحفل بمعاني الحب والخير والطيبة ، وتنأى عن اولئك الادباء الذين يعيشون في ابراجهم العاجية ، وينكمشون على انفسهم في قوقعاتهم الذاتية ، وتشهد طلائع مرحلة واعية في شعرنا المعاصر تبشر بانبعاث عهد زاهر يموج بتصوير القضايا الاجتماعية بشكل لم يسبق له مثيل ، فيصبح ادبا انسانيا جديرا بالخلود عصرا بعد عصر ، لانه يساير سنة التطور الدافعة ، والبعيدة عن الافتعال وضيق الافق.

ولنازك الملائكة في هذا الباب بعض القصائد تلتمع بالصور الواقعية الحية ، تنبع من حرارة العاطفة ، ودفء الشعور، وتنبثق من اعماق الوعي الانساني مع براعة في التصوير ، وقوة في الخيال . وهي تعنى بالمحتوى والقالب، ولا تفعل ذلك الا سعيا وراء الانسانية الهادفة ، وقد اختمرت في قرارة نفسها فكرة الخلق والابداع في هذا المجال الحيوي الزاخر بالتفكير المركز العميق وخصب الخيال ، وخدمة المجتمع البشري بأوسع مدى ممكن ، وبقيت مجنحة في تعابيرها ، وشدة انصهارها في الموضوع ، تستنفد طاقتها الفكرية والشعورية المتفجرة ، تصف واقع حياتها مع الناس فتضع النقاط على الحروف في قصيدتها (النائحة في الشارع)!

في منعطف الشلرع في ركن مقرور — ولمن تشكو ؟ لا احد ينصت او يعنى
حرست ظلمته شرفة بيت مهجور — البشرية لفظ لا يسكنه معنى
كان البرق يمر ويكشف جسم صبية — والناس قناع مصطنع اللون كذوب
رقدت يلسعها سوط الريح الشتوية — خلف وداعته اختبأ الحقد المشبوب
ضمت كفيها في جزع في اعياء — والمجتمع البشري صريع رؤى وكؤوس
وتوسدت الارض الرطبة دون غطاء — والرحمة تبقى لفظا يقرأ في القاموس
ظمأى ، ظمأى للنوم ولكن لا نوما — ونيام في الشارع يبقون بلا مأوى
ماذا تنسى؟ البرد؟ الجوع؟ ام الحمى — لاحمى تشفع عند الناس ولا شكوى
ايام طفولتها مرت في الاحزان — هذا الظلم المتوحش باسم المدنيه
تشريد ، جوع ، اعوام من حرمان — باسم الاحساس فوا خجل الانسانيه

وكان رجال العهد البائد في العراق يهبون الاراضي الواسعة الى حفنة من ذوي الجاه والنفوذ ، يدعمون بهم حكوماتهم الجائرة ، ولاطالة امد استحواذهم على المناصب الجوفاء ، وكان الفلاحون التعساء يكدحون طوال العام دون ان ينالوا غير البؤس والشقاء ، ولا يحصدون سوى اشواك الجوع والاملاق ...

وتتطرق نازك الملائكة في شعرها الى معالجة هذه الناحية التي تهم الملايين من ابناء الشعب في دقة وحرص ، وفي ظرف خطير كان فيه سيف الارهاب مسلطا على الرقاب ، وابواب السجون مفتوحة على مصراعيها تعج باحرار الفكر لاجبارهم على الخضوع والاستسلام ، ولخنق الحريات ، واشاعة الاستبداد ، فارسلت اشعارها الحارة التي تذكيها عواطفها المرتعشة ، مما كان له الاثر الحسن في النفوس وهي تقوي شعور الانسان بانسانيته ، وتغرس في اعماقه جذور مثل رفيعة بعيدة المدى ، وتضيء له سبل الحياة ، وترسم صورة صادقة عن مجتمع عصرها الذي لا يلقى ما يستحقه من العناية ، فتجندت في خدمته ، وتعصبت لتطويره بحماس دون ان تفقد اصالتها البيانية وعنصر الفن لديها فتقول في قصيدتها (الارض المحجبة)

حدثونا عن رخاء ناعم — اين تلك الارض هل حان لنا
فوجدنا دربنا جوعا وعريا — ان نراها ام ستبقى مغلقه
وسمعنا عن نقاء وشذى — لم تزل فينا حنينا صامتا
فرأينا حولنا قبحا وخزيا — وابتهالا في شفاه مطبقه
ورتعنا في شقاء قاتل — والملايين حنين جارف
وكفانا بؤسنا شبعا وريا — يتلظى ورؤى محترقة
وعرينا وكسونا غيرنا — افتحوا الباب فقد صاح بنا
وكسبنا القيد والدمع االسخيا — صوت الاف الضحايا المرهقه
اين تلك الارض من حجبها — صوتهم خشنه البؤس فما
نحن شدناها برنات الفؤوس — فيه دفء او بريق او ليونه
واجعنا في الدجى اطفالنا — وحشاه الدمع ملحا قاسيا
لنفذيها وجدنا بالنفوس — وشكايات وجوعا وخشونه
وزرعنا وحصدنا عمرنا — صوتهم خالطه الصبر وكم
وجنينا ظلمة الدهر العبوس — قد صبرنا في شحوب وسكينه
وسقينا ارضها من دمنا — لعنة الحس علينا ان يكن
ومنحناها لارباب الكؤوس — عدنا كالامس اقيادا مهينه

وتتكرر الخوادث قتل النساء لغسل العار بشكل يبعث على الاسف الشديد ، وتدمع له العين ، حيث يذهب الكثير منهن ضحايا لمجرد وشاية عارية عن الصحة ، سيما وان القانون لا يشدد العقوبة على مرتكبي هذه الجريمة المنكرة .

ونازك الملائكة وهي الشاعرة المبدعة شاهدت فظائع هذه

المآسي واهوالها التي عملت على استثارة عاطفتها ، وكان شعور غريب يخامرها ، فيفجر فيها طاقة المثل العليا فتعي واقعها الذي تعترف به صراحة ، وتتخذ منه وسيلة الى الابداع في رسم آيات الفن الخالدة التي تترك اعمق اثر في النفس المرهفة ، وتوضح رأيها بكثير من الجرأة ، وفي مزيد من اللمحات ، وشمول الاحساس ، وفورة الانفعال ، ونبض الشعور ، مع كمال الصياغة الفنية التي تكشف عن تجربة وجدانية عميقة فتقول

(اماه) وحشرجة ودموع وسواد
وانبجس الدم واختلج الجسم المطعون
والشعر المتموج عشش فيه الطين
(اماه) لم يسمعها الا الجلاد
وغدا سيجيء الفجر وتصحو الاوراد
والعشرون تنادي والامل المفتون

فتجيب المرجة والازهار
رحلت عنا غسلا للعار

وسياتي الفجر وتسأل عنها الفتيات
(اين تراها) فيرد الوحش (قتلناها)
(وصمة عار في جبهتنا وغسلناها)
وستحكي قصتها السوداء الحارات
وسترويها في الحارة حتى النخلات
حتى الابواب الخشبية لن تنساها
وستهمسها حتى الاحجار

غسلا للعار غسلا للعار

وتواكب الشاعرة مأساة فلسطين الدامية وقد امست لقمة سائغة في اشداق اليهود الذين اعلنوا احقيتهم بها بعد ان تآمرت عليها الدول الكبيرة التي تدعي لنفسها تبني القيم الاخلاقية النبيلة ، وحق تقرير المصير للشعوب الصغيرة ، فكان اغتصابها من اهلها الشرعيين ، وتسليمها اكلة باردة لطغمة رعناء من شذاذ الافاق يعد جريمة مروعة تقترف بحق الانسانية ، جمعاء ، ويهتز كيان الشاعرة نازك الملائكة لسلب هذا الجزء المقدس من وطنها العربي الاكبر ، فيلتهب فيها الحماس المتدفق والايمان العميق ، والوطنية الجارفة ، وهي تعبر عن موضوع ذي قيمة في تنشيط الحركة الادبية ، واذكاء جذوة الوعي الصاعد ، وقد بات بنضال الفلسطينيين مضرب الامثال ، ومفخرة الاجيال ، اذ خلقوا بصبرهم والامهم المعجزات وهم ماضون في كفاحهم الدامي حتى النهاية ، بالرغم مما تعرضوا له من انتكاسات ورجات ، او تضافرت ضدهم قوى العدوان الغاشم ، وذلك لجني ثمار الحرية ، والعودة الى الوطن مهما كان الثمن غاليا فتقول من قصيدة (الشهيد)

في دجى الليل العميق	طيفه اثبت من جيش عنيد
رأسه النشوان القوه هشيما	جاثم لا يتقهقر
واراقوا دمه الصافي الكريما	فليجنوا ان ارادوا
فوق احجار الطريق	دونهم وليقتلوه الف قتله
وعقابيل الجريمه	ففدا تبعثه امواه دجله
حملوا اعباءها ظهر القدر	وقرانا والحصاد
ثم القوه طعاما للحفر	يا لحمقى اغبياء
ومتاعا وغنيمه	منحوه حين اردوه شهيدا
وصباحا دفنوه	الف عمر وشبابا وخلودا
واهالوا حقدهم فوق ثراه	وجمالا ونقاء
عارهم ظنوه لن يبقى شذاه	انه عاد نبيا
ثم ساروا ونسوه	وهو قد اصبح نارا تتحرق
ومن القبر المعطر	في امانينا وثارا يتشوق
لم يزل منبعثا صوت الشهيد	وغدا يبعث حيا

وكفاح الشعب الجزائري مع ابشع دولة استعمارية عرفها تاريخ البشرية ، وهو ينشد انشودة النصر في معركة التحرير الكبرى ، ويشعلها حربا عوانا على سافكي دماء الابرياء ، وجلادي رؤوس الذائدين عن اوطانهم لتخليصها من نير الاسترقاق ، و انهاضها من كبوتها ، يعتبر بحق كفاحا رائعا فريدا في بابه ، وقد اصبح مصدر الهام لكثير من الشعراء المبرزين ..

ونازك الملائكة شاعرة عربية موهوبة تتأثر بالاحداث الحاسمة التي تمر بها الامة العربية ، وقد انبثق عليها فجر البعث الجديد وهي تحلم بامل الغد ، ولها قدرة فائقة على التصوير ، مع عمق الاحساس ، وتمثل الموضوع ، وقد جعلت من الشعر فنا اجتماعيا فتجاوب تجاوبا عميقا مع الحياة فهي تقول :

أعراس تموز

« كلهم قالوا : ان حبيبي لن يأتي ..ولكنه كذبهم ... »

★

« تموز » يا اميريَ الجميل
يا دفقة الطيوب
يا بسمة السهول ، يا مرافيء الحنان
أتيت ، كذبت الذي يقول
بان « تموز » الحبيب مات
في غمرة النضال .. في معارك الجبال
أتيت يا « تموز » بالعطاء
وبالثياب والحلي والعطور
والهودج الثمين
اتيت مثلما اتى
في غابر الازمان « عنترة »
بكل ما يحتاجه زفافنا الحبيب
يا دفقة الطيوب ...

★★★

« تموز » اني اذكر الايام من سنين
يوم قدمت بيتنا الكبير
وفي يديك زهرتان حلوتان
وفي فؤادك الصغير
محبة الحبيب للحبيب
يوم اردت ان اكون زوجك الحنون
ويومها ، رأيت فيك ما أريد
الحب والايمان والوفاء
... وقال والدي الرحيم :
(« تموز » قد اتيت بالقليل
وأبنتي تريد منك ما تريد
من الثياب والحلي والعطور
فلتأت بالمزيد ..)

★

وعندما غادرت قريتي
لتجلب المزيد
كان الرجال يطمعون ان تموت
في غمرة النضال .. في معارك الجبال
وكانت النساء لا تريد ان تعود
حقدا على اميرة الجمال
وانت في الطريق ، يا « تموز »
عانيت ما عانيت
لتجلب المزيد
من الثياب والحلي والعطور
وفي صباح كل يوم ، كنت انظر الطريق
لعل ومضة تلوح من سناك
فيذهل الرجال
وتسكت النساء عن رثاء
زفافنا الحبيب ..

★★★

والامس ، عاد أخوتي الصغار
يبشرونني بومضة النهار
وعدت بالعطاء
وبالمزيد
من الثياب والحلي والعطور
يا دفقة الطيوب ، يا حبيبيَ الجميل ...

علي الحسيني
الحلة ـ الجمهورية العراقية

ارقصي مذبوحة القلب وغني — لم تزل فيها بقايا من حياة
واضحكي فالجرح رقص وابتسام — لنشيد لم يفض بؤسا وحزنا
اسألي الموتى الضحايا ان يناموا — لم يكن جرحك بدعا في الجروح
وارقصي انت وغني واطمئني — فارقصي في سكرة الحزن المميت
اقبسي من جرحك المحرق لحنا — الارقاء الحيارى للسكوت
رنميه بالشفاه الظامئات — احتجاجات ؟ لماذا ؟ استريحي

ولعل اقسى نكبة منيت بها الشاعرة هي فقدها لامها التي تعتبر بالنسبة لها جزءا لا يتجزأ من حياتها وهي التي غذتها لبان الشاعرية الصافية لبلوغ الكمال ومرحلة النضج والاختمار ، وانستها عناء الحياة المثقلة بأعباء الكفاح ، ورققت مشاعرها ، وبسطت عليها ظلا من البهجة والسكينة، وخاطبت روحها ، وهدهدت احاسيسها الانسانية ، وهيأت لها من طرائف الادب ، وكل ما هو متعة للذهن ، وغذاء للروح ، وتهذيب للنفس ، وما يتصل بضمير الانسان من حيث هو انسان ، وقد توافرت لديها اسباب الثقافة الرصينة التي تلائم التطور الانساني ، وعرفت باللطف والدعة وطلاوة الحديث ، وهي بالاضافة الى ذلك شاعرة مبدعة تقبس آراءها القيمة من واقع الحياة ، وصور الخيال مع جنوحها الى الافصاح عن الوجدان الذي تنطوي فيه معاني الجدة والابتكار ..

فليس ما يدعو الى الغرابة والحالة هذه ان تطوي نازك الملائكة جوانحها على الحزن عند وفاة امها الرؤوم ، وتتذوق

الالم وتعصف بنفسها اشجان الفجيعة ، وهي قلقة من المستقبل الغامض الكئيب ، وقد يبدو هذا الكلام غريبا اول الامر ، ولكن نظرة خاطفة نلقيها على المحبة المتبادلة بين نازك وامها تبدد هذا الوهم الكبير من مخيلتنا . ونرى ان ما جاءت به الشاعرة من رثاء امها هو قسم من واجبها الانساني المقدس وهي في هذه الغمرة من الحزن وقد نظمت ثلاث قصائد عامرة بالمعطيات الواعية ، وبرعت في تصوير آلامها المبرحة دون ان تتخلى عن رصانتها الادبية ، وامتازت بالقدرة على الايحاء والتعبير ، ولم تخرج من الاطار الفني فكتبت عن تجربة شعورية صادقة ، ورسمت الاختلاجات النفسية النابعة من اعماق وجدانها فقالت في مقدم الحزن

افسحوا الدرب انه جاء خجلان رقيق الخطى كئيب الجبين
الغلام الحساس ذو الاعين الغرقى بتاريخ الف سر حزين
انه مطعم العيون العميقات ينبوع كل دمع سخين
ولقد جاءنا تبلل عينيه الدموع الخرساء عبر السنين
انه حزننا الصبي لقيناه على غير موعد وانتظار
لم يزل هادئا خجولا كما كان وما زال غامض الاسرار
جاءنا دافئا ارق من الدمع واحلى من رعشة الاوتار
ففرشنا له طريقا من اللهفة والحب والدموع الغزار
واخذناه في خشوع الى اعماق افراحنا وقعر رؤانا
ومنحناه كل ما جمع الحب من اللون والشذى لصبانا
ورصفنا له هوانا وما ابقى لنا الموت والاسى من منانا
وغسلنا جبينه بدموع صامتات عطشى تذوب حنانا



ان التعبير الذي لا اصالة فيه يكون مبتذلا ، فالاخلاص للتجربة الذاتية ، والدوران في فلك المفاهيم الجمالية الجديدة ، ونقل احاسيس الناس في افراحهم واتراحهم مع الاحتفال بالغنائية والتزويق وعمق التصوير وصدق الايمان وانفعال الشاعر واندماجه في الموضوع وعدم افتعال الحقائق افتعالا ، انها وسيلة فنية موفقة تضفي على الاثر الفني طابع التفرد والخلق وهو يعبر عن ادق الاراء ويعالج اخطر المواضيع الزاخرة باللمحات الخاطفة البارعة لتهذيب النفس ، وتنمية الذوق ، ونازك الملائكة في قصيدة (اسطورة عينين) تبلغ شاوأ عظيما في خلق نماذج رائعة من الصور الشعرية لحسن وقعها ، وقوة تأثيرها في النفوس مع العبارة الجميلة ، واللفظة الموسيقية في كل ما استودعتها ذاكرتها من التجارب الشخصية الذاتية فتقول :

عينان ام مزارع في الظلال
ترقرق العبير في الاودية
وهدبها ام رعشة البرتقال
ام نجمة تخفق ؟ ام اغنيه
عينان ام عوالم شاسعه
وبؤبؤ ام دعوة للرحيل
باب الى يوتوبيا الضائعة
ومعبر ينهي الى المستحيل

يروون عنها ان اغوارها
ذوب نجوم اطفاتها السنين
وان من ادرك اسرارها
فك الردى عنه الاسار المهين
ستلبث العينان سرا عميق
ويذرع الراوون ارض الخيال
اسطورة تظل سكرى البريق
ما بقي الشعر وعاش الجمال

وفي قصيدة(دعوة الى الحياة) تندلع نار الثورة الصاخبة في قلبنازك الملائكة على الجمود والوقار والوداعة، وتدعو الى التمرد والغضب والتقطيب ، وترى ان أشد ما يملأ نفسها ألما وحزنا هو الفوضى في المفاهيم والقيم ، والانغماس التام في الترف والنعومة ، فهي تحب النار والاعصار والعطش للمجد ، وتكره الرماد والشذى والوعظ الزائف ، وأن العبقرية لا تنبت الا من حقول الكآبة والالم ، واما الضاحكون من ذوي الاحساس البليد والشعور الهامد، فليسوا غير رواسب لما فيهم من تفاهة وسطحية ، وفي قالب شعري متماسك لا أثر فيه للكلفة تقول ..

اغضب احبك غاضبا متمردا في ثورة مشبوبة وتمزق
ابغضت نوم النار فيك فكن لظى كن عرق شوق صارخ متحرق
اغضب كفاك وداعة انا لا احب الوادعين
النار شرعي لا الجمود ولا مهادنة السنين
اني ضجرت من الوقار ووجهه الجهم الرصين
وصرخت لا كان الرماد وعاش عاش لظى الحنين
اني احبك نابضا متحركا كالطفل كالريح العنيفة كالقدر
عطشان للمجد العظيم فلا شذى يروي رؤاك الظامئات ولا زهر
انا لا احبك واعظا بل شاعرا قلق النشيد
تشدو ولو عطشان دامي الحلق محترق الوريد
اني احبك صرخة الاعصار في الافق المديد
وفما تصباه اللهيب فبات يحتقر الجليد
قطب سمتك ضاحكا ان الربى برد ودفء لا ربيع خالد
العبقرية يا فتاي كئيبة والضاحكون رواسب وزوائد

لا يختلف النقاد المعاصرون في تقدير الدور الذي لعبته الشاعرة الملهمة نازك الملائكة على مسرح الشعر الحديث ، فقد عبرت عن دخائل النفس البشرية ، واستمدت مادتها الشعرية من واقع الحياة ، والتقطتها من انسجة الخيال ، من غير ان تبدو عليها علائم الصنعة والافتعال ، او يعوزها النضج في الشاعرية ، فقد واكبت تيار التجديد المتدفق ، وعدت في المضمار من الرواد القلائل ، وقد اسهمت في اعلان الثورة الجامحة على القوالب الشعرية القديمة،وكتبت قصائد شيقة في الشعر الحر دون ان تفقد قيمتها الفنية وروعتها الادبية ، وفي تعبير صادق عن مشاعرها الحبيسه، ورقة احساسها المستفيض ، حتى شادت ذلك الصرح العظيم الشامخ من ادبها الذي يعلو وينأى عن حضيض الاسفاف الرخيص ، وقد أخذ عليها نفر من الكتاب نزوعها الى الهرب من الاضطلاع بأعباء الحياة ، وحبها للعزلة والتأمل ، وانغمارها في الضباب التعبيري ، وسواء اصح هذا القول او لم يصح فان هذه المزاعم لم تنقص من حق عبقريتها ، او تنل من مكانتها كشاعرة فذة ، او تفقد قيمتها الفنية والموضوعية .

وان حركة الشعر الحر ضرورة املاها التطور الجديد ، ولها مبرراتها ودوافعها ولا معدى عنها ولا محيص ، ولا زالت في بداية الطريق ، والامر جله يتعلق بمقدرة الشاعر على الابتكار وان تحرر من اطار القافية وتحكم التفعيلات العروضية التي تعترض سبيل تقدمه وابراز مواهبه الكامنه ..

ومن الجدير بالذكر ان بعض المتشاعرين استغلوا سهولة النظم في الشعر الحر فاقاموا هياكل شعرية فارغة ،ويصدق القول : ان ما تتضمنها من معان وصور غدت مبتذلة لا جدة فيها ، ولم تكن الا تبديدا للطاقة الفكرية ، وتشويها لحقيقة الشعر ، وتعطي طابعا ساخرا عما آل اليه الشعر الحر من مصير قاتم ، بعد ان اختلط الامر ..

ولكن في دراستنا لانتاج نازك الملائكة ، نجد انفسنا امام بناء شعري متكامل ، وليس شيئا اعتسافيا ، وهو يعبر عن اسمى معاني الانسانية ، وقد أصاب حظا كبيرا من الرواج ، ... والاخلاص يحدوني ان اناشد النقاد المثقفين ليعنوا بدراسته في ضوء التيارات النقدية الحديثة ، مع الارتكاز على اساس من اسس الفن ، او تطبيق نظرية من نظرياته بانصاف وتجرد !.

ويجمل بنا ان نولي شعر نازك الملائكة الاهتمام الذي يستحقه ، فهي شاعرة من طراز رفيع سيكتب لاثارها الفكرية البقاء في سجل الفن والمجد والخلود ، فيثير الاعجاب جيلا بعد جيل .. !

الجمهورية العراقية ـ بغداد **خضر عباس الصالحي**



أربعة من الريف

قصة بقلم علي بدور

بين اليوم واليوم اجدني في عيادة احد اصدقائي الاطباء،نتحدث في الادب والفن ، ونستعرض شؤون السياسة ، ونتسلى بمراقبة الناس من النافذة العريضة المطلة على الشارع العام . كانت زيارتي الاخيرة له ، عصر الثلاثاء ، والشمس تنشر دفئها ، وكان الطقس يفصح عن معاني عديدة من الاغتباط والمسرة، فلما دخلت العيادة وجدت الخادم ، وقد اقتعد كرسيا بجانب المدفأة في غرفة الانتظار ، يقلب بين يديه جريدة صباحية. فوجدتني اسأله :

ــ هل الطبيب هنا يا محمود ؟

ــ لم يأت بعد . تفضل استرح . انه لن يتأخر .

ودلفت الى الداخل واخذت مكاني الى جانب المدفأة ، اطل من وقت لاخر ، مراقبا الشارع من خلال لوح زجاجي شفاف كان يفسح للحياة من تحتي ان تتسرب نقية من بعض اوشابها ، بينما كانت ساعة الحائط تدق، وصرفني عن تأملي فتح باب العيادة،وكان له صريرقاس،فدخله رجل في حدود الاربعين ، ثم تبعته فتاة تبدو في العشرين من عمرها . لقد كانا من الريف . ولم يكد الباب يغلق حتى فتح من جديد معاودا صراخه ، فدخله رجل ثان وامرأة ثانية .. كانا ايضا من الريف . سأل احد الرجلين محمود عن الطبيب وحاول الثاني ان يخطو بضعة خطوات في غرفة الانتظار ثم رفع راسه واخذ يسأل الله مباشرة ان يشفي الفتاة المسكينة ويريحها من اوجاعها .. وعاود ذلك عدة مرات . ولم يلبث الطبيب ان حضر . خلع معطفه وجاء محمود يحدثه عن الزبائن .. انهم اربعة من الريف . فيهم فتاة مريضة . وقعد الطبيب برهة اشعل فيها سيكارة . ثم استمهلني دقيقتين ريثما يرى هذه الفتاة الريفية ذات العشرين سنة !!

اثارت هذه الفتاة في نفسي ، خواطر شتى. كانت فارعة الطول ،سمراء، ذات عينين سوداوين تلوح عليها بشائر الريف الضاحكة رغم ما تحاول كتمانه من الامها . ووجدتني اقوم عن مقعدي لانتصب بجانب المدفأة . كانت الحافلات تمر مسرعة ، وكذلك السيارات ، بالاضافة الى مئات من البشر ، متعددة الوانهم وسحنهم ، فلم يصرفني ذلك كله ، لحظة عن الفتاة الريفية التي دخلت غرفة المعاينة اثر الطبيب . ولبث الرجلان ومعهما المراة ، ينتظرون خروجها ، بينما استمر احد الرجلين في سؤال يشبه الصياح كان يطلقه بين الفينة الفينة :

ــ الشفاء يارب .. دواء لهذه المسكينة ، لتستريح من اوجاعها .. بجاه نبيك يا رب تشفيها ..

بينما كانت المراة الملازمة ، متكومة في زاوية الغرفة ، ضائعة بين الصحو والغيبوبة ، ذاهلة ، عن كل من يحيط بها ، شاخصة بعينيها نحو الزجاج السميك الذي كان يفصل فيما بينهما وبين زميلتها ، تسأل حينا بعينيها ، واخر ، بوجودها كله ، حياة جديدة ، مبرأة من كل الم ، لهذه المسكينة التي لم تر من الحياة شيئا .

كان الطبيب قبل ان يدخل غرفة المعاينة قد سأل احد الرجلين ، وهو الاكثر صياحا ، عما يؤلمها ، فقال له :

ــ منذ ان حصدنا يا دكتور .. وهذه البنت تتألم . صار لها سبعة شهور وهي تتألم . هناك ورم في منتهى الفخذ . انها طوال الليل لا تنام يا دكتور . ارسلنا لعندك المختار عبود الهلال . انه صديقك وطمأننا بان الدكتور فريد سوف يعتني بالفتاة . كنا نقول هذا الشهر يزول الالم ... ثم هذا الشهر يزول الالم .. ولكن حتى الان الالم موجود . بل انه يزداد يا دكتور . ارجوك ان تنقذها ... يدخلك الله الجنة !!

وكان ذلك الصوت ما فتيء يسأل الله ان يلهم الطبيب، فيصف لها دواء يشفيها . ولا يزال يذهب بين غرفة الانتظار وحائط غرفة المعاينة ، ثم يعاود من جديد رافعا رأسه حينا ويديه حينا محدقا في وجه الرجل الثاني ببرود .. غير مكترث لهذه الكومة من الحياة الساكنة ، التي تحاول اختراق الزجاج ، الذي كان يحجب عنها كل شيء ، لتقف على دقائق المعالجة ، وتفهم قبل الجميع علة هذه الانسانة التي أقعدها المرض فريسة سهلة من فرائس الالام .

خيل لي ان احساسا بالفضول اخذ يغمرني شيئا فشيئا دون ان ادري سببه ، لقد كانت الايام الماضية التي زرت خلالها عيادة صديقي الطبيب اياما عادية بالقياس الى ما كان يجري فيها .. وما يجري اليوم داخل غرفة المعاينة وخارجها في آن واحد . وشاقني جدا الاسترسال في مراقبة هذه النماذج البشرية .. رجل صامت والاخر يصيح .. وامراة لم تتكلم اية كلمة .. انما تكومت على نفسها ترقب شيئا ما ، لعله خروج الفتاة من غرفة المعاينة ولعله شيء اخر !

وفجأة خرج الطبيب ، مسرعا الى علبة الدخان ، فالهب سيكارة وبدأ يمتصها حتى اخر انفاسه .. ثم حدق في فوجدته قد تغير تماما . كان اذا خرج من معاينة مريض عاد الي كما دخل ، بابتسامته وبشاشته واحساسه العميق بالحياة .. وكان رغم كل شيء لا يفقد صفاءه الذهني كطبيب .. الامر الذي اكسبه هذه الشهرة التي يتمتع بها وسط مدينة حافلة بمئات الاطباء .. اما الان ، فان دخان سيجارته كان يغطي قلقا باديا ، ونفسا مجروحة ، واحساسا بالحياة قد اصابه الم عميق . وصاح الطبيب .. بعد ان فقد صفاءه :

ــ محمود

ــ نعم سيدي

ــ قل لابيها ان يحضر وحده الي !!

حيال مثل هذا التحديد .. وجدتني اخرج الى غرفة الانتظار ، بينما كان الاب يدخل وحده . لم يكن الاب ذلك الذي كان يصرخ محاولا ان يسمع الله .. بل كان ذلك الصامت الذي لم يحرك شفتيه ولو مرة واحدة . ولكنني في غرفة الانتظار الفيت الرجل الذي كان من دأبه الصراخ يحتج على استدعاء والدها قائلا لمحمود :

ــ ابوها اطرش . لا يستطيع ان يفهم حديث الدكتور . ارجوك يا محمود . اخبر الدكتور انه اطرش.

ولكن الدكتور لم يسمع رجاءه .... واستمر يخبر اباها ويسأله . كان الباب مفتوحا .. وكان صوت الطبيب يصل الينا في غرفة الانتظار مسموعا .. ولكنه غير مفهوم . كانت الكلمات

في انعطافها نحونا ، تفقد كثيرا من دلالتها التعبيرية . وتبين لي برغم كل شيء ، جانب من الموضوع .. قد تكون الفتاة طائشة .. قد تكون .. وقد لا تكون . ولذا فان الطبيب يحرص على استنطاق والدها ، وافهامه العلة الحقيقية . ان المها مفتعل ، وقصة عدم نومها ناتجة عن تصرف احمق . ووجدتني بلا وعي احدق في وجه زميلتها الصامت فاخمن انها اكثر معرفة من الجميع .. ان السر في نفس هذه الكومة من الحياة ، تلك التي تخشى ان تتحرك ، فتعبر بتحرك عن سرها الذي خبأته حتى عن ادق العيون . وكان ثمة خيط .. بدأ الطبيب يفتل بدايته في غرفته مع ابيها . وخطرت لي صورة الطبيب وهو يخرج من غرفة المعاينة، فاستطعت ان اخمن سر انطفاء البسمة على شفتيه ، وكذلك عذابه الروحي الذي كان يلوح على سيماه .. وكل مخاوفه التي كان يلقيها على هذه الفتاة التي سوف تلقى مصيرها بمجرد ان تهبط درج العيادة !!

عاد محمود مرة ثانية بعد الحاح الرجل الثاني الى الطبيب يخبره برغبة عمها .. – انه عمها – وبطرش ابيها . ان اباها لا يستطيع فهم حديث الطبيب . فلما رجع محمود لم يكن وحده . فقال لعمها :

– تفضل .. ان الدكتور يريدك انت

كانت الفتاة لا تزال ترتدي ثيابها في غرفة المعاينة . وعينان شاخصتان مثبتتان في وجه قد ركب فوق جثة هامدة ، جثة المرأة التي دخلت خلفها ، وانزوت في ركن من الغرفة ولا تزال . كان والدها رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، كبير الوجه ، جامده كقطعة من صخر خلت من اي عرق ينبض بالحياة . لعله وقد زامل الطرش سنين طويلة ، قد فقد اهتمامه بما يجري حوله فنضب احساسه بالحياة ذلك الذي يتجمع كله في وجه الانسان . واضحى غير مهتم اذا خرج هو .. ودخل اخوه بدلا منه .. وكان صوت العم العالي .. كل شخصيته . لقد حدث الطبيب عن رحلة قاموا بها الى دمشق . وكيف دخلوا مستشفى الجامعة السورية وما هي الادوية التي تناولتها المريضة هناك .. وكذلك الادوية التي لم تأخذها بعد .. وهذه الرحلة الاخرة الى عيادة طبيب هو صديق لمختار قريتهم المدعو عبود الهلال .

خرجت الفتاة من غرفة المعاينة ، واتجهت راسا الى غرفة الطبيب بينما كان عمها لا يزال يتحدث معه . وسمعت الطبيب يناديني ، فدخلت متخذا مكاني الذي قمت عنه . وامامي كان الطبيب والى جانبه عم الفتاة وقد جلس القرفصاء ، فالفتاة على مقعد من الجلد .. بينما وقفت المرأة الجثة بين الفتاة وابيها الذي كان اشبه بمن جلس في حضرة مثال اوصاه بالسكون العميق . وعاود الطبيب حديثه بعد ان قطعه بالنداء علي :

– ليس لهذا المرض دواء . اليوم ليس له دواء ، غدا يجوز ، ولكن ليس له اليوم دواء . اياكم ان تأخذوها الى بيروت او الى مكان اخر . خير مكان لها هو القرية . وخير ما اوصيته من اجلها .. هو الراحة وترك العمل . وان تسلم امرها الى الله .

فتكلم الاب لاول واخر مرة :

– ما هو المرض يا خالد ؟

فأجابه خالد ، والفتاة جالسة بجانبه :

– سرطان في العظم.. سرطان يا زيدان . الدكتور يهبنا النصيحة، ليس له دواء . والقرية هي المكان الاخير بعد هذه العيادة .. لزينب ..

حدقت في زينب ، بعد ان سمعت كل شيء ولا ادري لماذا اسمعوها اياه .. وبدأت قسمات وجهها تتغير . ارتجفت شفتاها ، ولكنها كانت تقاوم ، ثم اهتز راسها قليلا ، لعلها ارادت البكاء ، خيل الي ان عضلات جسمها قد صعدت الى وجهها لتوقف انسكاب الدمع من العينين السوداوين ، ثم تحركت اهدابها كجناح حمامة مقيدة اقتربت النار منها .. ثم اهتزت اجفانها ، وانهمر الدمع في صمت ، كالمطر ، دون اية جلبة .. فلم يشعر احد انها بكت الاي . ووضعت انفها بين اصابعها وضغطت عليه ، ثم مسحت اصبعها بطرف كمها الاسود بينما كان الحديث عن السرطان الذي ليس له دواء يتكرر بين عمها والطبيب ، اما ابوها فبعد ان سمع الخبر من عمها لم يتغير في وجهه ذلك الجمود الازلي ، بل اكتفى بان غطى وجهه براحتيه برهات ، حاجبا اياه عنها ... وكذلك فعلت المرأة الجثة . انها لم تنفعل قط . ولم ادر اذا كانت هي الاخرى صماء .. حتى بدت عاجزة عن المشاركة بأبسط المشاعر !!

قام الطبيب الى خزانته يستعرض المجلدات الضخمة باحثا لزينب عن مهدئ يتيح لها النوم بلا الم . كانت المجلدات فارغة من اي مداول علمي لدواء مضاد لمرض السرطان في العظم الذي تشكو منه زينب . وبينما كان الطبيب غارقا في بحران هذه المجلدات، كان القوم ينظرون في فراغ لا حدود له .. هو اوسع من هذه الغرفة المربعة ، واوسع من المدينة ، حدوده عند تلك القرية التي اتوا منها .. وما فيها من اهل واصحاب ، وكنت انتقل ببصري بين وجوههم الاربعة ، وكان بصري يستقر طويلا على وجه زينب ، كان كل ما في وجهها يبكي .. بلا دموع . لقد مسحت كل شيء .. وعلمت الان كل شيء . واستبان لها طريق حياتها القصيرة وسط الالام التي تند عن التصور . وكانت هي الاخرى تبادلني نظرة بنظرة ولم اكن في موقف يتيح لي ان اتكلم .. كنت ابتسم لها فحسب . كان يخيل الي انها مستطيعة بارادتها الخارقة ان تفهم بالابتسامة الطيبة وان تمد لنفسها حبل الرجاء . لقد صدمت بهذه الصراحة الريفية وسمعت بعلتها التي ليس لها دواء.. وانه لمن المشقة ان يستدعي الطبيب والدها اول الامر ثم يستبدله بعمها .. حتى اذا دخلت هي .. كان الحديث يدور عن السرطان في العظم الذي لا دواء له .

اهتدى الطبيب اخيرا الى دواء مسكن ، بعد ان اهتدى الى نظيره ، فخابر احد الصيادلة ليتأكد من وجوده لديه ، فلما اجابه الصيدلي بالايجاب ، بعث محمود لاحضار المسكن ولم تلبث زينب والمرأة الصامتة ان تبعتاه ثم قام ابوها ايضا . لست ادري لم قامت زينب ؟ لعلها تعلقت بامل ضئيل في الشفاء الذي نفاه الطبيب ؟ وتابع الطبيب حديثه موجها اياه الى عم زينب الذي ظل جالسا ينتظر اوبة محمود والمسكن :

– ان الاوجاع ستزداد . وسينتقل المرض من منطقة الى اخرى . قد يظهر عند العنق او في الذراع او الظهر . وسوف تموت لا محالة . لقد سبق وماتت بين يدي هاتين ، فتاتان في سن زينب بعد الم لا يمكن وصفه ، كما لايمكن تحمله

ظلت زينب وابوها والمرأة الصامتة في غرفة الانتظار ، بينما مضى محمود لاحضار المسكن . والطبيب يبدي ويعيد في وصف هذه الحالة المستعصية ، والعم صامت ، ولكنه ، وقد ماتت زينب من وجهة نظر العلم في يقينه ، لم يعد يهتم كثيرا بها .. لقد اماتها العلم .. وغدا او بعد غد مصداق ذلك الذي لا يكذب في تنبؤاته قط !! كان الطبيب متألما .. لانه يفشل في معالجة مريض .. والعم يائسا .. لعله الاخر قد تألم للدراهم التي انفقت في طريق لن ينبت فيه ذات يوم ولا عود

انا اسود!

((تحية الى الزنوج في أقطار الارض))

أنا اسودُ
كالليل .. كظلم الانسانِ
كدخان الموقد .. كالقار
كاللعنة .. كالاكفان
كالموت ... على الاعواد
كالدمعة .. في الاعياد
فلماذا أحيا .. وأنا أسود ؟!
لا يعنيهم ألمي القاسي
الاسياد ... النبلاء !
البيض .. الاشراف .. العقلاء !
انا في أعينهم ..
.. كالدودة في جوف الارض
بل أحقر مخلوق
فوق الارض

يا رب .. يا رب الانسان
ما ذنبي .. ما ذنب الالوان ؟
ولماذا أحيا .. وانا أسود ؟!

البيض ... الاسياد .. النبلاء !
يا رب البيض .. ورب السود !
اكشف عني الظلمه
ارفع عني الغمه
دعني أحيا
مرفوع الرأس كغيري في الدنيا
لا أخشى خطر التعذيب
لا أرهب قيد السجان
البصقات .. الرفسات .. الضحكات
تتبعني كالظل
تنهال علي كأني شبح الشيطان

فلماذا .. يا رب .. الانسان ؟
ألاني أسود ؟!

أنا اسود كالفحمة
لكني انسانُ !
وساحيا انسانا ابد الدهر
وطني الارض
وقلبي نبع دفاق بالخير
وانا احر في قلب بلادي
لا احمل حقدا للبيض
لا اضمر شرا للغير
الكل رفاقي
وانا اسعى من أجل الانسان
يا رب .. يا رب البيض .. وربالسود
دعني أحيا
مرفوع الرأس كغيري في الدنيا
لا اختشى خطر التعذيب
لا أرهب قيد السجان
فسأحيا .. وسأحيا .
مع أني أسود !

محمود المحروق

الجمهورية العراقية ـ الموصل

اخضر .. ولكن النظر الى زينب وهما في غرفة الانتظار صامتة ، يخرج المأساة من عيادة الطبيب ويركزها في الانسان عندما يعلم مصيره !!!!

كانت زينب ترتدي ثوبا اسود قد طرز بالوان عديدة بين الاحمر والاخضر في خطوط متعارضة واتساق الثوب الى اسفل . وكان في قدميها حتى نهاية الساق ، جزمة من المطاط الاسود اللامع ، وفي معصم يدها اليسرى سواران فضيان ، ليسا جديدين البتة ، وعلى رأسها طرحة صفير عسلية اللون ، وفي عينيها بقايا دموع ومزيد من النعاس لا يغالب ، فلما غادرت غرفة الطبيب واوشكت ان تسد الباب المفتوح بين غرفة الطبيب وغرفة الانتظار ، كانت تعرج بشكل ظاهر ، اذ كانت تميل الى اليسار ، وكان السرطان ـ وقد استقر في الفخذ الايسر ـ يدفع زينب لان تتقي الالم الذي يخلفه تثبيت القدم في الارض ودفع الجثة الى الامام . وكان ابوها وعمها والمراة الصامتة برغم تفاوت الانفعال فيما بينهم جميعا ، في ذهول مقيتوقد اسرتهم صدمة ثقيلة اشبه بمرض السرطان .. ما عدا زينب.التي كانت رغم سماعها رأي الطبيب ورغم دموعها ، ثابتة ، ولم يكن ينقصها سوف ان تبتسم ، لتبرأ ، وتؤكد جدارتها بالحياة .

فتح الباب وعاد الصراخ ، بعودة محمود حاملا الدواء المسكن لزينب . ان الدواء حسب رأي الطبيب سوف يتيح لها ان تنام براحة دون الم ، وان ذلك لن يؤخر من النهاية المنتظرة شيئا ذا بال . ودخل محمود علينا ، ووضع الدواء بين يدي الطبيب، فتبعته زينب وابوها والمرأة الصامتة . كانت عينا زينب ترمقان الدواء ، وقد فتحتا على نهايتهما ... وكانت هي تحدق في الدواء المسكن ، تعض شفتها السفلى بين الفترة والاخرى ، وتضع يدا على منضدة الطبيب ثم ترفعها ، لتضع الاخرى، وكانت في وقفتها تهتز قليلا .. بينما كانت تعدل من وقفتها بحركاتها هذه تتقي الوقوف على السرطان بالذات !

قام الطبيب مودعا العم .. والاب ، والمرأة الصامتة ، رابتا بكفه على كتف زينب في حنان ابوي غامر ، وبابتسامة طيبة ، داعيا اياها الى الصبر وتسليم امرها الى الله . وصرخ الباب من جديد ، لآخر مرة

وخرج الريفيون الاربعة من العيادة ، كما دخلوا ، ما عدا هذه العلبة التي تحتوي على الدواء المسكن . وحدقت في وجه صديقي فوجدته واجما حزينا . ولكنه ما ان عاد الى كرسيه حتى بادرني بالحديث :

ـ تصور يا فتحي ،مدى العذاب الذي ستعانيه زينب الى ان تموت انهم لو جمعوا آلام السرطان العظمي . الم لا يمكن تصوره .. ولا احتماله انها ستموت . ستموت لا محالة يا فتحي .

فوجدتني استمد من تماسك زينب وقت سماعها الحقيقة من فم الطبيب ، ما يدعني للمناقشة :

ـ ولكن الا تتصور انها ستشفى يا دكتور ؟

فرد علي بلهجة الواثق :

ـ مستحيل

فخالطني شيء من الامل ، ومن ثقة الجاهل بنفسه اذا خاض في موضوع لا يعرفه على حقيقته :

ـ انني لست طبيبا يا دكتور ، ولكنني اعتقد ان زينب ، وقد سمعت بقصة السرطان ، سوف تكون جديرة بالحياة ، وستشفى لان صلابتها كانت اقوى من السرطان . لقد كانت تبتسم يا دكتور . انها ظلت باسمة من ظلال الدموع . الا تؤمن بالامل يا دكتور ؟

فاجابني مبتسما ولكن بابتسامة متألمة :

ـ انت انسان عاطفي .. والسرطان ليس قضية عاطفية بحتة !!

ومد يده الى نسخة مطبوعة من ديوان الخيام ، وبدأ يقرأ علي الرباعيات باصلها الفارسي ثم يترجمها الى العربية ، آملا بذلك ان ينقذ روحه المعذبة من الغرق في محيط الالام . ولكنني في غمرة الحديث لم استطع ان امنع نفسي من الشرود .. دقيقة او دقيقتين ، فسمعت الطبيب يخاطبني :

ـ لا تبك يا صديقي .. كلنا في الحياة ((زينب)) !!

حلب

علي بدور

من الاصدقاء

الموتى لا يبكون !

عبثا ستحدق في عيني ..
لن تبصر شيئا في عيني ..
لن تلمح دمعا في الاحداق ..
فالدمع ترسب في الاعماق ..
والموتى لا يبكون ..

وتساءل انسان : من انت ...
من اي بقاع العالم جئت ...
ونظرت اليه بنظرة ميت ...
جمجمة خالية من روح ...
وهمست عجيب ..
او حقا لم تعرفني بعد ...
اني انت ...
لا تفزع ، اني انت ..
او لم تنظر في المرآة ..
او لم تنفذ خلف زجاج المرآة الاخرس
انظر ، وهناك ستعرف اني لست غريب ...
اني منك قريب ...
اقرب منك اليك ...
اني نفسك..
او لم تعرفني بعد ...
او لم نتقابل في اللحد ..
في قبر الايام الاكبر ...
لا تنكر ....
اني مثلك صورة ...
ما نحن سوى نسخ شوهاء مكرورة .
اجساد خالية من روح ...
كانت تحيا ذات زمان ...

ذات زمان ...
ذات زمان كنت اعيش ..
فردا يحيا مثل الناس ..
ينبض في صدري الاحساس ..
كنت اغني مثل البلبل ...
حرا اسعى مثل الجدول ...
كان العالم فيه زهور ...
يغمر كل مكان نور ...
كان الكل يغني ...
لا اشجان ، ولا احزان ...
لا آلام ، ولا اضغان ..
لا اشواك ، ولا نيران ...
وتيقظ يوما شيطان ...
عملاق ملعون اسود ...
بذر الحقد بكل مكان ...
نشر الشر وراح يغني بين لهيب بين دخان ...
يرقص في فوهة بركان ..
قتل الانفس ، سلب الروح ..
ترك الناس بغير ضمير ..

ياويلي ، يا ويل الناس ..
ويلهمو ، فقدوا الاحساس ...
موتى قد اضحوا ، دون ضمير ..
اجسادا ، لا تنبض فيها الروح ...
صرنا غرباء ...
صرنا غرباء يالله ...
اكلتنا الغربة يا ولداه ...
اكلتنا ، هرستنا ، حالتنا امواه ...
امواها في بئر مأسونه
ابدا ، يا رفقائي ابدا ، ما هذا عالمنا ..
عالمنا مفروش بالازهار ...
عالمنا تملأه الانوار ..
وتغرد فيه الاطيار
عالمنا تترعه الاشواق ...
عالمنا يسكنه العشاق
ابدا لا تلمح فيه النار ...
كاللعنة تبرز ليل نهار ...
عالمنا مزدان بالورد ...
عالمنا ملآن بالحب ..
عالمنا يحكمه القلب ...
عالمنا حلو حلو ...

ارشدني ، اني تهت ..
حيرني التيه بكل مكان ...
يا املي يادرب النسيان ...
ارشدني كيف اجيء اليك ..
ما زلت اسائل كل الناس عليك ..
لو بينك يا نسيان وبيني سبعة ابحر.
لعبرت بحار الهول وجئت اليك ...
لو كنت هناك بسابع ارض ..
لنفذت الى الاعماق وكنت لديك ..
لو يفصل بينك يا نسيان وبيني ،
سبع سماوات شماء ..
لركبت بساط الريح اليك ..
لكني لا اعلم اين تكون ..
وانا عاجز ...
حتى الدمعة لا املكها ..
فالدمع تجمد في الاعماق ..
والموتى ، لا يبكون ...

وخرجت افتش ذات صباح ...
وبكفي يلمح مصباح ...
مصباح يجرح ضوء الشمس ..
اني ابحث عن انسان ..
انسان ما زال يعيش به الانسان ..
وذهبت اليه بكل مكان ...
انفقت على التنقيب زمان ...
ورجعت ولم المح انسان ..
وبكفي ما زال المصباح ..
ويمر صباح تلو صباح ...
وانا لا اعثر بالانسان ...
قتلوه جبابرة القرن العشرين ...
السفاكون ...
شنقوه ...
القوا جثته ، في الطين ..
اني ابكي ، ابكي موت الانسان ..

اللحن يضيع بكل لسان ...
الحلم يموت على الاجفان ...
والورد علاه نثار دخان ...
انسجة بالية من اكفان ..
عبثا ابحث عنك ..
يانهر اللوعة اين تكون ...
امنحني قطرة دمع ، اني ابكي لكن اين الدمع ..
كم يشفي الدمع شجون الروح ...
الرحمة للقلب المجروح ..
لا تنشب عينك في احداقي ..
اهبط بفضولك في اعماقي ...
لن تلمح دمعا في الاحداق ..
فالدمع ترسب في الاعماق
والموتى لا يبكون

عبد المنعم عواد يوسف
القاهرة

الأحد الحزين

سيدتي أعتذر
فغرفتي فقيرة الرياش
مرمية في شارع قميء
اسود مثل القار
حالفه العثار
ولم يصافح جفنه النهار
فعاش يا سيدتي ، يحترق انتظار
يحلم ان يجيئه غد وضيء
لكنه
يعلم ان غده الوضيء لن يجيء
فعمره تصور .
سيدتي اعتذر
كل الذي املكه فراش
جئت به من قريتي
ثم نسيت لونه
وعدة الشاي ، ثم صور
هام بها الغبار
فهي على الجدار
هياكل باخت فما تعبر ،
ومقعدان عاركا الايام
واستسلما ، وموقد يحتضر
اردته درعا من الشتاء
فعاون الشتاء يا سيدتي
فتارة يصفر
يحمل لي الرياح
مواكبا تصرصر
وتارة يزمجر
يوقظني من غفلتي
يثرثر ، فغرفتي
كالشارع الاشمط لا يدثر
عري الذي تضمه دثار
او تبعث الحياة فيها نار
فهي حمى مباح .
سيدتي اعتذر
فأنت تعرفين
كل الذي اود ان اقول
وانت تدركين
ان الذي يأتي الى المدينه
في طلب المعاش
سوف يظل يعبر
مفاوز السنين
من دون ما معونه
ينتصر
ومرة يندحر
وابدا ينتظر
لفافة المؤونة
وكلمة من امه ،
تبعث في اعماقه السكينة
تسأله بلهفة الثاكل ، ان يعود
لقريته ،
فموسم البذار
جاء ، وما في الدار
غير اطار صورته
وباقتا تذكار
خطتهما يمناه
تذكران امه بطلعته
وتبعثان في حشاها نار
تود ان تراه
من قبل ان تفارق الحياه
ان تنتشي بفرحته
ان تحمل الصفاء

لكنه من بعد ان جاء الى المدينه
مغامرا ، يسيل امنيات
لعله يكسب في معركة الحياة
مكانه ، يخجل ان يعود
صفر اليدين ، دونما انتصار

سيدتي اعتذر
جئنا لنقضي ساعة ننسى بها الهموم
وكل ما يكدر
فننتشي، ونسكر
نغرق في الحب ولا نقدر
لكنني وغرفتي حزينة الرياش
كنت ونحن في الطريق نحوها افكر
في : اين تجلسين
وهل تراك ترتضين
وانت من انت غنى وجاه
ان تسكني الى فراش
جئت به من قريتي
ثم نسيت لونه

دمشق — **خليل خوري**

الوَتَـرُ المشـدُود ..

قصة بقلم خالد الشريقي

تكاد تشعر بان عصفورا صغيرا ينقر قلبها ، وان كل خليـة فـي جسمها تحتضر ، وان رجليها لا تقويان على حملها ، حتى انها تتمنى لو يتقدم منها اي رجل كان في هذا الزقاق الضيق ، ويشيلها على يديه حتى يصل بها الى البيت .

ولكن هل يعقل ذلك ؟.. انها ستتحامل على نفسها وتسير كأن شيئا ما لم يحدث ، وعندما تصل الى السلم ، ستستند على الحائط صاعـدة الدرج .. تفتح الباب ، لتدخل الى المنزل بطبيعتها الهادئة ، وخطواتها المتزنة ، ولن تعجب من امها عندما ستسألها بوجهها المتغضن :

– اين كنت طوال هذا الوقت ؟

بل ستكذب عليها وتجيب :

– كنت في المدرسة !..

وهي على يقين بان امها لن تدعها تتم جملتها ، ستزرع الغضب ما بين حاجبيها ، وتقول بصرامة قد الفتها :

– الهذا الوقت ؟..

– اجل ... فقد مررت في طريقي على بيت سلمى ..

وستصم اذنيها عن ثرثرتها المعتادة ، لتتقدم من الهاتف وتدير ارقامه .. وتهمس :

– آلـو ...

– ......

– لقد وصلت ...

– ......

بعدها ستذهب الى غرفتها .. وتصفق الباب وراءها ... وترتمي على سريرها كتلة من اللحم ...

ولكن بيتها بعيد كأنه في بلد اخر ...

لو انها سمعت منه عندما قال لها :

– لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ...

اذن لما احست بهذا التعب ، ولربما استطاعت السير كعادتها دون ان تشعر بان قدميها لا تتحركان ، او ان بيتها يهرب منها ولا تستطيع اللحاق به... ومع هذا ، فان من يراها يستطيع ان يقرأ في عينيها فرحة لو كان بامكانها ان تعيرها الى انسان يائس لما فعلت . انها ستحتفظ بهــا لنفسها .. ستطلي بها سواد ايامها الماضية .. وتكون اقوى من اليأس ، طالما تبرعم في صدرها سر اطبقت عليه جميع ابوابه..

ماذا لو حدثت امها بسرها الكبير ؟..

وهربت من بين شفتيها ابتسامة عجينيه .. لم تفكر بذلك ، لم تشعر في يوم ما بان لها اما،كل ما تشعر به خيط من الجوار يربطها بامرأة تعيش معها في بيت واحد.

وزحفت الى رأسها فكرة لم تستطع ابعادها ...

لقد حدثت اباها مرة عن شاب اسمر كان يسير وراءها صامتا كـل يوم في طريقها الى المدرسة ، لم تشعر بالخجل عندما اخبرته بذلك، حتى انها اصرت بعناد واكدت رغبتها في ان يصحبها الى المدرسة صباح اليوم التالي .

وقد فعل ... وشعرت باعتزاز ملأ نفسها عندما سارت الى جانبـه بقامته الطويلة ، وكتفيه العريضين ، حتى انها عندما لمحت ذلك الشاب الاسمر واقفا بانتظارها عند منعطف الشارع ، اشارت اليه بعينيـهـا ، واستطاعت ان ترى حيرته واضطرابه عندما نظر اليه ابوها ، حتى ان ضحكة كبيرة كادت تفلت من بين شفتيها عندما رأته يغيب في ذلك الزقاق الضيق الذي يقف قريبا منه .

وقد ابتسم ابوها ، وطمأنها بان هذا الشاب الاسمر لن يظهر مرة ثانية وقبل ان يتركها استوقفها امام باب المدرسة وقال :

– ارغب في ان لا تسمع امك شيئا من هذا .. انت تعرفين امك.. فحادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

اجل تذكر ذلك ... حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

✱

ظهر ذلك اليوم اتصلت بها سميرة بالهاتف وسألتها عما اذا كانـت ترافقها الى السينما ، وقد اعتذرت منها ، واكدت لها بان اباها قد وعدها بان يصحبها معه في المساء الى ذلك الفيلم .. وكانت كاذبة ..

احست في تلك اللحظة بفراغ هائل يفصلها عن الحياة ، فلم يعدها ابوها بما اخبرت به سميرة ، كل ما في الامر انها ارادت ان تتهرب من دعوتها، لانها على يقين بان امها لن تسمح لها بالذهاب الى السينما ان لم تكن برفقتها ، وبشرط ان لا تكون في الفيلم لحظة حب .

وعادت الى كتبها ..لاول مرة ترى الحروف تتراقص امامها بشكل لم تألفه من قبل ، حتى انها لم تستطع اخفاء حقيقتها عن نفسها ، فارادت ان تثور ، وان تتمرد ، وان تزرع الارض بالاوراق التي بين يديها .. لكنهـا لم تفعل .. وشعرت برغبة لان تتصل بسميرة وتخبرها عن عزمها في مرافقتها الى السينما .. لكنها لم تفعل ايضا ..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل . .

وجاء ابوها وقت المساء ...

كانت عيناها معلقتين بوجهه ، فقد تمنت لو تركض اليه ليحيطها بذراعيه القويتين ويشدها اليه حتى تذوب ، وارادت ان تبكي على كتفيهوان يدفن اصابعه في شعرها كما يفعل في كثير من المرات عندما تهرب من امها لتلتجيء اليـه .

ماذا لو طلبت منه اصطحابها الى السينما ؟ الم تخبرها بعض رفيقاتها بانهن يذهبن دائما مع ابائهن او اخوانهن الى السينما ؟.

ليس لها اخ لتطلب منه ذلك ، ليس لها اخت لتشاركها هذا الطلب ، انها وحيدة لا تعرف غير ابيها ... فلم لا تسأله اذن .

انها تذكر بان احدى رفيقاتها قالت لها مرة :

– ان المحب لا يبخل بشيء على محبوبته

وهو يحبها ، قال لها ذلك اكثر من مرة ، فلم لا تسأله اذن ؟..

وتقدمت منه .. كان في جلسته ساكنا يقرأ في جريدة بين يديه، وكانت

تعرف ان امها في المطبخ تعد طعام العشاء ، وانها تستطيع الحديث اليه في هذه الغفلة ، فسعلت .. ونفضت فستانها ، ووقفت الى جانبه وكان لا يزال يقرأ ...

وسعلت من جديد ، وتعمدت ملامسة جريدته حتى جعلتها تهتز بشكل منع نظراته من متابعة الحروف ، فرفع اليها عينيه ، وابتسم ، واقعدها الى جانبه ، وربت على كتفها ، وقال :

ـ هل من جديد ..؟..اراكغيرطبيعية..

فهزت له رأسها ، غير طبيعية ، متى كانت طبيعية ؟.. وجمعت كل شجاعة لها في نفسها وقالت وهي تفرك احدى اصابع يديها :

ـ افكر في اني ساطلب منك ان تأخذني الى السينما هذا المساء

ومرت فترة صمت ، وكادت تتمنى لو انها لم تطلب منه شيئا لولا انه قـال :

ـ ولكن امك .. ماذا نقول لها ؟..

واصرت :

ـ لا ازال افكر في هذا الطلب ...

ودخلت امها تحمل طعام العشاء ...

حادثة السينما لم يمض عليها وقت طويل ..

عندما جلست امامه على الطاولة المستطيلة لم تشعر برغبة لها في الاكل ، كانت نظراتها تركض من وجه امها الى وجهه ، وكانت تعرف انه يفكر في شيء ما .. ترى هل ترقص في رأسه فكرة ذهابهما الى السينما؟.

ورفع اليها عينين لو رآهما انسان غيرها لجزم بانهما تدمعان ، وهـز لها رأسه ...

في تلك اللحظة شعرت بان فرحة عميقة قد استيقظت في اعماقها، حتى انها رغبت لو ان امها تذهب لعمل ما كي تركض اليه وتحيطه بذراعيها، وتقبله ، لم تعد بحاجة لان تأكل، لم تستطع ان تبقى هادئة في مكانها ، كانت تدفعها هذه الفرحة لان تعمل اي شيء فتركت نظرات امها معلقة بوجهها ، وركضت الى غرفتها لتطبق وراءها الباب ، لترقص ، لتدور حول نفسها ، لتغني بصوت منخفض ، لترتمي على سريرها ، لاول مرة شعرت بانهـا تنتصر .

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد

وفتحت باب غرفتها وخرجت ..

كانت تتوقع ان تثير دهشتهما ، فقد تعمدت ان تبدو كامرأة ، وان لا تهتم بابتسامة ابيها ، واستدارة عيني امها .

ونظرت اليه .. ونظر اليها .. وقال لامها بحركة تمثيلية :

ـ وعدتها بزيارة لبيت عمها هذا المساء.

وقبل ان تسمع جوابها كانت تنزل الدرج...

اي انسان في مثل سعادتها ..؟

كانت تسمع من بعض زميلاتها بان السعادة في حب انسان اخر ، انسان جديد لا يعيش معها في بيت واحد ، وكانت تضحك من هذا الرأي ، وتعتقد ان من يزعم ذلك محروم من حب ابيه ، كانت صور كثيرة تدور في رأسها وهي الى جانبه في طريقهما الى السينما ، صور لم تدم امامها اكثر من دقائق معدودات .. اي خير في انسان لا يعيش معها في بيت واحد .. اي نفع من شخص غريب عنها لا يربطها به اي شيء ؟.. هل تستطيع ان تحب هذا الانسان ؟.. اذن اي موضع لابيها في قلبها ؟؟..

ومرت امامها صور مهزوزة .. كانت احداهن تتغنى البارحة بقبلة من شخص غريب عنها .. وشعرت بقرف ، وجرى في كيانها نهر من الاشمئزاز كيف تسمح هذه للشخص الغريب بتقبيلها ؟ كيف تسمح له بذلك ؟.. وسرت في جسمها رعشة ، لم تتصور ان مثل هذا يحدث في غير السينما وبعض القصص والاشعار الموضوعة التي يكذب فيها مؤلفوها دون ان يكون هناك من يحاسبهم على كذباتهم الكبيرة .

ان رفيقاتها لا شك واهمات ، بل انهن بعيدات عن الحقيقة ، فدعد تشاركها هذا الرأي ، لقد وقفت الى جانبها عندما احتدم النقاش حول هذا الموضوع ، وسخرت من احداهن ايضا عندما قالت :

ـ ان من لم يعشق لا يعرف الحياة

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

★

عندما دخلت الى القاعة الكبيرة كانت تشعر بشلالات من الانظار تصب عليها ، شعرها الاشقر المقصوص ، فستانها الاخضر ، الساعة الذهبيـة التي تلمع في يدها ، كعبها العالي ، مشيتها كامرأة . وخيل اليها بانهـا سمعت همسا من ورائها عندما قعدت على مقعد جانبي بقرب ابيها ، ومع ذلك لم تهتم بشيءكانت نظراتها مغروزة في الشاشة الكبيرة البيضاء.

تمنت في تلك اللحظة لو تشاهدها سميرة لتتأكد من انها لم تكذب عليها عندما اخبرتها ان اباها قد وعدها بان يصحبها معه في المساء .

حتى انها رغبت لو تكون قد رأتها احدى رفيقاتها وهي داخلة الـى القاعة الكبيرة .

لم تهتم بحوادث الفيلم ، لم تحضر لتشاهد صورا متحركة ، هدفهـا اكبر من ذلك ، انه يتصل بعالمها الصغير المغلق ، بحدودها الضيقة ، بالفراغ الهائل الذي يفصلها عن الحياة ، بالحواجز الكبيرة التي تقيمها امها انها تريد ان تثبت لنفسها بانها اصبحت امرأة ، وبان لها كيانا ، وشخصية خاصة .. ونظرت الى ابيها ، والتصقت به .

استطاعت في تلك العتمة ان ترى جانبا من وجهه ، حتى لقد خيـل اليها بانه يبتسم لفكرة ما في داخله ، هل تراه يتابع حوادث الفيلم ؟.

قبل ان تجيب نفسها لتعرف سر ابتسامته تنبهت لهمهمات ، وصفير انبعث من حولها ، فسكبت نظراتها على الشاشة من جديد ورأت شابا اسمر يمسح بفمه خد صبية شقراء تحاول ان تتمنع .

سرها هذا المنظر ، فهو تأكيد لما كانت تناقش به زميلاتها في المدرسة اذن لن تفكر في غير ما يمثل امامها ، خصوصا وانها ستخبرهن بقـصة ذهابها الى السينما مع ابيها ، فلربما لم تصدقها احداهن وامتحنتها ببعض المشاهد ، اذن لن تفكر في غير ما يمثل امامها .

وركضت صور سريعة كذكرياتها،ورأتاشياء كثيرة ، وانتهىالفيلم... وكانت نهاية زمت لها شفتيها ، فقد سمحت تلك الصبية الشقراء للشاب الاسمر بتقبيلها .

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

لم تتصور عندما فتح الباب ابوها ان امها لا تزال يقظة ، كانت تعتقـد ان النوم يأكلها في تلك الساعة ، ومع ذلك لم تأبه بها ، كان شعور بالنصر يرقص في اعماقها ، يدفعها لان تضحك ، لان تغني، لان ترقص ، لان تقوم بعمل اشياء كثيرة لا تريدها في غير هذا الموقف . ووصل الى سمعها صوت ابيها :

ـ « الجماعة يسلمون عليك » .. ورغبت في ان تضحك اكثر من اي وقت مضى .. « الجماعة يسلمون عليك » .. لم لم يقل لها السينمـا تسلم عليك .. الشاب الاسمر .. الصبية الشقراء التي سمحت لـه بتقبيلها .؟ وفجأة ماتت في راسها كل فكرة ، وكادت لا تصدق ما تسمعه..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ...

لم تستطع ان تبقى في جمودها ، كان شيء اقوى من الفضول يدفعها لان تقترب من حجرة ابويها ، فتسللت على رؤوس اصابعها ، ووقفت محنية الظهر امام الباب المغلق ، وسمعت كل شيء .. وشعرت انها تكره ابيها الذي لا تكاد تسمع صوته، لكنها فوجئت به يفتح الباب بعصبية ظاهرة ، ويندفع باتجاه الخارج .. فركضت اليه .. استطاعت بيسر ان تتبين اليأس الذي نبت في وجهه، والكلمات المبهمة التي تتأرجح على شفتيه ، ومسكته من يده وقد استراحت الكلمات التي كانت تتأرجح على شفتيه ، فقال :

ـ لا استطيع ان اعيش معها....

ـ وهل تستطيع ان تتركني لوحدي ؟..

ـ انها شريرة ، لا تستطيع ان تنام اذا لم يعل صوتها فوق صوتي

ـ ستنام عندي.. فليست هذه اول مرة اطلب منك ذلك ، ان لهذه الليلة اخوات عديدات ..

وجرته من يده ، ودخلت به الى غرفتها ... وقبل ان يرتدي لباس نومه قدمت له فنجانا من القهوة ، ثم التصقت به وقالت :

ـ لقد اطفيء النور فيغرفتها ..

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

لم تستطيع ان تغفو .. كانت حياتها تنتصب امامها بوضوح ، وكانت نظراتها ترتمي على ابيها الذي ينام على الاريكة بجانب سريرها .

واستدار على جانبه الايمن .. هل تراه يحاول ان يغفو .. ام انه لا يزال يفكر ؟..

انها لا تذكر بان اباها قد اساء الى امها في مرة من المرات ، انه لا يريد أن يجرح كرامة احد، ولا ان يكون السبب فيتعاسة احد، كان يصبر علىمسمار تدقه امها فيكرامته، ويحاول ان يصلحالاساءة بابتسامة او كلمة حلوة ، وكان هذا شعاره مع الناس ، فأحبه كل من تعرف عليه، واصبح صديق الجميع ، الا ان يكون صديقا لامها ..

وعادت كلمات امها قاسية كما سمعتها ، وشعرت انها المسؤولة عن المسمار الذي دقته في كرامته ، وانها السبب في نومه على الاريكة . لقد رفض ان ينام على سريرها عندما قدمته له ، واحتج بان الاريكة تتسع له ، وانه يستطيع ان يغفو عليها، طالما هو الى جانب ابنته الوحيدة التي يتحمل في سبيلها كل شيء .. وارادت وقتها ان تبكي .. وان تنام تحت قدميه ...

لم اعترف لامها بانه اخذها معه الى السينما ، كان بامكانه ان يضللها عندما عرفت بانهما لم يذهبا الى بيت عمها كما اخبرها في المساء .

كانت تقول بانها شعرت انه يكذب عليها ، فركضت الى بيت عمها بعد قليل من ذهابهما ، ولم تجد احدا .. فعادت وانتظرت

كان بامكانه ان يكذب عليها من جديد ، فالصدق لا يتمشى وطبيعة امها ، والصدق احيانا لا يتفق مع الحياة ..

لو انه كذب عليها لما نام فوق الاريكة ، ولما اتهمته بانه يريد ان يفسد اخلاق ابنته وان يعلمها العشق والغرام والرذيلة من السينما كما كانت تقول له .

كانت امها تقول بانها نشأت لا تعرف شيئا مما يعرفه بنات اليوم ، وبان السينما لم تكن موجودة ، حتى ولم يكن احد يعرف الراديو ، ومع كل هذا فقد كانت حياته في ذلك الوقت سعيدة اكثر منها في زمن السينما.

ولم يسكت ابوها ، سمعت كلماته بصعوبة ، قد سرها ان يقول لامها بان عصرها غير هذا العصر ، وان البنت اصبحت صبية ، وانها بحاجة لان ترى الناس وتخالطهم ، ولا مانع من ان تصاحب البعض منهم ، وكانت عند كل جملة تسمع تهكم امها وسخريتها المجنونة .

حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ...

كان ابوها محقا عندما قال لها بعد ان طمأنها امام باب المدرسة بان ذلك الشاب الاسمر لن يظهر لها مرة ثانية ، كان محقا عندما قال :

ـ ارغب في انلا تسمع امك شيئا من هذا .. انت تعرفين امك .. فحادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل ..

ان اباها يعرف بانها لا تستطيع ان تحدث امها بشيء من حياتها ، بل انها لا تشعر ان لها أما ، كل ما تشعر به خيط من الجوار يربطها بامرأة تعيش معها في بيتواحد.

وحاولت في تلك اللحظة ان تبعد صورة اخيرة لابيها نبتت في راسها ، فتعمدت ان تسعل ، وان تلتفت وراءها وان تمسح شعرها ، وان تنقر باصابعها على الكتاب الذي بيدها محدثة صوتا تغلب على تركيز الصورة الاخيرة لابيها التي نبتت في رأسها . وارادت ان تتلهى باي شيء تراه في طريقها ، فلم تجد هذا الشيء ، وشعرت بان بيتها لازال بعيدا ، وتمنت لو انها سمعت منه ولمتعجلفي ذهابها اذن لما احست بهذا التعب الذي ملأ كل شبر من جسمها ، ولربما استطاعت السير كعادتها دون ان تشعر بان قدميها لا تتحركان ، او انبيتها يهرب منها ولا تستطيع اللحاق به .

وتساءلت لو ان اباها بقي لها ألم يكن بمقدورها ان تحدثه بهذا السر الكبير ، وبالفكرة التي زحفت الى رأسها منذ قليل ولم تستطع ابعادها.؟

انما لو بقي لها .. أتراها يكون لها هذا السر الكبير ؟.. انها لا تدري ، فلم تشعر في ذلكالو قت انها بحاجة الى سر كبير ، كل ما كانت تشعر به ان لها ابا ملأ حياتها وجعلها لا تؤمن او تثق بانسان غيره، كان يشاركها دروسها ، ويسهر معها في كثير من الليالي ، ويقدم لها الهدايا ، وينتقي لها احسن الثياب ، ويمازحها ويروي لها النكات .. كانت حياتها لا تتسع لغيره ، كانت تؤمن بان الناس الطيبين لا يموتون .

وابعدت من تفكيرها مرة ثانية هذه الصورة الاخيرة لابيها ، وحاولت من جديد ان تتلهى بشيء تراه في طريقها ، فتعمدت ان تسعل ، وان تلتفت وراءها وانتمسح شعرها..انما سرعان ما سمرتيدها على اذنيها.. لقد نسيت قرطيها الجميلين على طاولته ..

تمنت لو انها سمعت منه ولم تعجل في ذهابها ، اذن لما نسيتهما على طاولته ، ولاعتنت باصلاح شعرها اكثر من اعتنائها به في تلك السرعة .

كان يقول لها وهي امام المرآة الصغيرة المثبتة على الحائط :

ـ انت جميلة وان لم تنبت في راسك شعرة واحدة ..

ثم يمد يديه ليمسح خصرها .. ويميل بشفتيه على عنقها ، وتحاول ان تتخلص منه :

ـ دعني أتم ترتيب شعري .. انتظر قليلا .. تاخر علي الوقت ..

ومن صميمها كانت ترغب لو انه يعبث بشعرها من جديد كما فعل عندما قعدت بجانبه على السرير .

كانت تحاول ان تبدو طبيعية ، وان تخفي اضطرابها ، وان لا تعتقد بانه يسمع ضربات قلبها ، ومع ذلك استطاعت بعد قليل من قعودها بجانبه على السرير ان تتغلب على نفسها ، وان تبدو كامرأة تعرف اكثر من شاب واحد ، حتى انه سالها عندما كان يمسح بفمه خدها الايسر :

ـ هل احببت احدا غيري من قبل ؟

ولم تدر لم ارتسمت امام عينيها صورة واضحة لابيها في تلك اللحظة، فهزت له رأسها ، وسمحت ليده ان تغيب تحت ذراعها ، ثم مالت حتى وشوش شعرها طرف وسادته .

من كان يصدق بان ذلك الشاب الاسمر الذي كان يسير وراءها صامتا في طريقها الى المدرسة سيقلع من حياتها شجرة اليأس التي زرعتها امها بعد موت ابيها ؟..

انها تعلم بان اباها كان صادقا عندما قال لها بان هذا الشاب الاسمر لن يظهر لها مرة ثانية في طريقها الى المدرسة . كان صادقا ، لكنه لم يتكلم عن الزمن ، ولم تسأله من هذا، لانها كانت تعتقد بان الناس الطيبين لا يموتون .

ـ ...... انت تعبة .. وبيتك بعيد !!

لم تنكر دهشته عندما لمحته واقفا عند منعطف الشارع صباح اول يوم ذهبت فيه الى مدرستها بعد موت ابيها ، كانت تسير ملفوفة بالسواد ، كقطعة من الليل الذي هرب قمره ، ولم تنظر اليه ، لم تحاول ان تعرف اي سر يعيش في عينيه ، لان بركانا من الحقد تفجر في صدرها في ذلك الوقت، فقد ايقنت بان هذا الشاب الاسمر لم يظهر لها بعد تلك الحادثة الا لانه علم بامر ابيها ، ولانه واثق من ان انسانا ما لن يرافقها في طريقها الى المدرسة كي يمنعه من ملاحقتها . فمرت من امامه كعادتها محنية الراس .. وشعرت باقدام تتبع خطواتها ، فلم تحاول ان تلتفت، كانت تعلم بان تلك الخطوات التي تسمعها هي لقدميه ... واسرعت في سيرها ، وازداد في سمعها وقع تلك الخطوات ، حتى وصلت الى مدرستها .

ـ لاتعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

وسرت في جسمها رعشة خفيفة .. وتمنت لو انها تدخل بيت دعد لتستريح فيه قليلا ، فهو لا يبعد عنها اكثر من زقاق واحد .

لكنها لم تفعل .. فقد رات نظرات امها القاسية ، وخيل اليها بانها تسمع صوتها المقوس :

ـ اين كنت طوال هذا الوقت ؟..

فدفنت رغبتها ، وتابعت خطواتها تسير في بركة من الوحل .

عندما لمحته صباح اليوم الثاني واقفا عند المنعطف لم تدهش ، فقد اكدت لنفسها وهي في طريقها الى المدرسة بان هذا الشاب الاسمر سيكون بانتظارها عند المنعطف ، حتى انها صممت ان تنظر اليه لتعرف اي سر يعيش في عينيه ، لكنها لم تستطع ، شعرت بشيء يربط عينيها بالارض . فمرت من امامه كقطعة من الليل ، وانتظرت ان تسمع صوت اقدام تتبع خطواتها ، لكنها لم تسمع . ودفعتها رغبة لان تلتفت وراءها . كان قد ابتعد عنها سائرا باتجاه العوده .

ودت في تلك اللحظة لو انها تركض اليه لتصفعه ، ، لم تنتظر منه ان يهينها بهذا الاهمال ، لم لم يلحق بها كعادته ، لم تركها قبل ان تسمع وقع اقدامه تتبع خطواتها ؟..

وابتسمت في سرها .. ما علاقتها به ؟ حرى بها ان تسر كما سرت يوم رأته يغيب في ذلك الزقاق الضيق الذي كان يقف قريبا منه عندما نظر اليه ابوها ، كان لها اب في ذلك الوقت ، فمن لها الان ؟ ، لا ام تستطيع ان تتحدث اليها ، لا اقارب تثق بهم ، لا صديقات يسمعن لها شكوى ، انها وحيدة كانها تعيش في عالم مات كل سكانه . واقتربت من صديقة لها انتحت بها احدى زوايا المدرسة :

ـ ما معنى ان يلحق شاب بفتاة ؟

ـ لا بد انه احبها

ـ وماذا يريد بحبه ؟

ـ ان يبثها شكواه

ـ واذا تركها في يوم ولم يلحق بها ؟

ـ يكون قد يئس منها

ـ الا يحاول مرة ثانية ؟

ـ اذا شجعته على ذلك

ـ وكيف تعلم الواحدة انها قد احبت ؟

ـ تزداد ضربات قلبها .. وتضطرب حركاتها .. وترتبك .. ان رأت شخصا تشعر انها بحاجة اليه

ـ وهل يحدث لك كل هذا اذا رأيت من احببت ؟

ـ اجل ولكن هل لحق بك احدهم ؟

ـ لا .. انما اخبرتني احدى الصديقات بان شابا اسمر يلحق بها كل يوم .

وشعرت بان صديقتها حاولت ان تفهم شيئا ، فتركتها ، ودخلت في حلقة جديدة مع زميلاتها .

اذن احبها هذا الاسمر ليبثها شكواه .. تراه له شكوى هو الاخر ؟ انها تعتقد بان كل شكاوى العالم تعيش في صدرها ، فاي سر يسكن قلبه اذن ؟ .

تمنت لو انها تعرف ، ورغبت لو انه ينتظرها في اليوم التالي عند المنعطف ، واقرب بانها ظلمته ، وان من حقه ان تبتسم له اذا رأته ، فلربما كان انسان ما كامها يظلمه ..

ولكن اي انسان يقسو كامها ؟.. انها لا تسمح لها ان تغادر البيت الا الى المدرسة ، وتمنعها من مشاركة رفيقاتها نزهاتهن ، حتى انها تحرم عليها الوقوف في شرفة المنزل ، وتصيح بها ان رأتها واقفة :

ـ عال جدا .. تعرضين نفسك على الناس .. هل انت عاشقة فتنتظرين حبيبا ؟

دتهينها ، وتضربها احيانا ، ولا تجد منفذا غير البكاء ، لا تستطيع ان تعترف لاحد بهذه القسوة ، ليس لها اب ليحميها من امها كما كان يفعل قبل موته ، ليس لها اي انسان .

حتى انها لا تسمح لها ان تطيل حديثها بالهاتف ، وان نسيت وتركتها في بعض المرات اكثر من الوقت المحدد لها ، راتها تركض اليها مسرعة لتسرق السماعة من يدها ، وتضعها على اذنيها صاغية للصوت المنبعث من الثقوب الصغيرة المدورة ، ثم تعيدها الى مكانها وتقول بصوت اجف

ـ لن استغرب ان سمعتك يوما تكلمين عشيقا لك . فانت على استعداد لذلك

ـ لاتعجلي في ذهابك ... انت تعبة ... وبيتك بعيد ...

*

كانت عيناها في اليوم التالي ترشان نظراتها على جانبي الطريق ، كانت تخاف ان تكون قد سبقته ، وكانت خطواتها بطيئة لدرجة ان من يراها من بعيد يحسب انها واقفة لا تتحرك ، وشعرت بضربات قلبها تزداد ، وكادت تضطرب ، فتمالكت نفسها ، وقفزت نظراتها الى المنعطف .. انما سرعان ما جمدت عيناها ، فلم يكن هناك اي انسان ، ولم تياس بل اعتقدت انه لا بد ان يظهر لها ، فالتفتت وراءها اكثر من مرة .. لكنه لم يظهر .

وراح يدور الف سؤال في راسها الصغير .. لم يات كعادته .. هل يئس منها ، امن الضروري ان تبتسم له اول مرة تراه فيها بعد موت ابيها ، الا يعلم انها حزينة ، وانها لم تكلم احدا غريبا عنها من قبل ،

وانها تخاف من امها ؟ .. ولكن من اين له ان يعلم كل ذلك ؟..

دتساءلت عن سر اهتمامها به ، وكيف تحولت من عدوة الى صديقة ، الا انها تريد ان تقهر امها في نفسها وتحقق نبوءتها عندما كانت تقول :

ــ لن استغرب ان سمعتك يوما تكلمين عشيقا لك ...

ام انها تريد ان تستمع الى شكواه كما قالت صديقتها ، او ترغب في ان تحدثه بشكواها وقسوة امها عليها ؟ ..

كانت تحدث اباها بكل هذا من قبل ، فهل يستطيع هو ان يأخذ مكان ابيها .. وهل تستطيع هي ان تحبه كما كانت تحب اباها ؟..

وفكرت فيما لو كانت لها ام كبقية الامهات ، هل كانت تفكر بمثل هذا التفكير ، او تبحث عن انسان غريب عنها ؟

لاول مرة تمنت لو يكون للانسان اكثر من اب واحد ، وان لا تكون له اية ام .

عصر ذلك اليوم لم تدر اي شعور نبع من نفسها ، كانت تحس بان يدا خفية تضغط على صدرها ، وان قلبها بات صغيرا صغيرا يغوص في داخلها ، وان شيئا ما يمنع عنها الهواء ، وانها تتمزق .. وفكرت بعالمها الصغير المغلق ، بحدودها الضيقة ، بالفراغ الهائل الذي يفصلها عن الحياة ، بالحواجز الكبيرة التي تقيمها لها امها ، وارادت ان تثور وان تتمرد ، وان تمزق ثيابها ، فاندفعت الى شرفة المنزل كانها تبحث عن هواء جديد .

ــ عال جدا ... تعرضين نفسك على الناس . هل انت عاشقــة فتنتظرين حبيبا ؟..

التفتت اليها بحقد ، ولم تقل شيئا ، انما ادارت لها ظهرها ، وتركتها في ثرثرتها المعتادة .

اجل انها تعرض نفسها على الناس ، انها عاشقة تنتظر حبيبا ، بل انها على استعداد لان تبتسم في وجه اي انسان ينظر اليها في هذه اللحظة ، لقد شعرت ان ابتسامتها الى ذلك الانسان هي خنجر تغرزه في صدر امها .

لمن تبتسم اذن ؟.. كانت عيناها تبحثان عن انسان ..

ورن جرس الهاتف ، كانت عيناها تبحثان عن انسان ، وكانت تنتظر ان تذهب امها اليه ، فلم تتحرك ، وطال رنينه ، وتاكدت بان صوت « وابور الغاز» قد منع امها من سماع صوته ، فاضطرت لان تعلن المتكلم ، وترفع السماعة :

ــ آلـــو ...

ــ . . . .

ــ آلـــو ..

وجاءها صوت انسان خيل اليها بانه يائس

ــ انا يا آنسة ...

ــ من ... ماذا تريد ؟

ــ انا .. انا ..

ــ من انت .. ماذا تريد ؟

ــ انا آسف لازعاجك

ــ قل .. قل من انت

ــ كنت اريد ان اعزيك بفقد ابيك يا آنسة ، لكنك لم تتركي لي اي مجال

وشعرت بانها تريد ان تعرف صاحب الصوت ، وان خيطا من الصدق استطاعت ان تسمعه في لهجته فقالت :

ــ كيف .. انا لا اذكر ..

ــ بل ذاكرة لا شك يا آنسة .. لقد حاولت ذلك البارحة في طريقك الى المدرسة .. انما ..

واستدارت عيناها .. ورقص صوتها :

ــ انت .. انت ال....

ــ اجل يا آنسة .... انا من كان ينتظرك في طريقك الى المدرسة ..

ــ ولكن لم لم تقل لي ذلك ..

وشعرت انها ضعيفة ، وانها تكاد تستسلم بسرعة ، فاضافت :

ــ دون ان تتبع خطواتي طبعا ..

وسمعت في تلك اللحظة صوت قدمي امها ، فركضت كلماتها :

ــ لقد جاءت امي .. لا استطيع ان اتابع حديثي

ــ اذن سأتصل بك غدا الساعة الخامسة .. هل تمانعين ؟..

ولا تذكر انها وافقت او رفضت ، كل ما تذكره انها اعادت سماعة الهاتف بسرعة الى مكانها ، وركضت الى غرفتها ..

غدا الساعة الخامسة ..

ــ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

لم تصدق فرحتها ، لم يياس الشاب الاسمر اذن ، لقد حاول مـن جديد ، ورغبت في ان تغني ، وان ترقص ، وان تمزق كتبها ، وان تدور حول نفسها حتى تدوخ .. ووقفت امام المراة .. لقد انتصرت على امها ..

واستيقظت في راسها صور كثيرة من حياتها الماضية ، وعاد اليها صوت احدى رفيقاتها :

ــ ان من لم يعشق لا يعرف الحياة

وارتسمت امام عينيها صور واضحة للصبية الشقراء التي سمحت للشاب الاسمر بتقبيلها في الفيلم ، وسمعته يقول :

ــ الحياة حرام بدون حب

ورغبت في ان تؤمن بما كانت تقوله لها زميلاتها في المدرسة ، بل لقد شعرت بانها واهمة عندما كانت تعتقد بان مثل هذا لا يحدث في غير السينما وبعض القصص والاشعار الموضوعة .

وتذكرت يوم رفضت ان تقرا كتاب شعر لنزار قباني عرضته عليهـا احداهن من قبل ، وصممت ان تستعير هذا الكتاب ، فهي بحاجة لان تعرف اشياء كثيرة خارج حدود بيتها المغلق .

✶

صباح اليوم التالي كانت بها لهفة لان تراه في طريقها الى المدرسة ، كان بها شوق لان ترى في عينيه فرحته عندما ستبتسم له . وكان واقفا عند المنعطف يلف سلسلة صفراء رفيعة على اصابعه ، وحاولت ان تبدو طبيعية ، فلم تستطع ، لقد شعرت بانها ترتبك ، وان اصابعها ترتجف ، وان قلبها تزداد ضرباته بشكل لم تالفه من قبل ..

ــ وكيف تعرف الواحدة انها احبت ؟

ــ تزداد ضربات قلبها .. وتضطرب حركاتها .. وترتبك .. اذا رات شخصا تشعر انها بحاجة اليه

ونظرت اليه .. استطاعت ان ترى فرحته التي ازهرت في عينيه عندما ابتسمت له ، حتى انها رات فيه شابا خجولا ، وصورة قريبة الشبه من ابيها ، وسمعته يقول :

ــ الساعة الخامسة ..

فاغمضت عينيها .. وضمت الى صدرها كتبها .. وتابعت طريقها .. لكنها لم تسمع وقع اقدام تتبع خطواتها هذه المرة .

ولم تعد تشعر منذ ذلك اليوم انها بحاجة لان تصغي لثرثرة معلمتها

البدينة .

وانتظرت الساعة الخامسة كأن زمنا طويلا مر امامها . كانت لا تصدق انها ستحدثه بما في قلبها من هموم ، وانها ستستمع الى شكواه ، بل انها لم تصدق ان انسانا سيفهمها بعد ابيها .

واعترف لها بكل شيء عن حياته .. اخبرها بانه يعيش مثلها مع امه في بيت واحد بعيد عن بيتها ، وانه فقد اباه ايضا منذ الصغر ، وان اخوته يعيشون مع ازواجهم . كان واضحا لا يحاول ان يختبىء خلف اي ستار ، ورات نفسها منطلقة في حديثها عن ماساتها ، كانت تنثر اسم ابيها في كل جملة تقولها له ، وكانت ترغب لو انها تتكلم سنين طويلة دون ان تسكت ، لكنها لم تستطع ، فقد كانت امها تحدق فيها بعينين ذئبيتين .

وتواعدا في الخامسة من مساء الغد .. واصبحت الساعة الخامسة موعدا لحديثهما كل يوم .. وصار الهاتف شغلها الشاغل ، تركض اليه كلما سمعت رنينه ، وعاشت فترة حلوة .. لم تعد تسمح لامها ان تسرق السماعة من يدها ، لم تابه لصياحها ، لم تعد كلماتها تذبح قلبها كما كان يحدث لها من قبل .. لاشيء غير حديث ناعم كالحب .

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

ودعاها الى بيته ، فلم تجسر ان تذهب ، وكرر الدعوة في ايام اخر .. ثم الح عليها صباح هذا اليوم ، فدلها على بيته ، وعين لها مكانه بالتحديد ، وقد عرفته .. انه قريب من بيت خياطتها ، ومدرستها تقع على طريقه .

وصممت ان تذهب ، دفعتها رغبة لان تراه عن كثب ، وترى شفتيه تتحركان بحديث ينسيها كل ما لديها من هموم ، فوعدته ، وقالت :

ـ ارغب في ان لا تكون امك في البيت ، اني اخجل ان اراها

ـ لا عليك .. سأتدبر الامر ..

ـ الساعة الثالثة بعد الظهر اذن ..

وهربت من مدرستها في تلك الساعة ، واتجهت الى بيته حاملة كتبها القليلة .

كانت تعتقد بان من يراها يعرف انها ذاهبة اليه ، كانت حذرة تراقب كل من يمر بها ، وكانت فزعة من مجهول ينتظرها في بيته .. بل كانت الف فكرة تموج في راسها الصغير .

ولمحت بيته الاصفر ، فاضطربت .. وارتبكت ، وخيل اليها بانه يراها من احدى النوافذ المغلقة ، ومع ذلك فقد كانت خطواتها متزنة تتقدم باتجاه بيته ، وقبل ان تفكر بامر الباب سمعت صريرا ، ورأت الباب يفتح ، وشبحا يقف وراءه ، فادركت لتوها ما يقصده ، والتفتت وراءها لتتاكد من ان انسانا ما لم يلحق بها ، واقتحمت المستطيل الاسمر .. وشعرت بضربات قلبها المتزايدة ، وبرجليها المرتجفتين ، واحست انها تكاد تختنق ، وانها تذوب ، وان نارا قد اشتعلت في جسمها ، وان قلبها يغوص في اعماقها ، وان اصابعها ترقص فوق الكتاب الذي تحمله ، وانها لا تستطيع ان تنظر اليه ...

لكنها سمعت صوته عندما قعدت امامه دون ان تفهم شيئا . كان مضطربا هو الاخر لا يعرف بماذا يتكلم : فسالها اسئلة تافهة ، وحدثها حديثا ضائعا ، وكانت تهز له راسها ، وتسرق نظرة الى عينيه بين الحين والاخر .

وزايلها اضطرابها بعد قليل ، فشاركته حديثه ، ولم تعد تسرق النظر الى عينيه ، كانت تتأمل وجهه الاسمر الشاحب ، وشفتيه الرقيقتين ، حتى انها رحبت بمرافقته لتتفرج على بيته عندما طلب منها ذلك .

ودخلت الى غرفته .. فابتسم لها الهاتف .. وشعرت في تلك اللحظة بان حياة جديدة تجري في عروقها ، وقعدت بجانبه على السرير ... كانت تحاول ان تبدو طبيعية ، وان تخفي اضطرابها من جديد ، وان لا تعتقد بانه يسمع ضربات قلبها .. ومع ذلك استطاعت بعد قليل من قعودها بجانبه على السرير ان تبدو كأمراة تعرف اكثر من شاب واحد ، حتى انه سألها عندما كان يمسح بفمه خدها الايسر :

ـ هل احببت احدا غيري من قبل ؟

فهزت له راسها ، وسمحت ليده ان تغيب تحت ذراعها ، ثم مالت حتى وشوش شعرها طرف وسادته .. وكانت تشعر بان كرامة امها تموت تحت قدميها عندما قبلها ...

ـ لا تعجلي في ذهابك .. انت تعبة .. وبيتك بعيد ..

✶

لا لم يعد بيتها بعيدا ، انها تراه الان امامها بظله الثقيل ، ولونه الازرق ، وشبابيكه الخضراء ، تراه بشكل لم يثر قرفها من قبل كهذه المرة .

ووقفت ببابه الكبير ...

انها تشعر بان عصفورا صغيرا ينقر قلبها ، وان كل خلية في جسمها تحتضر ، وان رجليها لا تقويان على حملها ، حتى انها تتمنى لو يتقدم منها اي رجل كان ، ويشيلها على يديه صاعدا بها الدرج ..

ولكن هل يعقل ذلك ؟..

وتحاملت على نفسها ، واستندت على الحائط .. ثم صعدت ... وفتحت الباب داخلة الى المنزل بطبيعتها الهادئة ، وخطواتها المتزنة ، ولم تعجب من امها عندما سالتها بوجهها المتغضن :

ـ اين كنت طوال هذا الوقت ؟

بل كذبت عليها :

ـ كنت في المدرسة ..

ولم تدعها تتم جملتها ، فزرعت الغضب ما بين حاجبيها ، وقالت بصرامة قد الفتها :

ـ الهذا الوقت ؟

ـ اجل .. فقد مررت على بيت سلمى في طريقي ...

وصمت اذنيها عن ثرثرتها المعتادة ... وتقدمت من الهاتف .. وادارت ارقامه .. وهمست :

ـ آلــو ..

ـ .....

ـ لقد وصلت ...

ـ ....

ثم اتجهت الى غرفتها .. وصفقت الباب وراءها .. وارتمت على سريرها كتلة من اللحم ......

اللاذقية

خالد الشريقي

قضية الاتجاه في ديوان :

أغنيات مصرية

بقلم عبد العزيز عبد الفتاح محمود

ان يرتبط الشاعر بقضية .. قضية انسانية .. تلك هي اولى المسائل الهامة التي ينبغي ان يعتنقها الشاعر ليعبر عنها بصدق في قصائده واغانيه. ذلك ان الارتباط بقضية معناه ان الشاعر له دور يؤديه في الحياة ... يعيش في تيارها .. في ديمومتها .. في غابتها الحقيقية كما يقول الشاعر « الكسندر ياشين » : ينبغي ان نعيش نحن الشعراء ونغني - لا في الحدائق .... او خلال الايام الرتيبة الظليلة - بل في الصدق العنيد ينبغي ان نذهب .. مغامرين في طرق الغابة الحقيقية » .

وليس معنى ارتباط الشاعر بقضية .. قضية محدودة .. ان تضيق تجربة الشاعر حتى لتقتصر على قصيد يصور الضحايا .. ويعلو فيه الغبار .. وتتشابك سنابك الخيل .. وتدوى المدافع . بل ان هذا وجه من اوجه الشعر الكفاحي .. وربما كان اكثر عمقا وتأثيرا لو كان اكثر نداوة والصق بالعواطف الانسانية كالحب والرغبة في الحياة . ان في قصائد ناظم حكمت ... ولوركا .. ونيرودا ... وغيرهم من شعراء الحرية في العالم دليلا على اتساع التجربة .. على رحابتها وعمقها .. وتعبيرا واضحا على مدى ارتباط الشاعر بقضية .

من هذه الزاوية اريد ان ادرس ديوان « اغنيات مصرية » لصديقنا مجاهد عبد المنعم مجاهد . ما مدى ارتباط مجاهد بقضية ؟... قضية انسانية تستحوذ على فكره ومشاعره . نسارع فنجيب ان مجاهد متشبع بروح العصر الحديث لكنه غير ملتزم لقضية معينة .. ان مجرى شعوريا يستحوذ عليك بعد سماع قصيدة لمجاهد يعطيك طابع هذا الشعر - ليس طابعا في الاتجاه بقدر ما هو طابع في الصياغة - على شرط ان تعايشه .. تقرأه على مهل وبتأمل . انه ليس مستعصيا ولكنه يحتاج الى اكثر من قراءة حتى تعطي حكما سليما بعد تذوق حقيقي. وهنا التقى الى حد ما مع رأي نزار قباني في شعر مجاهد « ربما كانت طريق مجاهد متوحشة ، كثيفة الطحالب ، غير مألوفة الاقليم لكنها طريق على كل حال .. انه يحفرها بضلوعه واظافره .. وريش اجفانه .ونحن مع كل فاتح مغامر ... مع كل من يضيف ولو حصاة صغيرة الى بناية القصيدة العربية .. اما المتسكعون على طرقات الاخرين .. المتنفخون بمحاصيلهم وخيراتهم ... فلن ينظر اليهم تاريخ الادب الا كما ينظر علم النبات الى دودة القطن » (1)

لنتصفح الديوان مجرد تصفح .. ولنقرأ تجارب مجاهد التي لم تنشر فيه . سنجد منذ الوهلة الاولى ان الانسان هو محور شعر مجاهد . البنت التي ولدت ميتة - الذين لا يموتون .. قلبها والفرحة .. والاحزان .. عندما تحب الفتاة المصرية .. ذوبان الثلوج ... رجل من الداخل ... الخ ... الانسان في مستويات حضارية معينة ... وفي مستويات طبقية مختلفة . ولكن اية طبقة يرتبط بها مجاهد ؟ هل نحس انه ينفعل مثلا بقضية الفلاح او العامل المصري .. بحيث يتغنى الامه وامانيه ... ويطالب بحريته .. ويثور من اجل وضعه ؟ .. الى الان لا نرى ان مجاهد تخلى عن وضعه كشاعر من الطبقة الوسطى .. فهو ينظر الى الطبقة الدنيا من خلال مفاهيم واحاسيس الطبقة الوسطى .. انه مثلا لا يهتم بالدرجة الاولى بوضعية عبد الجبار في السلم الاجتماعي .. انه يقرر فقط في قصيدة « توحيدة » ان عبد الجبار : مسكين .. وان توحيده ليلتها نصف جنيه . لكنك يا عبد الجبار لا تملك حتى قوت نهار .. » ان مجاهد يحدد الوضع الطبقي لعبد الجبار لكنه لا ينفعل بقضاياه الطبقية الرئيسية. ان عبد الجبار في القصيدة يتشهى الغانية، يراقبها.. لكنه لا يلتفت الى قوت النهار .. هكذا نشعر في قصيدة مجاهد ..

وهنا ينبغي ان نحدد نوعية التجربة .. لا يكفي ان نضع التجربة في اطار انساني .. اننا لا نحرم عبد الجبار من ان يحب لكننا ايضا لا نود له ان يجوع .. ربما يكون الحب كالخبز بالنسبة لاي انسان في الطبقات البرجوازية .. لكنه من المؤكد ان الخبز اهم بالنسبة لعبد الجبار حتى لا يموت كتوحيدة الغانية الى اصابتها الكارثة ففقدت الحب والخبز وفقدت الحياة .

وليست رحابة التجربة ونداوتها التي اشرنا اليها في اول هذه الدراسة معناها تزييف القضية .. لا بل لا بد ان نلتزم الصدق في التعبير عنها التزاما نابعا من واقع التجربة ذاتها وموجها في نفس الوقت. قد يثير البعض سؤالا هو : كيف يتخلى الشاعر عن طبقته ؟ يكفى ان يعبر الشاعر عن طبقته .. وهنا لا بد ان اضيف شيئا هاما : - لا يكفي ان يعبر الشاعر عن طبقته فحسب .. انه في هذه الحالة مجرد شاعر قد يختلف عن شاعر اخر من حيث الجودة والاصالة الفنية ، ولكن في حدود طبقته .. اما الشاعر الخلاق . الشاعر الانساني ... فهو الذي ينبع شعره من ثورية .. من رغبة في التحرر والانطلاق ... من تحطيم القيود نحو عالم افضل . ان الشاعر البرجوازي الذي تنعكس في شعره الام الانسانية ، وتظهر في مرآته عفونة طبقته وتفسخها ... شاعر تخلى عن طبقته ليعتنق قضية طبقة عريضة قضية الجماهير الراغبة في الحرية .. في العيش .. في السلام ...

من هنا نحكم على شعر مجاهد بانه لم ينبع من ثورية لانه لم يترجم بعد عن واقع الجماهير واحلامها ورغباتها .. وان كان قد اتسم بالثورية من حيث الاداء . وبقى بعد ذلك مجاهد الشاعر الذي يؤرقه الحزن والانتظار في قصيدتي : « الذين لا يموتون » والذين احترقت شموسهم » .. والذي يعبر عن احلام الفتاة المصرية المراهقة في قصيدتي : «والله اشتقنا يا زين »و « عندما تحب الفتاة المصرية » .. والذي يستجيب لداعي الوطنية والحرية في قصيدتي« الاودن والوجه الاصفر » و « من بور سعيدي الى جندي في الاسطول السادس » .. والذي يحزن لعيال القرن العشرين حين يوأدون قبل الميلاد بفعل الذرة .. واخيرا مجاهد الذي يعبر عن تجاربه الذاتية في الحب .

هو اذن مرتبط بقضية من خلال مفاهيمه واحاسيسه العامة ومن خلال وضعه الطبقي ، لكنها قضية غير محددة .. استطاع مثلا ان يعبر عن السخط والحب والحزن والقلق .. لكن ما هو الهدف الثوري الذي

(1) الاداب عدد اكتوبر ١٩٥٧

يتراءى من خلف هذا السخط والحب ؟؟ ما هو التطور الذي اندفع اليه الشاعر والمجتمع من خلال الحزن والقلق ؟؟ ما هو الدور الاجتماعي والسياسي الذي يؤديه الشاعر من خلال تجاربه ؟؟

اننا نريد ان نحس هذا الدور .. ان ننفعل به في قصائده .

لا يكفي ان يعتنق الشاعر قضية .. ان يعبر عن طبقة ... بل لا بد ان نشعر بالدور الذي يؤديه من خلال اعتناقه لقضيته .. من خلال التعبير عن طبقته .. وبمناقشة الدور الذي يؤديه الشاعر نعرف ان كان تقدميا او غير تقدمي.. انسانيا او غير انساني . ومجاهد لم نتبين في شعره الدور الذي يؤديه من ناحية مضامينه لهذا نحن في حيرة ازاء الحكم عليه .. على شعره من وجهة نظر ثورية ... يكفي ان نقول : ان مجاهد وقف عند حدود طبقته ولم يعبر عنها في ثورية خلاقة . قد يفهم من هذا الكلام انني انظر بمقياس ضيق الى شعر مجاهد .. قد يفهم بالتالي انني أثير هجوما لا داعي له ما دام مجاهد لا يعتنق هذا المفهوم عن الشعر او لا ينشد الواقعية من وجهة نظر اشتراكية ثورية كما انشد ... ربما يكون هذا .. من هنا اقدم نموذجا من شعر ناظم حكمت قرأه مجاهد كما قرأته .. أسوقه لمجرد الدلالة على رحابة التجربة في الشعر الواقعي الاشتراكي .. وبديهي ان هذا لا يعني انني او مجاهد .. او غيرنا من الشعراء سيقف عند حدود اللقطة التي التقطها ناظم او انه سيجمد شعره على قاعدة الى الابد . يقول ناظم في رسالة الى زوجته وهو في السجن :

لو ارسلت لي مدينتي .. استانبول
بواسطة المبعوث السيد نوري
صندوق عروس .. صندوقا من السرو
وانت ... لو خرجت انت من داخله
فساجلسك على حافة السرير
وساضع تحت قدميك جلدي المخيف كجلد الذئب
وسابقى امامك خافض الرأس .. معقود اليدين
وساتأملك ، آه يا فرحي ، ساتأملك مسعورا
كم انت جميلة .. يا الهي .. كم انت جميلة
ففي ابتسامتك هواء استانبول وماؤها
وفي نظرتك صبابات مدينتي
ايه يا سلطانتي .. ايه يا مولاتي
لو انك سمحت .. لو تجرأ عبدك ناظم
فسيكون كمن يتنشق ويقبل استانبول على خدك . (1)

في هذا النموذج نرى عواطف الشاعر السجين يصبها في رسالته الى زوجته .. ويربط بين حبه اليها والى مدينته في تلقائية وعفوية ... وتحس في تعبيره الصدق والعمق ونداوة الشعر .. اي انفساح للتجربة اكثر من هذا ! ومع ذلك فناظم من خلال النموذج لم ينس القضية التي سجن من اجلها .. انه لم يهتف بشعار .. ولكنه عمق احساسه في تجربة .

ان الثورية التي اتسم بها مجاهد في ادائه تتناقض مع مضامينه التي يصبها في هذا الاداء .. ان مجاهد بحق شاعر له فضل كبير في تطعيم شعره بتراكيب مصرية .. انه يجرب ابدا وباستمرار قوالبه ... وتراثنا الشعبي زاهر بتناقضاتنا .. بنضالنا .. لقد خلد تراثنا الشعبي وخاصة الموال اعذب قصص الحب والنضال .. لقد رافق المقاومة في ازماتها .. في استمرارها .. في هزائمها وانتصاراتها ..

ان هذه الثورية ستفقد كثيرا من قيمتها اذا لم توجه المضامين وجهة خلاقة . وجهة ثورية لترتبط بالقاعدة التي يحاول مجاهد اقتباس قوالبه وتراكيبه منها .

هنا سيتم التجانس بل التكامل بين الشكل الذي وجده مجاهد ووضع يده عليه وامن به .. والمضمون الذي يفتقده مجاهد او بالاحرى الذي لم يوجهه بعد وجهته الثورية .

لننظر بعد ذلك ومن خلال زاويتنا – نظرة تطبيقية الى الديوان ... متتبعين المسار الزمني لتجاربه .. سنجد ان تجاربه الاولى وخاصة قصيدتي : « هي ومدينتي » .. و « اغنية لعينيها » تتجهان اتجاها واقعيا سليما الى حد ما :

وفرشتدربي..يانبع حبي.. بعيونك المخصوضرة.. تلك التي شربت حياة القاهرة . كان مجاهد يحس المدينة ككل .. تناقضاتها في وجدانه وذهنه غائمة مندمجة لكنه ينطلق من القاعدة الشعبية التي ارتبطت اكثر في وجدانه فيخاطب حبيبته :

لكن صديقتي الحبيبة .. حقا – مدينتي الحبيبة .. تلد الفساد وترتشي وتضم الاف اللصوص ... تضم الاف اللصوص .. لكن صديقتي الحبيبة ما زال فيها ابرياء وطيبون .. تلك الملايين البريئة . وعيونهم كعيونك المخصوضرة .. تلك التي شربت حياة القاهرة . ما لبث التناقض ان ظهر هنا في شكل حاد : طيبون في جانب.. ولصوص في جانب اخر .. وكانت العفوية في ربط الحبيبة بالمدينة موفقة الى حد ما وواضح ان مجاهد يريد الارتباط بشيء .. المدينة على الاقل .. المدينة التي ترمز الى قضية ..

وفي قصيدة « اغنية الى عينيها » كاد مجاهد يعتنق قضية محددة ... تحس هذا من شفافية كلماته .. كاد يعرف الطريق التي اشار اليها في قصيدته السابقة : « يا عمري الاتي اذا اتضح الطريق » ان مجاهد في « اغنية لعينيها » يعيش تجربة قاسية .. يعرض فيها الضياع والازمة .. ويحس التناقض والضغط الاجتماعي.. وينشد الامل .. والسلم :

اني ساصنع من عيونك اغنية .. خضراء في لون السلام . كلماتها فيها حياتي المضنية .. لكن بها يا طفلتي .. نغم يشع بفرحتي .. اين الحياة لنا .. والدرب والظل الوريف .. والمنحنى »
وتسكعي فوق الرصيف .. وهزالنا .. لكن به آمالنا
اني ساصنع من عيونك اغنية .. يا غنوتي .. فيها حياتي الاتية .

انك تحس ان مجاهد يكاد يلتزم من خلال هذه السطور اتجاها ... يكاد يرتبط بقضية معينة .. لكن هذا الموقف يتبدد شيئا فشيئا كلما تقدم مجاهد من مساره الزمني ، وبالقدر الذي اندفع فيه مجاهد يبحث عن القالب الذي يصب فيه شعره .. بنفس هذا القدر بدأ يفقد الاتجاه..

ان شعر مجاهد له طابعه الخاص من حيث قوالبه وهذه حسنة من حسناته وميزة من ميزاته .. لكن ليس له طابع خاص في الاتجاه بحيث اصبحت مضامينه تتراوح في اتجاهات عدة .. ورأيي ان يكون للشاعر طابعه ايضا في الاتجاه .

ولو تخطينا بعض التجارب سنجد ان الشاعر يرتبط بالقضية الوطنية في قصيدتي : «الاردن والوجه الاصفر» .. و «من بور سعيدي الى جندي في الاسطول السادس » وبالقضية الانسانية العامة في « البنت التي ولدت ميتة »

---

(1) من شعر ناظم حكمت : ترجمة الدكتور علي سعد

وهذه القصائد صدى للشعور الوطني الجارف الذي يسود منطقة الشرق الاوسط وللروح السلامية التي بدأت تنادي بتحريم الذرة واستخدامها للبناء لا للتفجير والتدمير.

وهذا الاتجاه الوطني الذي سار فيه مجاهد في هذه القصائد يختلف عن الاتجاه الذي سار فيه في قصيدتي : هي ومدينتي.. واغنية لعينيها في هاتين القصيدتين تقارب مجاهد من الاتجاه الاشتراكي .. بدأ يخطو نحو الواقعية الاشتراكية وفي قصيدتي « الاردن » و « من بور سعيدي » تحول شعره الى المسألة الوطنية الصرف .. وان كان محمود في القصيدة الاخيرة عبر عن وضع الصياد الحر في المعركة ورسم مجاهد وضعيته ، لكنه رسم مسطح فيه شيء من الصنعة. وهناك فرق ضخم بين الوطنية منوجهة نظر اشتراكية والوطنية من وجهة نظر عامة . هذا اتجاه ... وتلك اتجاه اخر .

واحب ان اقف عند رائعة مجاهد : « البنت التي ولدت ميتة » .

فمجاهد انفعل بضراوة المستقبل تحت وطأة الاشعاع الذري .. وهذا الانفعال ناتج من ضراوة الماضي البشع المتمثل في نجزاكي وهيروشيما .. وضراوة الحاضر المتمثل في القواعد والتجارب المذهلة ... ان مجاهد يضع نموذجا لما يمكن ان يحدث لكل طفل .. طفلته التي ولدت ميتة .. التي لم تبتسم .. لم تر النور .. لم تر الحياة .. انه يبدأ من نقطة انطلاق مثيرة .. مفزعة :

ولدت طفلتنا ميتة كالثلج ..

ثم يصب مجاهد تجربته بسيطا وعفويا وانسانيا : تجعلك تحس ان ابنته هي ابنتك وان تجربته هي تجربة الملايين الذين يهددهم الاشعاع .. انها قصيدة سلامية رائعة ارتبطت بروح العصر الذي نعيش فيه ... تدافع عن قيمة الانسان وحتمية وجوده .

وتقرب من هذه القصيدة في انسانيتها قصيدة « ذوبان الثلوج » انها دعوة الى الحب .. الى ذوبان الجليد لتسود العواطف النبيلة علاقة الناس غير ان التجربة هنا ليست واضحة مثل تجربة البنت التي ولدت ميتة » وان لم يمنع هذا من نداوة التعبير وانسيابه وصفائه في روعة وصدق :

اقبل نضجت حبات العنقود بايدينا   انا اشربناها من دمنا وروينا
ارض محبتنا حتى نضجت عنبا ... كنا يوما نحن نزعنا الغضبا ..
قلبنا الارض ولم نترك فيها اعشاب عتاب ... طهرنا اضلعنا ...
اقسمنا نزرعها عنبا .. فلا .. ريحانا .. لا شجرا تؤتي ثمرا كرؤوس
- الشيطان

اقسمنا نسقيها الوجدانا .. لا غسلينا .. نسقيها فرحة ايدينا
امتدت من شوق ماقينا .

واذا اردنا ان نصنف القصائد الباقية في الديوان تصنيفا اتجاهيا سنجد ان هذا التصنيف يتم الى حد ما حيث تتشابه بعض التجارب وتؤلف تجانسا .. ولنبدأ بقصائد : زائر بعد منتصف الليل .. أغنية للفرح ... الاسمر عاد لاسمره .. وهي قصائد تتلاقى تجاربها حيثيعاني مجاهد الفراق وينفعل بلحظة اللقاء . ففي القصيدة الاولى نرى مجاهد قلقا حزينا يحن لطيف الحبيبة حين يزوره ويحزن حين يفارقه .. وفي الثانية يكاد يرقص من الفرح لعودة اخته من سوهاج حتى ان الفاظه في هذه القصيدة تكاد تتحرك : « الله .. الله على ليلتنا ... اختي عادت من سوهاج .. امي لونت الخدين محبة وابي ارسل بسمة حب... ضحك الشباك .... والباب هنا رقصت ضلفاته... غنى المزلاج ... فلقد عادت اختي من سوهاج.. وتلاقى قلبأبي فيعيني.. واخي زوج عيني حنانا .. وسهرنا عقدا ملفوفا في خيط محبته .. كل اطلع للعالم حبه.. فالله الله على ليلتنا .

أما في قصيدة : « الاسمر عاد لاسمره » فتاخذ مجاهد الدهشة حين يزوره صديق غاب منذ امد .. ويصور مجاهد هذه الدهشة المحببة الفرحة تصويرا رائعا :

الوصل انساني العتاب ... معذرة لوقفتي بالباب
اذهلتني... ما كان ظني ان تمر ...

وبعد ان يفيق من الدهشة يعبر عن فرحته في بساطة :

فرحت مرتين .. فمرة لانني رأيت صاحبي ... ومرة لانني لا زلت عنده في البال صعبت في عينيك .. فجدت بالسؤال .. فالف الف معذرة ...
لوقفتي بالباب .. فليس كل يوم يزورنا الاحباب ..

والقصائد الثلاث تلمس فيها النزعة الانسانية التي تنبع من الذات وتلمس فيها العواطف الحزينة .. والفرحة .. وتلمس فيها الصدق في التعبير ... وليس في هذه القصائد اتجاه عام ... انها احاسيس تعبر عن موقف ذاتي للشاعر .. اما قصائد : عندما تحب الفتاة المصرية ... كلمات عزاء للقلب ساعة الفراق .. عشاق المدينة .. اغنية بلا كلمات .. القصيدة الحزينة .. العيون المشدودة من الافق ... والله اشتقنا يا زين .. صاحبة الاقمار السبعة والمدينة انا والكحل وعيناه. فمضامينها كلها ترديد لمضامين الاغنية المصرية .. وكلها تدور حول الوصل والعتاب .. والبحر .. والشكوى .. والانين . والجديد فيها هو الشكل الذي كتبت به هذه القصائد ... وبعض التعبيرات التي خلقها مجاهد وتميز بها .. اما اتجاهاتها فهي نفس اتجاهات الاغنية العاطفية المصرية .

وهنا انبه مرة اخرى ان صياغة مجاهد تتسع لمضامين شعبية لها مدلولات اجتماعية ومع ذلك فمجاهد لا يستخدم هذه المضامين .. ولا يفسح المجال لصياغته حين يختار النماذج والتجارب التي تتجسد فيها مضامينه .

واري ان مجاهد وقف في مساره الزمني عند هذا الحد ... فالقصائد التي ابدعها بعد هذا الديوان تحمل نوعا من الاتجاه .. وهذه القصائد الاخيرة التي ذكرتها .. تقف بعض القصائد التي تحمل طابعا دراميا وسطا من حيث اتجاهاتها كتوحيدة .... وقلبها والفرحة والاحزان .. ورجل من الداخل التي لم تنشر في الديوان

في هذه القصائدة يصور مجاهد نماذج بشرية من خلال قطاعات عامة .. الحي الشعبي في قصيدة توحيدة .. والقرية المصرية في « قلبها والفرحة والاحزان » ... والشارع البرجوازي في « رجل من الداخل » .

سنجد ان علاقة الحي بتوحيدة علاقة جنسية :

« ما من مخلوق في الحي هنا الا يعرف توحيدة .. كل عيون الحي تراها تمشي خلف الكعب العالي ... تتمنى الغالي ... رنى الضحكة يا حلوة .. كل بنات الحي تغار تغار في الصدر اشتعلت من غيرتهن النار .. حتى عبد الجبار ... ذاك العملاق .. اما في الحي يراها يصبح مسكين .. كالفرخة شاهدت السكين » ..

هكذا انطلق مجاهد : توحيدة غانية الحي » .. ام ولدتها ذات مساء حلفت لن ياخذها منها الا «بيه»

وتتحول القصيدة حين يحب محمود « توحيدة » ومحمود هذا عامل

... ويتزوجان .. لكن بعد عام تأكل الالة يد محمود .. يده اليمنى » ويخيم الشقاء على دار توحيده .. « محمود عاطل .. باعت كل الفرش » لم يبق اذن الا جسدها :

وتناقل في الدرب الهمس ... ابتعدت عنها الجارات

نفرت منها كل صديقة ... حتى صاحبة الامس

وتنتهي القصيدة حين تموت « توحيدة » بفعل السل .. ويتحول الحي من عداء لها الى رثاء .

وقصيدة « قلبها والفرحة والاحزان » تحكي تجربة زينب التي مات زوجها في الميدان . لقد عاد اخوانه الى القرية فرحين بانتصارهم .. اما هو .. زوجها فقد ظل هناك .. وهي الان تبكيه ومع ذلك فهي فرحة بالانتصار ..

غير ان نهاية القصيدة لم تكن متوقعة اذ تخرج زينب الحزينة .. الصامتة الباكية لترقص في الزفة وهي تحمل ولدها محمدا على كتفها ... ان مشاركة زوجة ثكلى في الانتصار لا يعني ان تخرج على وقار الحزن .

وفي هاتين القصيدتين لا نرى انعكاس القرية او الحي على توحيدة او زينب الا بقدر ضئيل يقف عند الحدود الخارجية .. بعكس قصيدة « رجل من الداخل » فان الانعكاس واضح جدا ... ورغم ان التجربة مطاطة وفيها كثير من التفاصيل الا ان انعكاس الشارع البرجوازي من خلال ازمة العاطل تثير الاعجاب .. هي في نفس الوقت تحمل اتجاها من خلال النموذج الذي يعرضه مجاهد .

وبعد : لقد عرضت لقضية الاتجاه في ديوان « اغنيات مصرية » من جهة نظر ثورية .. حيث ينبغي على الشاعر ان يلتزم قضية محددة ... واحب ان الفت النظر الى جوانب اخرى في الديوان تحتاج الى بحوث منفردة .. حيث يناقش كل جانب على حدة .. نوعية التجربة عند مجاهد .. قضية التراكيب المصرية في شعره .. مجاهد الذي يجدد باستمرار قوالبه .

والمهم في بحث هذه الجوانب ان ننظر من خلال نظرة واقعية تجديدية .. وفي ظروف تاريخية وبلاغية جديدة ، ولا ننظر اليها من خلال مقاييس بلاغية قديمة .

ان مجاهد شاعر ما زال يعاني ويجرب .. وهو في كل معاناته وفي كل تجاربه يؤكد انه شاعر كبير ..

القاهرة

عبد العزيز عبد الفتاح محمود

باريس في الظلام

رسالة غائب الى زوجه هناك

●

باريس يا حبيبتي في قبضة الخريف
انشودة مخنوقة الايقاع في الكهوف
بالامس كان صيفها يعابث الشباب
والشمس تلقى عن سمائها السحاب
واسترخت الآمال في العيون
على ضفاف الليل تنسج الغد الحنون

وساعة الغروب يا حبيبتي تسلل الخريف
ملفعا بالغيم والضباب ، بالاشباح والطيوف

واستيقظت باريس في الظلام
مدينة مذعورة الاحلام
الصمت هومت خطاه في مسامع الدروب
وانفض دون ضمة الوداع سامر القلوب
وجنت الرياح تصفع الديار
وتعصر الوحيد عائدا بلا دثار

وانت يا حبيبتي مع الصباح تخرجين
مقرورة اليدين والساقين والجبين
ولثمة ابننا على الشفاه لا تغيب
وفي العيون الزرق همسة غضوب

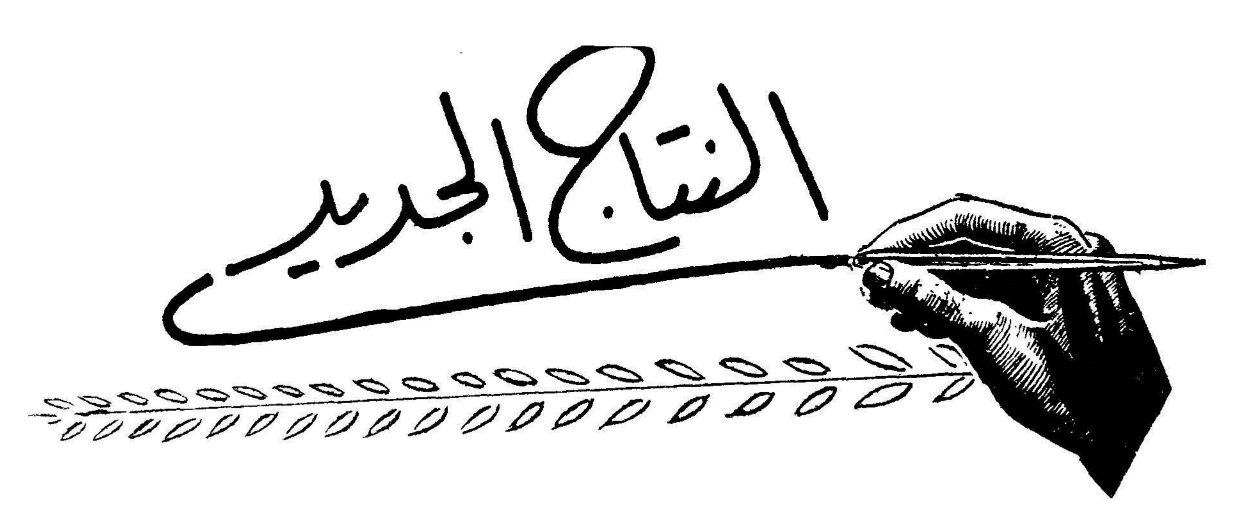
يعابث الاذنين طرف معطف دقيق
ويخدش الثلوج نعلك الرقيق
وانت تسرعين في العراء
فراشة تحن للضياء

وحين تحتويك في مسارب الكهوف مركبة
تستشعرين الدفء في حرارة الانفاس
وفي نهاية الطريق تبرز الصفوف
تشابكت انفاسها تطوق الخريف

والشمس في الذرى تخوض معركه
على سفوح الليل في بلريس في اوراس
لتحرق الاظافر التي تمزق الربيع
وتمنح العيون فرحة بلا دموع

غدا سنلتقي هنا اختاه
في « سان ميشيل » نرشف الحياه
نريح فوق شاطيء السين الجفون المنهكه
ونستعيد باسمين ذكريات المعركه

محمد البخاري



من وحي بور سعيد

ديوان شعر بقلم حسن فتح الباب

✶

لم أزر بور سعيد الا بعد سنة من المعركة .. زرتها في الخريف ... ورحت انقب عن بقايا الثقوب من الرصاص في البيوت والطرقات ، وقربت انفي منها لاشم رائحة الدم تعوى كالصدى الحبيس في الرماد ... وسرت فوق الارض التي جعلت من الابطال اعصابا لها ، وفي نفسي هدير من انفعال ضخم لا يخفت مع الزمن.. ان بور سعيد ستبقى على مدى الزمن عاصمة التاريخ .. عاصمة النضال .. ولو سرت في طرقات بور سعيد ستسمع لقدميك دبيبا خاصا لا تسمعه في اية مدينة ، ستحس في دبيب خطواتك عمقا .. ورهبة .. وتلفتا .. وطرقا مبهما على باب خفي ... وحينما تطالع وجوه الناس هناك .. سيشملك دفء الاحاسيس الجماعي فعلا ... ستحب هذه الوجوه التي ترنو اليك بكل صراحة الارض . .وحنوها .. واصرارها .. ستستمع من نظرات الاطفال صوت طلقات الرصاص التي ما خفت صداها بعد .. فالمجتمع الذي صهرته المعركة يلم كل ابعاده المنتشرة في وحدة انسانية كاملة ، ويذيب الاحقاد الطبقية ، والمشاكل الفردية الرخيصة ، ويحدد الطاقة الجماعية في دفعة متالقة ... وهذا ما ستشعر به بين الناس في ارض بورسعيد .. قبضة التاريخ ..

ولقد اندمج في هذه الجموع التي تولد على صوت هدير البحر ، وتموت .. وتدفن اصداءها في صوت هدير البحر .. عاش في هذا الجو البطولي الصادق الشاعر اليوزباشي حسن فتح الباب وهو الوحيد في شعراء مصر الذي سجل تجربته الواقعية في معركة بور سعيد ، ولهذا خرج ديوانه يرشح بدماء الابطال .. ، يتوهج فيه فجر الدم .. يسمع منه ما سمعه هو ، ودوى المدافع يتلاشى في صرخة الفدائيين ، وقد جنحوا جراحاتهم باجنحة من اعاصير البحر ، وهذا الديوان اعود اليه كلما زحمتني ثرثرة الحوادث اليومية البلهاء ... اعود اليه لاستشعر هيبة الانسان .. ووقار الفكرة ، فالمعركة توقظني من وثارة الكسل ، وتسمعني دوى الشموس في ركبها الناري الدائر .. نحو الغاية ..

والقصيدة الاولى للشاعر حسن فتح الباب في ديوانه هى قصيدة الجبانة وعندما تلفح وجهك انفاس جندي شهيد يحتضر على صدرك .. هل تهتز الا هذه الهزة ؟

ومضت تقاذفها الدروب ...
والريح .. جلاد .. كئيب ..
يـذرو رمـادي الدخـان ..
ويهيـل اكـوام التـراب ...
فوق الجراحات السـجينة ..

لم تتشح لمزارها .. غير السواد..
فادرؤها .. ابدا .. سـواد ..
ومن الشروق الى الشروق ...
ابدا .. سواد ...

✶

وينتقل بك ذلك الضابط المصري الذي عاش تجربة بورسعيد باعصابه ... فينحني فجاة بجناحه المخضب بدم الآلاف من الرفاق .. ينحني وهو في ثورة الصمت المتفجر على طفل صغير : « أبدا يسير .. ويضمه جرح كبير .. عيناه تلتقيان بالصمت الرهيب .. مشدودتان الى الفضاء» تمضى الجموع الى طريق الغائبين .. ويشق اسوار الغمام .. ركب العيون .. كمطارق الثار الدفين .. تهوي على الايدي الخضيبه .. بدماء من حفرت جدودهم القناه ..»

ويعجبني قول الشاعر بعد هذه الرجفات الراعدة عن اشباح ضحايانا الشهداء ... « اشباحهم نصبت مشانق للطغاة » .. هكذا تتمثل لنا ملامح التجربة بعد ان تستقر في سويتها الموضوعية .. ثابتة ثبوت الكلمة ... بعد عدة مراحل من اهتزازات الانفعالات المجردة ، وهي في ذهن حسن فتح الباب كضابط واقعي لا تأخذ وهلة الرومانسية المغلفه ، ولا تعنى بتوليد الافكار .. وانما تنصب كصوت قطره الدم على الرمل اللاهب .. فينقل لك الشاعر ذلك الصوت البعيد ، في اداء سهل مسموع النفس .. مكتفيا ببريق قطرة الدم .. عن بريق الالفاظ ...

ثم يلفتنا الديوان بعد ذلك الى البحث عن موقف الشاعر من التجربة موقفا مواجها ... فتجد انه منذ ان وقف على ارض مصر منتصب الجراح شامخ الدمعة ، عزيز الحزن .. منذ ان تلاقت احاسيسه الانسانية بشعوره النضالي الذي بثه فيه عمله كضابط مكافح ، منذ هذه اللحظة ، حتى قبل قيام ثورة مصر ، وحسن فتح الباب شقى بوظيفته ، فطبيعة الشاعر قذفته من فردية وظيفته ، واخرجته من دائرة الانانية البكماء ، الى دمعة مضيئة تتهدج على نبضها اجفان عيون رفاقه الطيبين البؤساء.. كان هذا الشاعر الضابط يكره الملكية ، واذكر انه في عهد الملكية قد طلب منه في عيد ميلاد الملك السابق ان يلقى قصيدة في تلك المناسبة ،في اقليم من اقاليم مصر .. فلم يفعل الضابط الحساس الواعي ، لشعوره الطبيعي الساحق ان شخصية الملك هي ارث الوثنية الفاسدة ، ولانه كان يسير في طريقه منغوم الخطوة مع خطوات اللاهثين المتعبين من ضحايا الاقطاع والفساد ، ولهذا فان حسن فتح الباب اذا نطق عن معركة بور سعيد ، ففي صوته كل ايجابية التجربة ... وخروجها عن دائرة اللمس

الذهني الاستحضاري .. الى ميدان الحقيقة .. حيث الارض ... والاشلاء تتناثر عليها كانها فلذات منها تتناثر .. كي تلتقي في الـدم المتعانق على التراب .. هناك .. حيث مرايا الجراح تعكس شروق الشمس ، وهذه هي فرصة الشاعر لايجابية حياته ، واتصاله مباشرة بالناس .. بقضاياهم .. لقد مشى حسن فتح الباب في زحام الدموع ... في سوق الالم بكل شجاعة المؤمن بغد جديد بهي .. وكان الشاعر في كل مواقفه الادبية ، انسانيا تمسكه الحياة في يدها كمنديل من ورق الزيتون .. تلوح به لمسافر غريب .. او تهزه لعائد غريب !! سواء فـي مواقفه الشاعرة الصادقة من حياة الصيادين ، او حياة الناس عموما ...

ولقد لاقى هذا الشاعر حربا عوانا من بعض شعراء مصر ، كعـادة الطيبين من الناس الذين ورثوا في ذاكرتهم السلالية صورة عن الضابـط بانه لا يحمل انحناءة الحب والرقة ، وسلامة الفطرة ، واشهد اللـه ان حسن فتح الباب انسان مؤهله الاول انسانيته الرحبة المتلاصقة بصدور الناس .. حتى اعدائه ... فليس في طبعه ذلك التجعيد الاسـود الذي يحدثه دخان الحقد حين يتجمد على الوجه البشري ، وفي نفسه ... وشعره اسارير الريف المصري ساعة المغيب في فصل الخريف ،تحس الرياح تهز اغصان الصفصاف ، والموج يسرع في خطاه الطيبة ، والصمت يزفر من قلبه بكل هزات الاوراق المتساقطة من الشجر .. صورة هادئة ثائرة .. صادقة ... ثابتة .. متطلعة بعين السكون الى عاصفة خبيئة وراء غمامة بعيدة .. وسجية امينة لا تكلف فيها ، ولا دمعة مصنوعـة .. « وعاد الرفاق من المعركة .. واعينهم شعل كالشفق .. تنير الدروب.. لتسكب فوق الافق لهيب القلوب .. لهيب الدماء.. » ثم ... « خوض غمار الصاعدين ... بخصوبة الاحرار في احشاء من تضع الحياة »

الا انني لا يعجبني قوله .. « رياح الردى تقتلي كالحريق ... و ... يبنون للنور شم القلاع » .. وذلك لان الشاعر قداستوفى دراسة التجربة الشعرية في مرحلتيها، عند الكلاسيكية القديمة بطريقتها الابتداعية، ونحو الواقعية الصريحة صريحة النور ، السائرة مع الركب الى غدنا المنشود ، ولهذا تجد بعض رواسب الانشائية العتيقة المنهزمة في هذا الديـوان ، وقصائد « تحية الى بور سعيد وصوت الشعوب ، والمؤتمر الافريقـي الاسيوي الذي عقد في سنة ٥٥ بباندونج ، والصاعدون ، كل هـذه القصائد قد اضاع فيها الشاعر طاقته النفسية في تلميع ارضية الحجرات وطلاء الجدران ، مع انه كان حريا بسكنى النور لو فتح نافذة واحـدة بسيطة يدخل منها الربيع .. والحب .. وتفرشها الشمس بوسائـد وثيره .. او يتركنا نسكن الارض كلها .. ونردد معه ما قاله في هـذه القصيدة الصاعدة التي هزتني : « المجد .. للفارسين بالدماء.. دوحة السلام .. والحياة » وعند مفترق الطرق بين آلام الاب وحنوه ، وثورته الحاقدة .. تتهدج دمعة الشاعر قائلة : « وساءلني في ابتهال الصغير .. وقد ارعد الافق من حوله .. وغام الضياء .. كأن السماوات قد اطبقت .... على روحه الغصة الساجية وريحا من الغيب ليست ترى .. تبدد احلامنا ... وتلفظها للضياع .. » ثم « اجل يا صغير .. هي المعركة .. تروى بلادي منها الدماء .. يريدون ان يغصبوا ارضنا .. يريدون ان يحرقوا دورنا .. يريدون ان يسلبونا الحياة .. » ثم ينتصب على ثغر الشاعر قسم الارض فيقول : « .. وباسمك .. باسم حقوق الصغار .. وباسم الحياة.. وحق الملايين في عيشهم.. يهب الدم الحر في صرخة ... تدوى كعاصفة من جحيم ... على قصفها غضبات الشعوب ... لتخرج دياري ابناءها رعاة السلام .. رعاة الحياة .. لترجم رمالي عداة الصباح ..عداة الحضارة والناقمين .. على فجرنا .. »

ثم يجري الشاعر بانفاسه الجوابه عبر الوادي الاخضر ويخاطب ابنه « بلادك مطرقة يا صغير .. لشعب من الشرق هبت خطاه ، تدق الـى الفجر باب المساء .. وتهوى صواعق تصمى الطغاة » ... وما اصدق هذه الصيحة التي قالها الشاعر بعد ان عاش تجربة بور سعيد ، فعاد الينـا من نهر الدم .. وخريره الاحمر يصبغ صوته ببحة الدم الملتهب « لينفسح الافق عن نورنا .. لنحفظ للعالمين السلام .. » اما قصيدة البعث ... فكنت ارجو من الشاعر ان يحذف منها بعض مقاطعها المتكررة في شعر الكثيرين .. مثل رفاقي الاحرار .. يا شعب الخلود ... ولكن تشفـع للشاعر في هذه القصيدة ما تنطوي عليه من قصة اوزيريس الذي « يبارك الحياة بالنضال والجهاد ... وينشد السلام .. ويصنع التاريخ بالسواعد الشداد ... لتشرق السماء في الوديان ...» بماذا ؟؟. « بالحب .. والسلام يا رفاق » .. حتى يسطع صوت احمس في القصيدة ... لانه « اليوم .. عاد احمس المحرر النبيل .. يطهر الوديان .. والصحـرا... والمياه ... ويفتلي بالثأر للعناه .. فلتنصبوا الجباه يا رفاق شامخات». الا انني مع ارتياحي لصعود صوت الشاعر بين الصخور ، وتسلقه بالصدى رؤوس التلال ، فان مأخذي عليه هو تكراره لبعض الالفاظ بشكل يثبت تأثره المستوحد بها، مثل لفظة «تفتلي.. والفداء.. ويرخص.. » كذلك لم تعجبني قصيدة « لا ينتهون ... » ولا اعرف كيف لم ينفعل شاعر كحسن فتح الباب بكفاح الشعب الجزائري .. ولا يصور من هـذه المعركة الا قصيدة متهالكة .. ضعيفة .. كقصيدة لا ينتهون .. انهـا اشبه بالنشيد المصنوع بسرعة لنيل جائزة مالية ، وكاتبها يرسم خطوط الجراح.. بينما تتلكع بين شدقيه « لبانة » بليدة ، ورجائي من الشاعر الصادق حين يصدر ديوانه الجديد « وجوه .. مصرية .. » الا يضع هذه الاناشيد المصنوعة بشكل متكلف ، فانها تقتل وحدة الديوان ، وتفزع خيال قارئه نعود الان .. الى هذه القصيدة المتوسطة في قدرتها .. وهي « أغنية الى قبرص » فلقد جعل الشاعر نداءها الاول « تفجـري ... تفجري .. بلحنك المنهمر .. ترددي اغنيتي .. من قلبي المنطـلق ... الى روابيقبرص .. وابشري ملهمتي.. بمطلع ضافي المنى .. لشمس حريتنا .. وموعد منتظر .. على سفوح الهرم .. بين السلام الاخضر .» فهذه النغمة التي تمثل اختزالية الشعر ... وان كانت طلقة .. حره .. الا ان صوت التجربة لم يتدفق منها بوضوح بل يخيل للقاريء ان الشاعر اختلق شخصية حبيبته القبرصية كما كانوا يصنعون الشخصيات فـي الشعر القديم ، بل كان الاصدق .. والاخلص .. ان يعكس الشـاعر احساسه بكفاح جزيرة الدم .. في عرض واقعي فيه جاذبية الواقع. ثم تقلب اوراق الديوان .. .فيبدهك عنوان قصيدة اسمها « حبة القمح » ولكنك تبلع مرارة الخيبة .. حينما تسمع هذه النغمة الكالحة ... (حبة القمح منذ بدء الوجود .. يا طلاب الجموع بعد الجموع) ثـم خدعة المستغل للمكدود « ومعين من الثرى .. والدموع .. » هـذا كلام أجوف ، لا دلالة له ، ولا ايماءة فيه ، واني مندهش كيف سمح الشاعر لنفسه الطليقة المغموسةفي دموع الناس ان يقول « يا سلعة المتسلطينا .. يا غصة للكادحينا يا ضلة للجائعينا » الا ان قصة القمح نفسها تثرى موضوعية القصيدة .. لانها تتسلل بالاجيال في معركة دائرة لا هوادة فيها للافـاق صـوت الحيـاة » ولكـن تكرار هـذه البطـانة وترتـاح قليلا لهـذه النغمة « باسـمك سـار الركب في دربه .. يحدوه للافاق صوت الحياة . » ولكن تكرار هـذه البطانة الموسيقية الاتية (انت الهدى .. للصاعدينـا .. انت السنى يجلو

اليقينا ...) مثل هذا يقتل القصيدة في نظري ، اذ لا داعي لاتخاذ ركيزة موسيقية يتكىء عليها الشاعر بعد كل فقرتين. ثم تقرأ قصيدة «خلف الاسوار ». فتسمع في قصيدة كان ينبغي ان تكون صادقة ... بسيطة تسمع غنائية علي محمود طه .. (يا ابنتي .. يا قرة العين .. ويا انس الفؤاد !! ويا حلم السهاد .. ووقاه ضعف ملتاع وشاك) .. هذا كلام مسحوب على وجهه ، بلا تطلع قسمات معينة ، واني اسف للشاعر الفنان حين يقول هذا المطلع البدائي ، لان الجو التقريري المباشر يسجن القصيدة. واظن ان الشاعر حسن فتح الباب قد تطور بعد هذا الديوان ، وسجل شعره خصيصة من خصائص الواقعية المصرية . فحياة الصيادين ... هو وحده الذي عبر عنها بصدق .. وامانه .. ويذكرني هذا التخصص الفني المبني على صداقة الفهم ، بالشاعر « هوتيوكريتوس » الذي عاش في صقلية عام ٢٧٤ ق.م. فلقد تخصص هذا الشاعر القديم في تصوير حياة الرعاة ، وعبر عن آلامهم .. وامالهم، وله قصيدة تاريخية اسمها (عيد الحصاد) تسمع فيها حفيف السنابل الخضراء .. ومزمار الراعي الذي ينبت منه ربيع اخضر يتموج بعبير اللحون ، ووقع خطوات الرعيان فوق المنحدر الاخضر ، فلانه وقف حياته الشعرية على قضية انسانية معينة ، ولانه احس بزمالته مع الرجال الصاعدين الطريق باغانيهم ، كل هذا يحدد اهدافه النفسية ، ويبرز ملمح التجربة في شعره ، وحسن فتح الباب في شعره الجديد ، يصور لنا ناحية من نواحي الصراع الجماعي في بلدنا ، وشعره هو ميعاد الفن مع الواقع. لقد رأى هؤلاء الصيادين واستمع الى شكوى مجدافهم في الهزيع الاخير من الليل ، ورأى شبكة من الشباك تخرج من قلب النهر مخضوبة الحبال بدماء قتلى ، وخرج اليهم فيزورق يتابعهم الدقة الخائفة والامل الكافي، كأن عين الغريق الذي لم ينته من الحياة بعد، فتسمع لاضواء الطريق البعيد، ووشوشات الضوء في المنازل النائية.. تسمع لكل هذا في عينيه غرغرة النور حين يغرق في جوف الليل... ويخمد فوق حاجز السكون.. كبقايا رماد من اغنية .. معذبة .. احترقت في فم من غناها لاول مرة..

وفي ديوان « من وحي بور سعيد » تطلع للكمال ، وسير وئيد للاتساق الا ان الشعر العمودي القديم على جزالته ، وغلاء ثمنه الورقي ، يشوه رسالة الشاعر الواقعي المتنقل بعدسته الملونة بطبيعتها من خندق به جندي جريح ، الى بيت تسعل فيه الحياة في طفل مريض ، الى مجتمع مزحوم بالايدي الملوحة للشمس فوق دخان المصانع ، وضجيج الالات ، ان الشاعر لن يجد الوقت النفسي الكافي ليعيش في القصيدة ويفعى برأسه داخل العمودية المرهقة ، لان العمل الفني لا ينبغي في حياتنا المتطورة ان يخضع لذاتية البيان ، وانانية اللفظة لان هذا يعطل انطلاق الوعي التجريبي، وينسى الشاعر مهمته الاولى الجدبة بل يدخله في قمقم الكلمات والقوافي لتبدو لك معجزة الساحر في الحبس وحده .. لا في الانطلاق !!.. والان .. ما هو الاثر الفني الذي احدثه ديوان من وحي بور سعيد في نفوسنا ؟.. ولنقسم الان المجتمع قسمين متوازيين ... القسم الاول هم الناس العاديون الذين يتلقون الحياة.. ويعكسونها في صدق والقسم الثاني هم الشعراء .. فالناس الذين قرأوا الديوان بدون دخل من غيرة ، او لسه من تنافس ، احسوا بما يستحق ان يحس به ، ولم يكلفوا انفسهم البسيطة عناء الحقد ، وتحديق العين الناقدة .. واعرف منهم رجلا مربيا بكى حينما قرأ قصيدة الجبانة .. اما الشعراء فمنهم الذي اعرفه جيدا لا يملك رصيد الفن في ذاته ، وليس فنانا اصلا ، وليس في تكوينه النفسي استقلال الطائر ، وشراعه الممدود وراء كلمة الريح ولكنه يدخل نفسه بالقوة في حياة الطيور ، وربما كان دجاجة شعرية لها جناحان ... وربما كان اوزة طيبة لها طول الجناح .. وريش الجناح ، وبيولوجية الجناح ، ولكنها لا تطير .. ولو سماها الناس باسم الطيور ! لا تطير اطلاقا الا لو وقعت من سطح منزل ... الى سطح منزل اخر » فتطير هابطة .. تطير بقوة جاذبية الارض للاوز والدجاج الطيب الهادىء ... ولله في خلق الشعراء والطيور شئون!

ومن الشعراء في مصر من اعرفه وجها متجعدا كوجه الضفينة الصامتة، ويقول لك الشعر ، وقد يكون في شعره بعض الانعكاس المضيء من اضواء الغير ... افلا ينعكس نور الشمس على الانهار الجارية .. وعلى مستنقع الطين ايضا ؟! وتحاول بطيبتك ان تنصفه ، فلا تجد فيه .. فيه كله ، من اول خلجة صوته الاصفر .. حتى ملامح وجهه اللئيم لؤم الدمل ،حتى نظرات عينيه التي تشبه آلام الافعى .. حين تتقطع في فحيح انساني بالنسبة لها .. وهو حقها ان تتألم كبقية الحيوانات هؤلاء الشعراء انهالوا في مصر .. وليس في طبيعتهم رحابة الفنان ، ولا صدقه ، وكم من شاعر رفع ذراعيه للريح ، واعتلى صخرة محدودبه..وقال في مسوح الزعامة : اني احبهم .. احب الناس .. الجموع .. العبيد .. قضايا الجراج والعرق .. وارهق اعصابه واستنفذ طاقته في الكذب ، وصناعة التجربة بمهارة ، معتمدا على انه هو نفسه محط الشفقة ، ولو تكشفت لله خلقية هذا الانساني .. نفسيته الفنية لزكمت نفسك رائحة الجيف من الام الجثث الميته في قبو ذاته .. واعرف شاعرا من هؤلاء قال لي مرة انه حين يدخل دورة المياه ، ويشم رائحة كريهة حادة يستشعر النشوة البالغة ، ويطرب لبلاغة تعبير المرحاض عن نفسه .. وله الحق ان يقول ذلك ، فالعفن يستطيب العفن !!

وفي مصر ايضا شعراء حقيقيون ، فيهم الرصيد الكامل ، وثقافة التجربة التي تنميها نفس غير حاقدة بميراث اجدادها ، فيهم بساطة الحب وبساطة الكراهية ، بدون مغالاة في الاحاسيس المتلوية كالافاعي السجينة في بئر الصقيع ، هؤلاء الشعراء هم تجارب الحياة الانسانية كلها ، وهم منصفون بمنطق النور والحب والثقافة الانسانية في ذواتهم الصريحة ، وهؤلاء حينما يقرأون لشاعر يتجنبون عنف الحقد ، ولؤم الانانية ، وضمور الذاتية التي يعكسونها حبا للناس ، وهم مردة البغض حقا ، وهؤلاء تعرفهم من سيماهم ، لان الشاعر ينبغي ان يعرف بوجه الحب والصفاء ورقي الذهن ، ونضوج الشخصية ، واستشراف الوعي الواقعي المصفى الى الابعاد ... ولكن يبدو ان سوق الشعر الواقعي قد فتحت كل مهلهل الذات ، اشعث شعر الذهن ، مجدول العصب على البغض واللؤم وفهاهة الحس والوجدان .. وهذا النوع من البشر لو احب ، فهو قلب متلون لا عهد له ، ولا ميثاق لمشاعره في العلاقات الانسانية عامة .. ولا في ميزان النقد خاصة ، لان قاعدة شخصيته مهزوزة.. متأرجحة ... وفي هذا فنه ... وتفوقه ..

« على مرايا المركبات .. وجوهكم اقنعة للشرفاء .. ايديكم التي يمد الشرفاء ... لثم جياع .. وسحاب المعدمين ، قد خضبتها .. ببيادر الحنطة في قاع التلال ، عالمنا يلفظكم يا شرفاء ... نحن على درب الكفاح ... نطرق ابواب الحياة، نسحق خوان الجموع ، بسطوة القيود ... »

هذه ابيات من قصيدة حسن فتح الباب ، في احدى ثوراته النفسية التي لستها بنفسي ، وحينما تقرأ بعد هذا قصيدته عن بور سعيد (لتصعدى) ستراتاح نفسك لما يقول « .. في بحيرة الدماء فجرك انبثق ... على الضفاف .. والدروب .. والوجوه .. » .. ثم « .. وغيضت من دمعها امراة .. وحيدها مل السوءال منذ حين : متى يعود من سفر .. ابي متى يعود ؟ » هذه نبرة انسانية صادقة ... ثم يعلو صوت الشاعر مخاطبا بور سعيد « ليرتفع منارك الجواب في البحار .. لترتفع على

المياه كل ساريه ، لتصعدي يا كعبة التاريخ للقمم ، يا مشعل الشعوب في كفاحها المجيد ، ... لتصعدي يا حرة الجبين ، ياراية القناة ... رفافه من بسمة الشهيد ، مجدولة من اعظم الجدود .. لتصعدي .. لتصعدي يا بور سعيد .. » اما قصيدة« انهم سيرجعون » فنغمتها الاولى « هناك .. فوق قمة الضياء ... في حدائق الافق .. تأملوا الابطال .. هذه دمائهم على الشفق .. تقبل الوديان .. والحياة بالفداء تنبثق » ... هذا لا يعجبني في نهايته ، وانا لا ارائي الشاعر ، فحكاية « الحياة بالفداء تنبثق .. » جملة مصنوعة مفتعلة لا حرارة فيها ، كما ان الصوت الانشائي التقريري في القصيدة يخنق رجفة الحس الكاتب ، فلا تسير مع الشاعر الا تحت « شمسية من الحرير الملون » لا ترمي عليك الا نصف ظل لانها هي نفسها لا صدق فيها ولا اخلاص .. كما ان حكاية « .. هيا الى الوادي الامين .. » ونجتلي انوار من اردوا هنا جحافل الظلام .. » لا تعجبني ولا تهز في شيئا غير راسي بالاسف ، الا انني اصبر على هذا الجو الكثيف الذي تطن فيه المراوح الصناعية للتهوية .. حتى استشرق هذا الكلام المريح .. « لا تخفق الشفــاه بالوداع .. انهم سيرجعون .... سيرجعون في الربيع ... والحصاد في الربى .. » وهكذا تتأرجح قدرة الشاعر بين الكلاسيكة المجهضة العتيقة ، وبين التحرر الطليق الكامل .. بين النغمة التقريرية المباشرة ، والصوت الطبيعي المرسل لمخاطبة الانسان ... والاشياء .. والجموع في بساطة الحب .. وصدق الثورة ... ويقيني ان ديوان الشاعر حسن فتح الباب الجديد الذي يتهيأ لاصداره بعنوان « وجوه مصرية .. » سيكون ناجحا .. وسوف يتجنب الشاعر هذه المحاريث اللغوية الباليه ، ويخرج للشمس تنوج جراح الانسان بتاج لا زركشة فيه ، وانصحه الا يتعجل الكتابة ، لان العمل الشعري يحتاج الى ثلاث مراحـل ... الاولى .. هي اللقطة الصادقة من الزاوية السليمة بعدسة ملونـة طبيعيا .. والثانية هي عملية التحميص الذهني في العقل الباطن للشاعر ، والثالثة هي الاداء النفسي الواقعي اللامس لب الحقيقة تحت ضوء الفن ، واخراج التجربة في صورة فنية اخاذة ، بعيدة الغور ، متآلفة الابعاد ، نشيطة النبضة ، تجمع بين صدق اللمسة الاولى ... وذكاء التصوير الانساني ، وروعة الصدق .. والبساطة ...

واني اهنىء الشاعر حسن فتح الباب على ديوانه « من وحي بور سعيد » وهو الديوان الوحيد الذي سجل معركتنا ضد قوى الاستعمار ، وهو ان كان لم يتراحب للافاق الانسانية الطليقة ، وهو وان كان لم يتحرر من الاوراق المنشأة للشعر القديم المصنوع ، فلا شك ان الشاعر كتبه في مرحلة تطور في مفترق الطرق بين القديم والحديث ، وعند حسن فتح الباب طاقة نفسية تؤهله لان يتفوق على ديوانه هذا في عمل جديد ...

وفي نهاية هذا البحث انصح له بعدم الانسياق تماما لانحرافات المدرسة الواقعية ، في فهم بعض الشعراء ، حفاظا منه على طبيعته الشعرية المستقلة ، بحيث تأتي لمسة التجربة وتكوين الصوره ، كما تنبع قطرة الماء من اعماق الصحراء ، لا كما يتمثلها هو في شعر الاخرين ... لو اعجبه شعرهم ..

يستطيع الشاعر الواقعي ان يصور الحياة .. والمجتمع .. بطريقته هو ، لان الواقعية ليست وليدة شاعر معين ، او منهاج خاص ، او مدرسة خاصة تصدر مراسيم الشعر !!.

الشعر كالحياة يا رفاق .. تنفسوا كما شئتم ، لا تزفروا الشعر او تشهقوا به تبعا لتعليمات معلم الرياضة البدنية حين يقـول صباحا : شهيق ... زفير .. كلا .. فالحياة اعمق والحب اكبر ، ورسالة الفن طليقة من كل قيد .. فقط .. اصدقوا .. وانفعلوا .. ولا تلهكم الشهرة الرخيصة عن ورع الحب الهادىء الساذج للفن .. والناس .. والطبيعة .. وعن التأمل الرحيم المتواضع ....

والى اصدقاء الحياه .. الى غارس نور الشمس في الارض تحية الشعر ، والى الشاعر صاحب ديوان « من وحي بور سعيد » قبلة الشمس على جراحه الكبيرة

القاهرة

محمد الجبار



ملحمة (وانج كوى ولى سيانج)

★

في هذا الوقت الذي تتقارب فيه الشعوب وتعقد الصداقات وتتبادل الثقافة والمعرفة ينقل الشاعر الاستاذ عبد العزيز خاطر ملحمة (وانج كوى ولى سيانج) وهي ملحمة من الادب الصيني الحديث لشاعر صيني معاصر اسمه (لي تشي) وعبد العزيز خاطر بهذه الترجمة التي نقلها عن الانجليزية يشارك في هذا التعاون الثقافي الذي نرجو ان يعم كل بلاد الارض .

ولئن كان نقل الشعر من لغة الى لغة اخرى نثرا امرا صعبا فـان الاصعب بلا شك نقله شعرا . وكل من عانى كتابة الشعر يعرف كيف تعب المترجم وسخر موهبته وثقافته في نقل عمل ادبي يتطلب منه المحافظة على المعنى الذي اراده الشاعر الصيني واخضاعه لفنية الكتابة الشعـرية العربية . وقد احسن المترجم اختياره للاطار الشعري الجديد الذي ترجم به الملحمة ، فقد اعطاه حرية نظم اتاحت له ان ينقل هذه الملحمة الجميلة دون اعتساف او اكراه وان كانت هناك بعض الماخذ التي تمس جودة الصياغة ولعلها راجعة الى ان عبد العزيز خاطر ينقل عمل غيره شعرا .

ففي عام ١٩٣٠ كان الجدب والقحط ، فهام الناس جائعين بـسينما (سوى) يقتني من الحرائر اكثر من تسعين والقمح في اهرائه نهبة الفساد فهو رجل غليظ القلب لم يرحم (وانج) العجوز ويأتي محصل الايجار عنده يطلب النقود فكان ان جرى لسانه بكل ما يمكن ان يقال :

« هناك دائما حياتي.. غير اني الان عاجز عـن السداد ففـي حيـاتي القادمة اكون ثور (سوى) او جاموسه ، فكان ان اجابه المحصل :

عليك ان تسدد الايجار

وهل تظننا ـ يخيفنا تهديدك ان نموت ؟.. »

ويموت وانج العجوز ضربا بالسياط ويعمل ابنه بطل الملحمه (وانـج كوى) عند (سوى) الا انه يلقى العذاب والجوع والاضطهاد :

« وبينما تكتظ بالحلوى القدور

في مطلع العام الجديد

فكوى لا يلوك الا مضغة النخاله
وفي الخريف يجمع المحصول في الاجران
لكنه ـ وكفه صغيرة هزيله ـ
ينهال فوق راسه ـ لبطئه ـ السباب
وعندما يرعى قطيع الماعز في الشتاء
فانه يعاني البرد من رهافة الرداء
ومن يديه الرخصتين تنزف الدماء
وكالثلوج يصبح الطعام قاسيا مر المذاق
وكم تمنى في المخيم لو يستطيع وقد نار
لكنما الاخشاب في الثلوج
قد بللت جميعها بالماء ... »

ويحب(كوى)الفتاة الجميلة ـ (لى سيانج) ابنة (لي تي جوي) الوحيدة وهي في السادسة عشرة الا ان (سوى) صاحب الارض الغنى يراهــا فيشتهيها ويعرض عليها الزواج الا ان الفتاة تزدريه ويدور حوار يكشف عن خبيئه(سوى) وصلابة هذه الفتاة الفقيرة الكبيرة النفس ويعلم الشاب وانج بهذه الواقعة فيزداد حقده على (سوى) وينضم الى الجيش الاحمر الذي يقرر الهجوم على (وادي المنزاليت) الذي يقيم به (سوى) الذي يعلم ان الشاب (وانج) على صلة بالجيش الاحمر فيأمر ان يعلق من وسطه ويضرب بافرع الصفصاف الغليظة . ويعرض (سوى) على (وانج) ان يخبره بما يريد وان يقطع صلته بالجيش الاحمر الا ان الاخير يتمســك بعقيدته :

« يا ايها السلحفاة العجوز
صعب عليك ان تغش هكذا ـ هذا الزبون
من بين كافة العباد ـ انت اخبث العباد
قتلت والدي .. صيرتني عبدا لديك
واكدح النهار والمساء طول العام
لكن طوال الخمسة الاعوام لم اظفر بأجر
في هداة المساء تطعم الدواب بالعلف
لكن تناديني انا : يا كلب
محقرا شاني فتدمى نفسي
في الزمهرير ليس لي ثوب وليس لي فراش
طوال هذه السنين ليس الا فروتين ملبسي ـ قديمتين
على مدار العام انت في نعيم
والسوط يرعاني انا بالضرب من يوم ليوم
ولقد رعاك اب وام
اتظنني انا لست مثلك ، لم يكن لي في الحياة اب وام .. »

وتهرع (لى سيانج) الى بعض رؤساء الجيش الاحمر تخبرهم بمـا حدث لينقذوا حبيبها فيهبوا الى نجدة زميلهم وتدور معركة قصيرة وينقذ (وانج) ويفر الاقطاعي (سوى) ويتغير اسم (وادي العنز الميت) الــى (وادي العنز الحي) ويتزوج العاشقان (كوى) و (لى سيانج) الا ان (سوى) يعود ثانية بعد ان ساعدته فرقة من الجيش الابيض علــى استرجاع اراضيه ومجده ويحاول مرة اخرى ان ينال (لي سيانج) الا ان هذه تبصق في وجهه وتفر هاربة وتمر الايام والزوجة الشابة ترسل البصر الى الافق البعيد حيث زوجها :

« هناك خلف بيتهم تحدرت اراضي
وخلف هذا الحصن راحت تلتوى التلال
وبعضها سوامق وبعضها خفيض
انى لها المضي كي تلاقي الحبيب
وفي جوار بيتها شجيره
غليظة الجذور غيرانها قصيرة
تهزها (سيانج) قد تقبضت من حولها يداها
تقول نبئيني .. اين قد يكون زوجي
وعندما ترى سربا من الاوز البري
يطير للجنوب
فلا حدود عندها في النفس للشقاء
« قالوا لنا ان الاوز يحمل الرسائل
فاحملن عني للحبيب هذه الرسالة
قد كانت الاشجار اذ غادرتها وشيكة النبات
والان قد تساقطت اوراقها الصفراء
وانت حتى الان عن ديارنا بعيد ... »

ويحاول (سوى) ان يتزوج (لي سيانج) بالقوة وبينما هو فـي سعادته الواهمة ليلة الزفاف تسمع طلقات الرصاص ويهرب المدعوون من رجال الجيش الابيض فيقبض عليهم وعلى (سوى) .. وتسمــع (سيانج) بالمعركة فتخرج لتجد زوجها (وانج) وسط رفاقه ..
وهكذا يعود الزوج الى زوجته

ومن خلال هذا الصراع الدرامي بين قيم هابطه وقيم صاعده وبين انماط بشرية تمثل الاستغلال والسيطرة واخرى تجاهد في سبيـل كرامة الانسان وحقه تقف هذه الملحمة الصغيرة عملا جليلا يوقفنا على صورة من صور الادب الصيني الحديث ذلك الادب الذي لا نعرف عنه الا الشيء القليل .

القاهرة **كمال نشأت**

رياح الدروب

للشاعر راضي مهدي السعيد

مطبعة دار المعرفة ـ بغداد ـ ١٣٦ ص

★

« ومع ان الشاعر راضي مهدي السعيد قد لا يسر ان يقال عنه انـه شاعر رومانتيكي ، فانه لكذلك . ولكن رومانتيكيته رومانتيكية معتدلة افادت من الفترة الكلاسيكية الطويلة التي مر الشاعر بها ، شيئا كثيرا .. ومن يعرف الشاعر راضي السعيد عن كثب ، يبرر له هذا الارتجـاع الرومانتيكي .. وهو ارتجاع لا خير منه ، ونجد اليوم مثيلا له بين الشعراء الشباب في امريكا وبريطانيا . »

هكذا يقدم الشاعر العراقي بدر شاكر السياب صديقه الشاعر السعيد.
ولقد صدق السياب في كثير مما قاله عن الاخ راضي «الشاعر الرومانتيكي المعتـدل » ... ومن اجل ان ابين صحة كلمات السياب ساقـدم المقاطع التالية للقارىء :

« يا انت يا سناء ! ـ يا حلما يندى على مبسمه الضياء ـ يا خفقة تهتز في روحي بلا انتهاء ـ اني اناجيك هنا من مهمهي البعيد ـ كما تناجي الليل روح التائه الشريد ـ في عالم الصمت ودنيا القلق المبيد ـ يا انت

يا سناء ! ـ يا غابة يشرب من عبيرها المساء ـ وتسبح النجوم في عيونها الظماء ـ اني اناجيك هنا من عالمي الغريب ـ عالم دنياي التي لونها المغيب ـ بلونه الكئيب ـ يا انت يا سناء !

ارأيت كيف تثير « سناء » حبه هذا فيه كل اللوعة الرومانسية ، وكل خواطره التي يبثها من « مهمه » ومن « عالم دنياي التي كونها المغيب ـ بلونه الكئيب .. ارأيت هذه الكآبة التي تلون عالم راضي ... انها كآبة « نازكية » احتواها ديوان « شظايا ورماد » وحفل بها ديوان « قرارة الموجة » ...

ثم استمع : « وطويت ايامي ـ ودفنت الامي ـ ووأدت احلامي ـ يا قلبي الدامي ! ـ يا قلبي الدامي ـ وانت انت يا ضلوع ! ـ يا منزف الدموع ـ ومحرق الشموع ـ ومصهر الاشواق والحنين ـ ومنطوي اللوعة والانين ـ يا انت يا ضلوع ! ـ يا لهبا يجوع ـ في جسد معذب تأكله الصدوع ـ وتشرب الجراح ـ منه بقايا مزق عصرها الكفاح ـ وجمدتها وهي في حفرتها برودة الرياح .. « ص ٧٩ صيحة الجرح »

وتأمل يا اخي القارىء هذا « القلب الدامي » وهذه « الضلوع » التي تنزف الدموع وتحرق الشموع وتصهر الاشواق والحنين .. وانظر هذا الجرح الذي لا ينطفيء دمه الثائر .. واستمع قصة هذا الجرح تختتم هكذا : « غدا .. غدا ادفن الامي ـ هنا . واطوي سود ايامي ـ غدا . غدا انحر اوهامي ـ تلك التي اودت باحلامي ـ وانشر الشراع ـ واعبر الشاطىء حين يخفظ الشعاع ـ وتطلع النجوم ـ وتختفي الغيوم ـ وراء سد الليل ـ ليل الحزن والهموم ـ فلا ارى غير ظلال عالم مضيء ـ عالم ارض قلبها بريء ـ تحلم بالزهر وبالضياء ـ وبالليالي الخضر والهناء »

أرأيت هنا كيف انتفض هذا الرومانسي على اوهامه ... وكيف ثار في موكب الثائرين على « الانا » كي يدفن هذه الاحلام والاوهام ... وكيف « سينشر الشراع » في سعيه نحو الارض المشرقة الحنون ... اذن فرومانسينا هنا قد زحف نحو الواقعية الانسانية .. واي زحف زحفه ؟ لقد زحف بخطى كلاسيكية رشيقة ليس فيها حذر المتزمتين ولا طغيان « الفوتوغرافيين » ...

هنيئا لراضي على هذه الانطلاقة الظافرة !

ومع ان الاوهام قد دفنها راضي في تجربته هذه التي استعرضنا ... الا انه يعود لها كما يعود الطفل لدميته ، وكما يعود الرومانسي لاحلامه « الجميلة » .. الاحلام التي تعيش عليها واعيات الشعراء الرومانسيين « لو تعلمين ! ـ يا طيف احلامي الجميلة في غد العمر الرهين ـ يا لحن ايامي المعذبة الاماني والحنين ـ يا افق دنياي الحزينة يا ابنة الشوق الدفين ـ لو تعلمين ! ـ ماذا احس به انا النائي الحزين ... » « عمري يضيع سدى وايامي تبددها ـ يد الزمن الضنين ـ وانا هنا في غربة الاحلام لست ارى سوى شبحي المهين » ص ٦٦ « احلام في الغربة » ..

ومن هنا يتوجب علينا قدر كبير من الحذر تجاه انطلاقات الشاعر .. فمع ان الشاعر يعيش في رحاب الجماعية منذ زمن ، الا ان الذاتية فيه لم تفتأ تسخر كل ما تستطيع من اسلحة سيكولوجية .. شعورية ولاشعورية كي تنأى به عن الاخر .. عن الانسان ..

وبالرغم من هذه الاحلام و « النواحات » الرومانسية « النازكية » ، تثور في الشاعر وثباته البروميثيوسية ليقدم لنا « رفاق الفجر ـ وبنت المبغى ـ ونداء الارض ـ و عهود الظلام ـ وابنة النور ـ والشرق المهان ـ والمغرب الدامي « وهذه القصيدة نشرتها « الاداب » في حزيران ١٩٥٦ .

ولا حاجة ان اقول ان كلاسيات الشاعر مثل « شعره الحر » كانت رائعة الوقوف على قدميها فيميدان التكنيك والصورة الطويلةوالعريضة ـ بالرغم من افراط الشاعر في الصور الطويلة ـ والتنويع النغمي ، والموسيقى الداخلة والخارجة والتداعي والاسترخاء والايحاء والاجواء المتبناة جيدا وبناءة واقعية طيبة .

وبالمثل ، فان الهاجسية والذكريات تعيش قلقه ، فالاستفهامات والتساؤلات ليست الا قنطرة للعبور الى ما هو ركين ومكين في مخيلة الشاعر .. ومع ان الشاعر يظل ينادي « يا انت يا سناء .. يا انت يا ظلوع ... يا انت يا نجوم الخ ... الا ان المنادي لا يمل ، ونحن السامعين لن نمل، كذلك ، نداء شاعرنا المتألم الملتاع .

شيء اود ان اقوله .. هو ان شاعرنا قد افاد كثيرا من السياب والبياتي ونازك . ومع انه تخلص في عميق خيالاته وصوره وهياكله وموسيقاه ، من معظم الخيوط والخطوط السيابية البياتية ، الا انه لا زال يحترم كثيرا « النموذج »البياتي ، ولا زال ، بالمثل ، بل ، بالضرورة ، يهيم كثيرا بالتصميم السيابي المبدع .

بغداد **جليل كمال الدين**

أيام .. ويموت رجل !

قصة بقلم جان الكسان

الى يوسف العظمة .. بطل ميسلون، الفداء الاول في تاريخ بطولتنا الحديث

الفتيلة لا تزال منذ ساعة تمط بلسانها لتلحس بلور زجاجة القنديل بلعابها الجاف الاسود فتتراقص الخيالات في الغرفة ، ويسقط النور الباهت من القنديل على الجدران باعياء..

نفس الحكاية .. يعيدها .. انا ادري انه يستشعر سعادة عظيمة وهو يرويها .. انه يريد ان ينداح في دوامة تدور به مع اخيلة وذكر واحداث مرت منذ ثلاثين عاما ..

وقبل ان تنفرج شفتاه عرفت انه سيقول : « ذلك اليوم ، كانت رائحة التراب قوية في انوفنا .. كنا نشتمها بعمق ونحن نصد السيل الضخم الذي بصقه البحر في شواطيء لبنان ليدب كأقوام البرابرة الى ارضنا ... كان عبد الغني قزما - رحمة الله عليه - الى جانبي .. انت لا تعرفه .. كان جسمه ضئيلا وعيناه رطبتين بلون الوحل .. ولكنه كان بطلا .. اصيب باكثر من رصاصة في اجزاء متفرقة من جسده وهو لا يزال قابضا على البندقية « العصملية » يحشو بها المشط تلو المشط ، حتى تراخت يداه .. وسقط ..

« داسه جندي فرنسي يا ولدي متعمدا ... قتلت انا ذلك الجندي.. ما كان ذلك الفرنسي في عمله جنديا شريفا .. تمنيت انذاك لو كان له اكثر من روح لاستلها من بين جنبيه اكثر من مرة .. الشهداء لا يداسون بالحذاء .. هذا لا يعرفه هؤلاء الفرنسيون الانذال اصحاب القلوب الغليظة ..

« وكأنني في حلم .. تبلورت امام عيني ، اعمال جسام ... كان الغبار يتصاعد ورائحة التراب قوية في انوفنا .. ورجالنا شبه العزل يواجهون الحديد والنار ببطولة رائعة .. لم تكن تلك هي المرة الاولى التي اشتم فيها رائحة تراب ارضنا بعمق .. كنت كثيرا ما انمدد في الحقل تحت شجرة الزيتون ، الى جانب الساقية الغربية ، ويكون انفي قريبا جدا من التراب ، فاروح اشتم رائحته بعمق .. احب رائحة التراب يا ولدي .. تراب ارضنا الذي سقيناه بدموعنا ودمائنا وزرعنا فيه الحبة المباركة منذ القديم ..

« كنا نقاتل بايمان ، ويصيح يوسف : الى الامام يا شباب ...

« يا الله .. لا استطيع ان اتصور كل شيء ... الم اقل لك ان تلك الساعات مرت كحلم !..» .

★

ويسكت الرجل الذي سيموت بعد ايام !..

اليوم فقط عرفت هذا .. اتيناه بالطبيب من المدينة . بعنا نصف غلال الزيتون ، وجلبنا له اكثر من طبيب .. قرحة في المعدة ، وتضخم في الرئتين وشلل في القدمين ووهن عظيم في القلب ..

قال الطبيب اليوم : قد يقف قلبه فجأة ، ويموت ..

قالها ببساطة .. وصدقه الجميع .. فكلام الطبيب في قريتنا كالاية المنزلة ..

وعرف الطبيب انني شاب مثقف فقال لي : الرجل يسير حثيثا الى نهايته .. كم هو عمره ؟..

عجبت للسؤال يعيده الطبيب لخامس مرة !..

- ثمانون عاما ....

- لا فائدة .. تشجع يا سيد .. كلنا على هذه الطريق ...

لا اعرف لماذا شعرت برغبة ملحة لان اصفع الطبيب .. في الزيارات السابقة كان يمنينا بآمال عريضة .. كان يقول : انه في حالة تعب وبحاجة الى الراحة والعلاج..

وامنا الراحة ، واشترينا العلاج .. بعنا النصف الاخر من غلال الزيتون واشترينا علبا كثيرة ملونة من صيدليات المدينة ولكن دون جدوى .

اليوم ادركت ان عين الطبيب الخبيرة ، ادركت انه لم يبق لدينا شيء بعد هذا نبيعه فقال : الرجل يسير حثيثا الى النهاية ، فقد يقف قلبه فجأة ويموت .

وغابت سيارة الطبيب خلف اشجار الحور ، وعدت الى الغرفة والفتيلة لا تزال منذ ساعة تمط بلسانها الى اعلى الزجاجة بين لحظة واخرى وتلحس باورها بلعابها الجاف الاسود فتتراقص الخيالات في الغرفة ويسقط النور الباهت من القنديل على الجدران باعياء..

نفس الحكاية يعيدها .. انا ادري انه يستشعر سعادة عظيمة وهو يرويها .. انه يريد ان ينداح في دوامة تدور به مع اخيلة وذكر واحداث مرت منذ ثلاثين عاما .. وقبل ان تنفرج شفتاه عرفت انه سيقول : « ذلك اليوم .. كانت رائحة التراب قوية في انوفنا .. كنا ...

« يا الله .. لااستطيع ان اتصور كل شيء ... الم اقل لك ان تلك الساعات مرة كحلم ؟..

ويسكت .. فيسود جو الغرفة صمت ثقيل ، رهيب ، وافتش عن كلمة اقولها فلا يفتح علي ... وانظر الى عيني الرجل المسجى امامي فالحظ شبح ابتسامة صفراء يرتسم على وجهه واحس بجسدي يتقلص ويتقلص حتى يصبح ضئيلا .. تافها .. بلا قيمة .. ولا كيان .

الرجل يدري انه سيموت .. ومع ذلك يبتسم .. يتحدى الموت بهذه الابتسامة الشاحبة ... انا لست مثله .. ولا مثل عبد الغني قزما لست بطلا بحال ... انا اخاف الموت .. ولا استطيع ان اتصور نفسي كعبد الغني ، جسدي يثقبه الرصاص وانا احشو بندقيتي بالمشط تلو المشط ...

سيموت هذا الرجل .. ايام ويموت .. يا لتفاهة التعبير .. هكذا يقرر طبيب جشع نهاية انسان حافلة بجهاد عظيم : ولد والظلم العثماني يجلد ابناء شعبه بسياط اغلظ من قلوب اصحابها ... وشب ليستقبل بجسده رصاص الطوفان الفرنسي في ميسلون ، وها هو يختتم حياته ببسمة رضى ترتسم على وجهه الشاحب الذي كثيرا ما تصبب عليه العرق الغزير والرجل يصارع قسوة الارض وهو يقلب ترابها ليزرع الحبوب

والاغراس ..

لا اريد ان اتصور الان ان هذا الرجل سيموت بعد ايام .. لا اريد ان اتصور ذلك .. انا لا احب الكفر ، لا احب ان اخالف ارادة الله الذي يحيي ويميت ، ولكني لا اريد من الطبيب ان يكون هو الذي يحدد ساعة المــوت .

ان شيئا كالحمى يدور في رأسي وانا انظر الى الرجل المسجى امامي على الفراش .. حتى هذا القنديل اللعين يسخر مني بتراقص ذبالته .. هل انا اهذي ام اتفلسف ام اكفر ؟.. انني انداح بدوري في دوامة عنيفة تنتابني معها مثل هذا الدوار الحار الذي يكاد ان يدفع في رأسي انفجارا.

كيف ؟.. لا استطيع ان اتصور ان هذا الرجل الذي ارفعه على ساعدي بحنان لاجرعه الدواء سأضعه بنفسي بعد ايام في حفرة عميقة باردة .. في ساعة من الزمن سأدفن حياة انسان حافلة .. حياة بطل.. سيقف اهل القرية حولي معزين .. سينثرون امامي سيلا من الجمل التقليدية التي تقال في مناسبة كهذه .. وسأهز لهم برأسي شاكرا ..

كل الناس يموتون .. كل حي ينتهي الى هذا المصير ، فلماذا كل هذا التهيب من موت الرجل .. انا اعجز عن الجواب الان ... ذهني مشوش. وبرأسي دوار كالحمى .. والاخيلة تتراقص على جدران الغرفة مع اهتزاز ذبالة القنديل ، ووجه الرجل يحدق في بهدوء ... انني اتصور الان الطبيب يقف قرب فراش المريض ويمسك بيده برهة ، ثم يفلتها ويلتفت الي ليدلي بقراره الحازم : ايام .. ويموت الرجل .

لمن سأقرأ الجريدة بعد اليوم ..؟ من سيجلس قرب الموقد في ليـالي الشتاء يروي لي حكاية السيل الضخم الذي بصقه البحر في شواطيء لبنان ليدب كاقوام البرابرة الى ارضنا ... وعبد الغني قزما ، صاحب الجسم الضئيل والعينين الرطبتين اللتين بلون الوحل ، من سيروي لي قصة الرصاصات التي اخترقت جسده وهو قابض على بندقيته يحارب .

سيكون هناك فراغ كبير في ايامي المقبلة .. لن اذهب صباحا الـى الغرفة القريبة لالقي على الرجل تحية الصباح بعد ان يؤدي الصلاة ... سأشرب القهوة لوحدي ، وسأخرج الى الحقل بخمول .. لن اشتغـل سيعمل الفلاحون وحدهم في الحقل ، وساكتفي بتعهد الارض التي رعاها الرجل بتعب العمر .. وسأعود في المساء الى غرفتي لاقرأ حتى انام .. انه روتين بليد لا استطيع ان احياه .. انه سيحقن ايامي باشياء قاسية تتعب ذهني وتحطم اعصابي..صحيح انني شاب واع في الرابعة والعشرين من العمر ، واحمل شهادة تثبت انني شاحب مثقف .. ولكنني اخـاف الفراغ الذي سيخلفه هذا الرجل ... كم اتمنى لو كنت بطلا مثله ... انا لست كذلك .. ولا استطيع ان اكون .. انني اضعف الان من اي انسان .. والرجل لا يعرف حقيقة مشاعري ، اذن لكان سخر من ضعفي بابتسامته الهادئة التي تتحدى الموت

ايام .. ويموت الرجل ..

لماذا قالها الطبيب ؟.. لماذا لم يقل ان الاعمار بيد الله ... لماذا اطلق الحكم الاخير ؟.. لماذا ؟..

ويرفع الرجل المسجى رأسه قليلا .. وترتسم على وجهه الشاحب غضبة قاسية وهو يقول : ماذا ... هل تبكي ؟.. لو كانت امك المرحومة هي التي تبكي لعذرتها ... لانها امرأة .. اما انت فرجل .. والرجـل لا يبكي يا احمد ...

★

وتمضي ساعة ، فينام الرجل ..

ويتحول الدوار في راسي الى خدر لذيذ وتتنقل اجفاني فاذا بـي مع عجلة تدور وتدور : سنة ... ثلاث .. خمس ... عشر .. واذا بارادة الله فوق تقرير الطبيب .. والرجل حي يسعى ويصلي ويجلس قرب الموقد في ليالي الشتاء يعلمني درسا جديدا في اعمال الفلاحة والغرس والبذار التي اقوم بها بنفسي في حقلنا .. وعندما ينتهي من القاء درسه افتح الجريدة واروح اقرأ له فيها اخبار الوطن والدنيا ... واطوي الجريدة فينبري ولدي الصغير الذي تخطى عامه الثامن يسأل جده ان يقص عليه حكاية .. فيروح الرجل الشيخ ذو الاعوام التي بلـغ عددها التسعين يروي الحكاية الخالدة :

« ذلك اليوم .. كانت رائحة التراب قوية في انوفنا .. »

دمشق — جان الكسان



السيمفونية الثائرة

انطلق الفجر من الاغوار الظمآنه
وتهادى في الافق الشرقي
تهادى ينشر تحنانه
ويردد في نغم موار
لحن الاحرار
فتعال وضم جناحيك الى جنبي
فالضوء يحدق في عيني
قد زالت اودية الظلمه
وهوى في قصف صرح العتمه
فتعال تعال
فالمعول ما زال يرافقه موال
عن شعب ثائر
عن قصة منحوس غادر
غشى اعيننا عن رؤية ماضينا المنكود
زرعت يده يوما في صحبتنا الاشواك
في الطرقات ..
على الجدران
وفي الشباك
لم نبصر في يوم نورا
سد الكوه
لكنا ثرنا في قوه
وحطمنا جدران الديجور
عانقنا الفجرا
قد غاب وما داعبنا دهرا

★

من قمة لبنان الحره
من سهل فيها من وديان
طالعنا انباء الثوره
وعرفنا كيف يهد المارد ما شـاد الطغيان
وتلاقى في القمة كفان
اقسمتا الا ينبض قلب
الا تومض عين بحياه
ان لم يجتر الظلم صدى ما كان
وتعالت صيحة انسان ..
من فوق القمه
فهوت من ضجعتها نجمه
وتدفق جمع كالبركان
مفتول الساعد والبنيان
زأرت في دجلة امواج
غمرت شطيه
فأفاقت من غفوتها افواج
ومضت في عزم ..
في اصرار
تجتاح ملاحم خط النار
لتمزق شمل الاستعمار

★

يا ليل الشعر
يا ساحة بغداد الغناء
يا رفقة هارون
يا جارية المأمون
الكأس مليء بالدم
والسقف يوافيكم بحمم
ما عاد الليل لضحكات المخمورين
للخصر الضامر في كف الاهواء
فلتشرب نخب الليل الساهر
ولتذكر « شروان » القاهر
وترحم – ان شئت – على ماضيك
فاللحظة ما زالت في كفك
اخر ما يبقى من عمرك
وتمدد تحت حذاء الشعب الغلاب

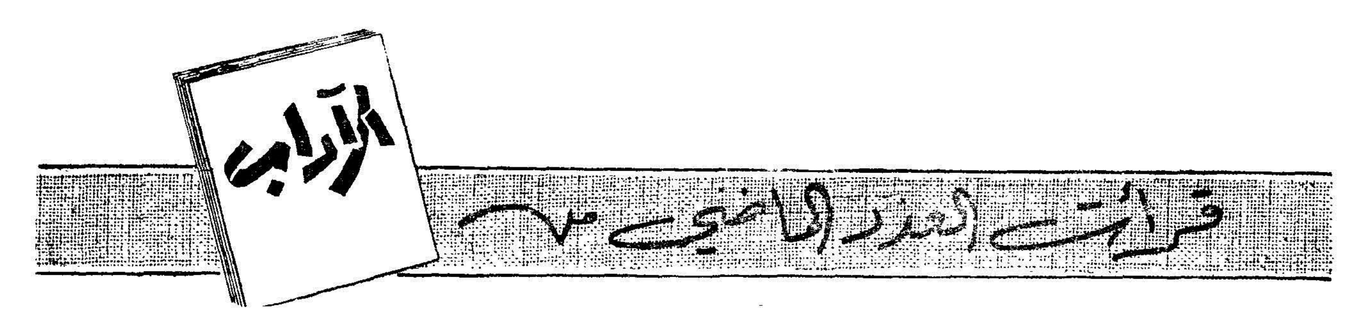
★

اوراس الثائر
يا ساهر
اندفعت من فوقك اسراب
شيخ هرم وشباب
لتفجر من جنبيك النصر
وتدك قلاع السين
وتبدد نشوة نابليون
فلتخفق في خديك الاعلام
وليحملها من جندك الف غلام
ما ذاقوا قبلة ام
ما عرفوا غير أنين الدم
والسفح يردد في الاذان
نغما هادر
صوتا ثائر
وسماء تتمخض عن سر الرابض
تساقط كسفا
تهوى اشلاءً
وذماءً
انهارت تتجاذبها النار
موكبنا آت للثار

★

مدت من سوريا .. من مصرا
كف تتعانق في اصرار
وتبارك سرا
جذوته حقد في الاغوار
ام من صحوتها تنهار
ما ماتت ..
مثلها في عزتها ثائر
مولود اسمته صابر
وصريع مات وفي شفتيه حنين
لم ينطق كلمه
لم يبسم بسمه
زهران وما مات الغابر
قد خلفه عبد الناصر
ليمد يدا من خلف الاسوار
فيضمد من جبهتنا جرح غائر
ويضيء على الافاق منائر
كي تهدي الجواب السائر
كي تجمع شمل العرب على نغم هادر

القاهرة **عبد العزيز النعماني**



القصائد

بقلم الدكتور علي سعد

ما كانت قراءة الشعر في العدد الماضي من الآداب مضيعة للوقت ولا تمرسا بقطع المفازات الجهمة ، على بعد ما بين ذوقنا الحاضر وبعض القصائد في هذا العدد .

فالمطولات من القصائد الممثلة للمدرسة التقليدية في تاريخنا الحديث والتي صدرت «الآداب» بها عددها المخصص للاحتفال بذكرى شوقي ، كان لها فضل اعادتنا الى عالم نفسي تكاد تنقطع صلتنا به . وبصرف النظر عن رضانا او عدم رضانا عن نهج هذه القصائد، فاننا لدى قراءتها لا نملك امر الهرب من تدفق حنين خاص يشبه الحنين الذي نشعر به عندما نجوس خلال ديار ضربت السنون بيننا وبينها حجابا كثيفا ، او عندما يطالعنا وجه انسان عرفناه في ايام صبانا الاولى .

هذا الحنين لا يذهب الى الشيء او الوجه الضائع الذي نعود اليه ، بقدر ما يذهب الى ذكريات عمرنا الذي ولى والذي كان يتردد ويطوف حول هذا الشيء او الوجه الضائع . ان هذا الحنين ليس الا مظهر التحرك في افلاذ من كياننا ومن ماضينا كنا نحسب انها قد طويت وهمدت الى الابد . هذا الحنين اذن ضرب من الفرح بعبث ما كنا نتخيل انه قد مات في نفوسنا او ما طواه النسيان .

من هنا العطف الخاص الذي نكنه نحو كل المشاهد والاشياء والحكايات والاغنيات والكتب والناس الذين مروا في حياتنا ايام طفولتنا او ايام صبانا الاولى ، والذين اصبحت ذكرياتهم تختلط اختلاطا حميما بعالمنا ، ومن هنا اللهفة التي لا تخلو من محبة عندما يتهيأ لنا ان نعود الى هذه الاشياء او ان نصادف تلك الوجوه التي ضاعت في ماضينا .

وهذا هو تماما الاحساس الذي طالعني عند قراءة قصيدتي شفيق جبري وابراهيم الوائلي في ذكرى احمد شوقي . فبالرغم من عزوفنا اليوم عن هذا النوع من الشعر الذي اصبحنا نمل سطحيته واطنابه وغلبة الصنعة فيه على صدق التجربة ، فان قراءة هاتين القصيدتين قد مست اوتار الحنين في نفسي ، ذلك انهما بعثتا الذكريات الدفينة من صبا كنا نجد التعبير عن الكثير من اشواقه واحلامه واهوائه ونبضاته في شعر شوقي .

ومن جهة اخرى فان نشر هاتين القصيدتين على صفحات « الآداب » قد اعطانا الفرصة لقياس مدى المسافة التي قطعها الشعر العربي في السنين العشر الاخيرة .

ورغم كل الاستعداد الطيب الذي كان يحدونا لدى استقبال هاتين القصيدتين اكراما لقائليهما واحدهما كان اسمه يشرق في مخيلاتنا بألق خاص كشاعر اول في الشام ، واكراما لشوقي ، واكراما لماضينا الذي كانت تعيش فيه اشعارهما ، رغم كل ذلك ، فان الشعور الحقيقي بخيبة الامل لدى مقارنة هذا الشعر التقليدي بالشعر الجديد الذي ينشر باستمرار على صفحات المجلات الادبية والذي يتمثل في عدد «الاداب» بقصيدتين جيدتين ، هذا الشعور قد أكد ثقتنا بالشعر العربي الحاضر وبحقيقة الوثبة التي خطاها الى الامام منذ ان تخلى عن طرقه واطاراته التقليدية في السنين العشر الاخيرة .

لقد قيل الكثير في مقارنة الشعر العربي التقليدي والشعر الحديث ، وقد لفت الكثيرون من النقاد المحدثين النظر الى الكثير من العناصر التي جعلتهم ينفرون من الشعر التقليدي ويفضلون عليه الشعر الحديث : فقدان التماسك والوحدة في البناء وفقدان الارتباط بين الشكل والمضمون ،وغلبة اللهجة التقريرية والخطابية البلاغية ، والمغالاة في الصور ، مع ضحل وهزال وسطحية في المضمون .

اكثر هذه الملامح التي ابعدت الجيل العربي الجديد عن الشعر التقليدي نجدها في قصيدتي « شاعر العرب » و « وطن الرؤى يا نيل » .

والقصيدتان من المطولات المنظومة على البحر الواحد . ولا بد لنا من ان نعجب لهذا النفس الطويل وللجلد الذي ابداه الشاعران في حشر الصور والافكار التي مرت بخاطرهما في هذا الاطار الواحد الذي التزماه والذي حددته قواف محصورة مكرورة ، وايقاع نغمي ثابت لا يتغير ولا يتطور مع تطور الخواطر ونموها .

وانني اعتقد ان الانطباع المتكون لدى قراءة هذا الشعر بضرورة توفر البراعة البالغة لتحقيق مثل هذه القصائد الطويلة في مثل هذه الحدود الضيقة ، هو الذي يدفع القارىء الواعي في الجيل الجديد الى الاحساس بالضيق وعدم الارتياح ازاء البراعة في تنضيد الكلمات ورصف الجمل ونثر التعابير التي قضى على بكارة دلالاتها الاستعمال المعاد طيلة اجيال والبراعة خاصة في تركيز بناء الفكرة في حيز ضيق هو البيت او بعض البيت ، وفي نطاق سياق نغمي رتيب لا فكاك عنه .

وهذه البراعة التي تدخل عناصر التكنيك البحت للصناعة الشعرية ، المجرب في حلة تبدو قشيبة هي اكثر ما ننكره على الشعر التقليدي .

وهذه البراعة التي تدخل عناصر التكنيك البحت للصناعة الشعرية ، والتي لا تمت باية صلة الى غنى المادة الشعرية لا تبعدنا عن تذوق الشعر الا بقدر ما تحاول ان تلهينا عن تلمس حقيقة المادة التي يتكون منها ومدى غناها او ان تستر الفقر والهزال في مضمون هذا الشعر .

ومن جهة اخرى فان القارىء الواعي لا يسعه الا الشعور بان مثل هذه البراعة في الاداء لا يمكن ان تتحقق الا على حساب الصدق في المضمون العاطفي للقصيدة ، وحرارة الرغبة في التعاطي والاتصال والبث التي تقوم في اساس كل عمل فني .

ونحن اذ نشير الى هذا العنصر ، عنصر البراعة ، في معرض الحديث عن قصيدتي شفيق جبري وابراهيم الوائلي ، كنموذجين للشعر التقليدي العربي لم نحكم ابدا بانهما كانا حقا ودائما موفقين من ناحية الشكل والديباجة والاداء. فالبراعة التي نعنيها هنا هي ما يظهر من الجهد والمعاناة في اخراج الفكرة بالقول الشعري ، لا التوفيق في هذا الاخراج .

ومن هذه الناحية فاننا نجد ان قصيدة شفيق جبري تفوق كثيرا قصيدة الوائلي . فهي اقرب الى النماذج المطلوبة في الاصول البلاغية . وهي اشرق بيانا واكثر اتساما بالجزالة واوفر عناية باختيار اللفظة والقافية . وكيف لا وصاحبها يقول فيها بوصف شعر شوقي :

صور تقطر البلاغة حتى تحسب الصدق في البلاغة كذبا

هذا البيت يصدق على القصيدة نفسها اكثر مما يصدق على اي شيء اخر ، ويصور مفهوم الشاعر .

وفي قصيدة « شاعر العرب » بعد ، من فخامة وضخامة فن التعبير ، ومن ثقل وتيرة التحرك والالتفات ، ومن عبق العتق والحرص على احتضان الماضي ، ما يجعلها اشبه بالمساجد القديمة الراسخة البنيان .

وفي القصيدة محاولة لاعطاء لوحة جامعة للجوانب البارزة من شعر شوقي .

وقد استهلها الشاعر بوصف اثر الشعر في الحياة العربية مؤكدا مثل من سبقه من الشعراء الطابع الخارق لهذا الاثر :

قد تحول الصحراء في روعة الشعر فتغدو منه حدائق غلبا

والشاعر بهذه الشطحة التي تبدو بعيدة عن الواقع لا يعدو التعبير عن الغصة التي تملك نفوس الشعراء والفنانين وكل العاملين في حقول الفكر ازاء ما يرونه من ظواهر تدل على ان العالم الانساني يتكون ويبنى بدونهم . فتتحول هذه الحسرة الى عقدة العظمة التي تصور لهم ان شعرهم وفنهم قادران على تحويل الطبيعة .

ثم يظهر الشاعر اثر قصائد شوقي في استثارة حمية اهل سوريا للقتال في ثورة ١٩٢٦

ثم يبرز الجانب الرقيق من غزليات شوقي

ثم يشير الى شعر شوقي حين كان منفيا بالاندلس وقصائده التي غنى بها مجد العرب الغابر في تلك الارض المضيعة

ثم يذكر القصائد التي صور فيها شوقي الحضارة الفرعونية .

ويخلص من ذلك فورا الى الحديث عن الثورة المصرية ، ثم عن وحدة مصر وسوريا ، ثم عن الثورةالكبرى التي تعصف اليوم بالعرب الذين :

بعثوا من مدافن العز تاريخا نما عزه غناء وخصبا

ويلاحظ ان الشاعر شفيق جبري ظل في تناوله الحديث في شوقي ملازما الموضوعية الى اقصى الحدود . لقد جانب الحديث عن نفسه بصورة مباشرة وعن اثر شعر شوقي في تكوينه ومده هو شخصيا ، بروافد الاحلام والحماسة والهوى والنماذج المحتذاة ، لقد ظل يتحدث من بعيد عن الحالات التي تحرك فيها شعر شوقي ، كانه يتحدث عن اشياء في المريخ لا تربطه بها اية رابطة .

ولا نحب ان نترك هذه القصيدة قبل ان نشير الى ملاحظة اخيرة تدخل في مضمونها . فقد راينا الشاعر يؤكد على اضفاء صفة « شاعر العرب » على شوقي . ولا ندري ان شوقي كان يحب ان يوصف بهذا الوصف لقد كان اكبر همه ان يكون شاعر الخلافة او شاعر الشرق .

كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في احزانه

وحتى قصائده في النكبات التي اصابت العرب او في الملاحم البطولية التيكانت تخوضها الشعوب العربية في ايامه لمتكن تنظر الىالامة العربية كوحدة منفصلة عن الامة الاسلامية التي كان يدعو الى ايقاظها وتوحيدها ويمجد نضالها في سبيل تحررها ورقيها

اما قصيدة « وطن الرؤى يا نيل » لابراهيم الوائلي فتحمل المجاهرة بالارتباط بين ذكريات صاحبها الذاتية وشعر شوقي.

والشاعر يستعين لاقامة هذه الصلة الذاتية بينه وبين موضوع شعره بالذكريات التي يحملها في نفسه منذ ايام دراسته في « دار العلوم » بمصر والحنين الذي يستشعره لدى عودته الى ضفاف النيل ووادي الكنانة واندية الشعر والادب التي يتألق في سمائها شوقي واترابه الشعراء الكبار .

وهكذا استطاع الوائلي ان يلج بنا الى شوقي من طريق حياته هو التي تملاها صور الحياة المصرية حيث نمت احاسيسه ومداركه في الوقت الذي كان شوقي يغرف من جو مصر وارضها المواد الفنية لشعره الملهم.

ويحاول الوائلي ان يبرر موقف شوقي في الدفاع عن الخلافة وعن الخديوي بعامل الوفاء :

ادب الوفاء وللوفاء وعهده عند الاديب الحر اي ذمام

ثم يشير الى تحول شوقي للدفاع عن قضايا مصر ثم عن قضايا العروبة بلهب قصائده الوطنية وبصوته المجلجل في اسماع الطغاة والمعتدين .

ثم ينهي كما انهى شفيق جبري قصيدته بالتحسر على غياب شوقي عن دنيا العروبة التي بدأت تأخذ صدر الدرب الى مصيرها المجيد على امواج ثورات شعوبها المناضلة وبقيادات المخلصين الابطال كجمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم

وتلاقي الشاعرين على هذه الفكرة الواحدة التي صوراها بعشراتالابيات يدل على مدى تردي اصحاب المدرسة التقليدية في انتهاج الدروب المطروقة والطرق المعبدة في اخيلتهم والهامهم . انهم يظلون يحومون بخيالهم حول الميادين العامة التي يرتادها الناس جميعا .

وقد يشفعللشاعر الذي يغرفماء بطاحونة شعرهمن هذهالجداول العامة اناقة في اختيار الاناء الذي يقدم به الماء او لطافة انفاسه وطرافة اشاراته وعمق لفتاته . ولكن شيئا من ذلك لا نجده في قصيدة الوائلي التي لا نرى فيها الا نموذجا عاديا من الشعر الذي كنا نسمع مثله على مقاعد دراستنا الثانوية ، واحيانا ارقى منه .

ولكن حكمنا القاسي هذا لا يقتصر فقط علىهاتين القصيدتينالتقليديتين انه يشمل ايضا قصيدة « اغنية ليست للعبيد » لسالم علوان الجلبي . وهي قصيدة نظمت على الطريقة الحديثة من الشعر المنسرح : دون التزام قافية واحدة ولا بحر كامل واحد .

ورغم ما تيسره هذه الطريقة من حرية في التحرك الشعري فان الشاعر ظل يزحف في وديان الصور المبتذلة والافكار العادية والنظرة السطحية للموضوع الذي يعالجه . واننا لا نجد اي عذر ولا شفيع للشاعر ان يكون الموضوع الذي اختاره لشعره حبيبا الى نفوسنا ، كموضوع الثورة العراقية ووجه قائدها البطل عبد الكريم قاسم . فان روعة هذا الموضوع لا تكفي لان نكف عن مطالبة الشاعر الذي يتناوله بضرورة الابداع والاجادة . بل ان مطالبتنا له ان يحمل الينا نبضة فنية جديدة ، تزداد كلما كان الموضوع اكبر التصاقا بحياتنا وتداخلا مع احلامنا واخيلتنا وافكارنا . ان مهمة الشاعر الذي يعالج المواضيع الوطنية الملهبة لاتقتصر فقط على تداول هذه الافكار والصور الشائعة في نفوسنا وفي حوارنا وانما ايضا على تجاوزها او على الاقل على اعطاء الكلمات التي نستعملها في التعبير عنها مدلولات جديدة وقوة ابرائية جديدة افقدها اياها طول الاستعمال .

وهذا الذي لم يستطع ان يحققه الشاعر العراقي سالم علوان الجلبي. فهو قد بقي في نطاق التعبير العادي والخيال العادي حتى ليتساءل القارىء الفارق بين هذا الكلام المنظوم والنثر العادي .

ويكفي ان اذكر هذا المقطع :

عبد الكريم ، اننا شرابة الدماء
دماء من يخون
لعهدنا المصون ...
ونحقر الملوك سفاكة الدماء
وقوله في مكان اخر
فاليوم يوم عيد
والفرح الاكيد
بالثار ... بالنضال
بثورة الرجال
على الخداع والنفاق
على المروق والشقاق
على عصابة اللصوص
حقيرة النفوس

لادلك على فقر المادة التي يتكون منها هذا الشعر وعلى ركاكة صياغته . ولنني اعتقد ان في الازجال التي كانت تغنيها الجماهير العراقية في أزقة بغداد تجاوبا مع حدث ١٤ تموز ، من التفجر الشعري ودقة التصوير واناقة العبارة وصدق الاحساس والرجة الانفعالية ما يفوق قصيدة « اغنية ليست للعبيد » وقد تصلح هذه المنظومة لان تكون اغنية شعبية . ولكنها لا تصلح أن تكون عملا شعريا بالمعنى المفهوم .

تبقى ثلاث قصائد ، يمكن ان نعتبرها من الشعر الطيب.

اولاها قصيدة « بيتي هناك » لهارون هاشم رشيد .

وعلى الرغم من ان هذه القصيدة منظومة على النسق الكلاسيكي من حيث الشكل اي على بحر واحد وقافية واحدة ، فاننا لا نحس بقيام اي حجاب من البلاغة والبراعة الصياغية ، بين افهامنا والعالم النفسي الذي يحاول الشاعر ان ينقله الينا .

اننا نشعر ان القيود الشكلية التي الزم الشاعر بها نفسه لا تقوم كالجدران العتية التي تصدم في كل لحظة الخيال التطلق . انها تبدو كالمصابيح القائمة على جنبات الطرق ، فلا تشعر معها بانها حجاب او حراس تمنع عنك الاقتراب مما تريد بل اضواء هادية تقودك باستيحاء ودون ان تنتبه لوجودها الى غاية سيرك .

القيود الشكلية هنا وسائل لضبط العاطفة المتدفقة وتنظيمها وابراز قيمتها . انها شيء لا يتجزأ من هذا الكل الجمالي الذي ينطق به الشعر في رفق ولين وتناسق وفيما يشبه العفوية المحببة .

ومما يساعد على اعطاء هذا الطابع العفوي تسلسل الكلمات والقوافي بصورة جد موفقة ونهوضها بالمعاني والاشارات التي تحملها دون ان تشعر باي افتعال او جهد او ارتباك . والقصيدة تصور حنين الشاعر الى بيت في قرية من قرى فلسطين ، ضاع في جملة الاشياء الكثيرة التي ضاعت مع هذا الوطن .

وقد استطاع الشاعر ان يحمل الينا كل هذا الحنين ، بكلماته وصوره ونغماته الحبيبة المنمنمة الرشيقة . وهو قد وفق كثيرا الى ان يحملنا على ان نشاركه غصص غربته عن بيته وعن قريته وحسرة الاحساس بضياع الشيء الذي ولى ، دون أن يلجأ الى الصور الزاهية عن بيته وعن قريته ودون ان يلجأ الى الاطناب او الاغراق في الخيال . لقد اهتدى الى النفاذ لمجامع احساسنا وعطفنا من طريق اكثر سبل الاتصال انسانية : من طريق الوداعة والرقة والبساطة . لقد سحرنا من حيث انه يبدو عليه انه لا يريد سحرنا او استهواءنا .

« بيتي هناك » قصيدة تستعين لاسر القلوب بما يستخدمه فن التصوير الصيني وفن الحدائق اليابانية : عبقرية الوداعة والاستحياء والتواضع ، وادب الاستخفاء :

هناك فوق ربوة منسيةمهجوره
في مسرح الاحلام .. في قريتنا .. المأسوره
بقية لمنزل .. قد بعثروا سطوره
قد هدموا جدرانه ومزقوا زهوره
فماتت النسمة .. في الحديقة النضيره
واصبحت مهجورة حديقتي مغموره
لا بلبل يزورها شوقا ولا شحروره
والليل مد فوقها مع الاسى ستوره

وقصيدة « رسالة من فدائي الى صديقة » للشاعر المصري الشاب فاروق شوشة هي في نظري ، افضل قصائد العدد . وقد احببتها رغم ان الصورة المركزية التي تتردد فيها كلازمة الغناء ، صورة التلازم بين خيال عيني الحبيبة والايمان بالغد وارتباطهما بحياة النضال ليست جديدة في الشعر الحديث . فقد وردت كثيرا في شعر ناظم حكمت وفي شعر البياتي وفي شعر شعراء كثيرين بالفاظ مختلفة وبصور مختلفة .

ومع ذلك ، فان قصيدة شوشة تملك عناصر قوة تؤهلها لان تعد في خيرة الشعر العربي النضالي .

واول وجه من وجوه قوة هذه القصيدة ، الوحدة المتينة التي تجمع اجزاءها ونمو بنائها نموا عضويا كما تنمو الانسجة والاعضاء من الخلايا والالياف والشرايين والاعصاب التي تشدها الى بعضها البعض في الجسم الواحد . فالشاعر لا يعمد الى تكديس الصور ولا الى عرض اللوحات الذهنية والخارجية عرضا متتاليا . ان المجرى النفسي ، كما يبدو من خلال كلمات القصيدة لا يتبع المجرى الزمني في خط واحد وانما في خطوط عديدة تتشابك وتتفاعل كما تتفاعل الخليات والافرازات الداخلية في كل جسم حي.

ان كل جزء من اجزاء القصيدة لا يحمل اهمية لذاته وانما اهميته تنبع من فعاليته على الاجزاء الاخرى ، كمواد تحضيرية او مكملة لولادة مواد اخرى ، كاضواء كاشفة للعناصر الاخرى

والقصيدة تصور انسانا عربيا يترك عروسه ليذهب الى المعركة . وفي ليالي الانتظار الطويلة التي سبقت المعركة كان ذهن المحارب متصلا بابعد حدود العالم والظلمة ومشدودا الى عيني حبيبته والى حتمية لغد اخر وحياة ممدودة، حتى ليتوهم ان هذا الحلم قد تحقق وانه قد عاد الى حبيبته يعيش معها الايام المشرقة التي يتمناها . الى ان يوقظه من هذا الحلم قسوة المعركة الرهيبة التي تزرع الموت . ولكن كل الدمار الذي احدثته لم يستطع ان يقضي في قلب المحارب على شعلة الامل بصنع الغد، ولا اسكتت اغنية الجيل الصاعد نحو القمة .

والقصيدة تحمل في كلماتها ، وخاصة في قسمها الاخير نفسا ملحميا يهز القاريء ويدفعه الى جو المعركة ويحفزه لطلبها ، كما تدفعه وتهزه الحان بيتهوفن او واغنر او كاتشاشوريان .

« الدرب اتضحت للسارين
وتكشف لون المنحدرات
من كل خنادقنا الرحبة
ابدا نصعد ..

المارد هز قيود الصمت ...
اطلق عينيه لكل النور ...
لم تبق سدود تمنعنا عن خوض الموت .
لن يتفجر نبع النور لغير مغاوير القمه ... »

في هذه الصرخات ، صرخات ظفر الانسان على الرعب والموت والليل، تجد وايمان لا يقهر بالسلام والامن والحب والهناء . وكل الكلمات والصور الوحشية التي يعتمدها الشاعر لابراز هذه الصرخات ، لا تزيدنا الا انجرافا مع دويها ووقوعا في نطاق اثرها المزلزل . ان هذا الشعر لا يترك القاريء دون ان يفتح فيه الاوردة ويقلص العضلات ودون ان يحركه لعمل شيء ما ، او دون ان ينقل استعداده الذهني من وضع الى وضع ومن حال الى حال . وهذا لعمري منتهى غاية الشعر.

ويعجبني في مضمون القصيدة قدرة الشاعر على ان يرتفع من الحالة الانسانية البسيطة ، من عواطف واماني انسان عادي ، انسان نلتقي بالاف امثاله كل يوم ، وان يتدرج من هذه الحالة الى طرح قضية الانسانية جمعاء في نضالها ضد الحرب والاستعمار والطغيان. والشاعر يحسن ،الى ذلك ، ربط الانسان بكل الاشياء المحيطة به، ونقل نبضه وقلقه وشوقه للحب ، والامن الى العالم الكبير الذي يلفه ويمتزج به ويلتحم معه بالف وثاق ، على قدر العزلة النفسية التي يخلقها خوفه في الليل وفي ظل الموت :

أنا في خندقي الرطب المقرور ..
التمس الدفء ..
سكن العالم ..
سكنت انفاس الظلمه ...
حولي وانداحت اصوات الليل المذعور ..
في حضن الصمت ...
سكن العالم ...
حتى موجات البحر المنسحبات ..
تتعانق والشاطيء الفين غريبين ...
وتلاصقت الاشياء بحضن الاشياء
وانا مقرور
الكون مخاض تزخر فيه الرغبه

الشاعر هنا ، يبرز شعور المحارب بالوحشة وبالبرد ، باظهار العالم الذي يحيط به غارقا في ضمة طويلة تتلاقى فيها الاشياء .

وهو يبرز فظاعة المأساة الرهيبة التي يعيشها المحاربون القابعون في الخندق ينتظرون موتهم ، باطلاق عنان احلامهم التي تصور لهم العيش الرغيد في عالم بهيج بعيد عن الحرب . وترتفع الصرخة المشحونة بالحسرة وبطلب المستحيل :

ماذا لو غنينا .. حتى نفنى في اللحن المراح !
حتى نملأ وجه العالم بالفرحه !..
ماذا لو تركونا نحيا ؟

ولكن الشاعر يأبى ان يخضع اشخاصه لقدر اعمى لا يرحم . انه يفتح باب الامل على مصراعيه . ان بطله ينتصر في النهاية على الموت وعلى الليل وينادي حبيبته :

سأراك غدا ! ومعي اغلى ما تركته الايام
شيئان .. اثنان .. عينان وايماني بالغد .

اما القصيدة الاخيرة « بغداد في الصف » لمحمد مهران السيد، التي تغني ثورة ١٤ تموز المظفرة فتنتهي كذلك على نغمة التفاؤل والامل ذاتها :

المجد للانسان يصنع فجره ...
رغم المجازر
المجد ، يا عصر انتصارات الشعوب
للتآخي والتآزر

وهي تعبر عن هذا التفاؤل حين تحاول ان تظهر الانقلاب العراقي الاخير كمحاولة جذرية للتخلص من طابع الشرق القديم ، كما صورته قصص الف ليلة وليلة على لسان شهرزاد .

شرق التكايا ... والنذور
شرق التمائم .. والبخور ..
.. شرق النخاسة والحريم ..
شرق الاساطير العجيبه ..

وهذه الفكرة ايضا ليست جديدة . فقد بليت من كثرة ما استعملها شعراء عرب واجانب ، اذكر منهم ناظم حكمت ونزار قباني.

ولست اجد ، الى جانب ذلك ، اشياء جديدة كثيرة في القصيدة ، ما عدا سهولة السرد وموران الحركة النابضة فيها ، عندما حاولت ان تصور حياة الشرق في عهوده القديمة . وهذا الجيشان في تصوير ادق التفاصيل من الحياة نوع نادر في شعرنا . ولا نجد له مثيلا الا في الشعر الجاهلي ، وفي شعر فرنسوا فيون .

اما ما عدا ذلك ، فالقصيدة عادية لا تقف في مستوى قصائد اخرى قرأناها للشاعر ولا تزيد كثيرا في مخزون شعرنا النضالي .

علي سعد

القطار ... يخترق الزمن والبشر

قصة بقلم عبد الهادي البكار

منذ سنين امارس عادة التدخين ـ تدخين التبغ والرجال ، وقبل ان يأتي الاشتعال على السيجارة كلها ، ارميها من بين انملي الصفراوين ، ادوسها بقدمي ، اضغط عليها حتى اجعل منها سطحا رقيقا لا انفاخ فيهولا امل . واجد ان هذه الرغبة تكاد ان تكون مستديمة عندي : ان افقد كل الاشياء حيويتها ، ثم اقف بين صفوف المتفرجين اهزأ من هذه النهاية التافهة التي يمكن ان تنتهي اليها اخيرا كل الاشياء على وجه العموم .

كنت صبية مثل الورد المندى عند الصباح ، اما هذه الصورة التي تعكسها لي المرآة المثبتة في (المصعد) ، فانها تؤكد لي من جديد كما تؤكد لي كل المرايا الاخرى ، انني في الطريق الى النقطة التي بصب فيها أخيرا ، السمو ، والمثل العليا ، والمبادىء بشكل عام : التفاهة،والموت. لا اعتقد ان هذه (السيجارة) التي تعريني منذ الان بعينيها ونحن ما زلنا متجهين في (المصعد) نحو الطابق الثالث ، قد لاحظت انني استدرت فجأة الى الجهة المقابلة ، حين برزت صورتي المنعكسة بوضوح في اللوح الزجاجي المصقول ، واخفيت وجهي بكفي ، وتنهدت بمرارة ، ثم بكيت بصمت .

كانت الخمرة تتسابق متراكضة في عروقنا نحن الاثنين ، بنشاط مخدر ، لقد كرعت منها بغير ان اعد الاقداح ، اذ ان السكر كلما توغل في اعماقي ، ذاهبا بي بعيدا نحو ذكرياتي الغائرة في صدر ماضي القذر ، اذكى بي الرغبة في الاحتساء اكثر فاكثر ، فاستزيد منه مبتغية الضياع . تمنيت اكثر من مرة وانا انفث الدخان ، لو انني خيط في هذه الحزمة الدخانية التي تتلوى بحريتها في الفراغ ، مارة بالمعالم التي تختارها هي فتتلمسها كلها ، كما تشاء .. ثم تمضي في الفضاء .. من غير هدف .. ضياعا يذوب في ضياع .. وكلما مزجت في حلقومي الدخان بالخمرة، احس بالثقل وانا ادفع هذا المزيج الى الداخل ، مرة واحدة ، ثم استسلم لحزني ومرارتي والكآبة . ولكنني في هذه الليلة،وبالرغم من انني احتسيت ما لم اعد من الاقداح الملونة ، لم ازل بعيدة عن الضياع . ان في رأسي شمسا متوهجة ، تفضح كل التفاصيل والحركات . وهذا المصعد المتحرك يقربني من الخطيئة التي اعتدت ان اشربها ببساطة وسهولة ، كل ليلة ، مرة .. مرتين ... واحيانا اتوه عن العد !

بعد ثوان يتوقف المصعد .. وتفتح (السيجارة) التي اعددتها للتدخين والاستهلاك ، الباب الخشبي ، لاتسلل عبر العتمة ، نحو غرفة لم أزرها من قبل . لقد اعتدت الا تفاجئني الاشياء الجديدة .. فقد مات عندي عنصر المفاجأة ، وتيقظت البلادة والسخرية والهزء واللا اكتراث.

انا الان راقصة ، ارتدي لباسا مغريا ، يطل منه فخذاي بوقاحة كل ليلة ، ليتمرغا في الاضواء ، ويستحما في بحر من الدخان المتصاعد من جميع الجوانب ، فاذا ما نالت القبول لدى احد الزبائن، دفع المساومة اولا باقداح كثيرة من الشمبانيا يشتري بها شجاعته ، ثم يشتريني بعد ان يفوز بالوقاحة ، ليجرني معه اخر الليل ككلبة ودود . لقد تعودت ان انفصل نهائيا عن جسدي حين يملكه الزبون المشتري ، احيانا بوساطة الاغفاء ، واحيانا اخرى في رحلة خيالية حزينة نحو الماضي.. نحو الطفولة الحلوة التي تبخرت الى الابد .

اسائل نفسي احيانا « الى اين ؟ » و « ماذا اخيرا ؟ » وحين تغمرني الكآبة التي يولدها هذا التساؤل باستمرار ، اهرب منها بانفراجة الشفتين الملونتين بالاحمر والخطيئة والقبل . منذ ساعات مارست اذ انا في الملهى ، عادتي في التهرب من هذا التساؤل المتعب . كان الى جانبي ، الشاب ذاته الذي يعد جسده ونفسه منذ الان بحرارة ، وكان الملهى مزروعا بالاضواء الملونة ... وعلى بعد عدة مناضد مملوءة باقداح الخمرة والفاكهة والفراغ والمرض ، لمحته ينظر الي باصرار. قال لي فيما بعد ان اسناني اعجبته ، وان بسمتي مثيرة الى حد ينشط الشهوة الراكدة . كانت عيناه الصغيرتان تبدوان لي عبر السكر والدخان والاضواء الزرقاء ، كومتين صغيرتين من العتمة ، فيهما شيء ما .. شيء جاذب ، مغر .. كان يبدو حزينا بالرغم من انفراج شفتيه ، وتساءلت عما اذا كان يهرب مثلي هو الاخر ، من : (الى اين ؟)

لم اكن اخاف من الموت : ولم يكن تساؤلي ذاك الذي يخلف في الكآبة باستمرار ، ليرجع الى الموت الى العدم . كنت فقط ـ ولا ازال ـ احاول النفاذ بوساطة هذا التساؤل الى عالم انظف ... الى ليل خال من رائحة الشهوة والخمرة والزيف ... الى زوج واولاد ، فلقد اضعت حتى الان سبعة اولاد ، اسقطتهم مني في تيار من الدم والحزن والندم ، في حجم الجرذان الصغيرة .. وبهذه الوسيلة فقط ـ الاسقاط ـ استطعت ان افوز بالقسوة التي يستعين بها الضعفاء والجبناء عادة للتمكن من السيطرة ، او من المآزق التي تضعها فيطريقهم احيانا المثل العليا ، والسمو . لقد اعتدت ايضا ان احمل نفسي كرات القسوة لتساعدني على الهبوط مباشرة الى اعماق الخطيئة .. الى الحضيض ، اغرق في النتن والخمرة والشهوة .

كان الشاب يبدو لي انه في المرحلة الاولى بعد ، ولكنه بالتأكيد لم يتمكن بعد من الفوز مثلي بعنصر القسوة . فهو لم يستطع الهروب من هدف بسمتي . لقد اصطدته بها بسهولة ، كقطة طريفة . ولقد اثارني منه غموض عينيه الصغيرتين فعلا . شعرت بتيار ضئيل من الرغبة في تدخينه واستهلاكه . ان فيه شيئا من تحسين .. وشيئا من ابراهيم .. لقد خلفت (تحسين) في دمشق .. وخلفت (ابراهيم) في بغداد ... وفي احيان كثيرة اشعر بشوق ملح للالتقاء بهما . انني اخلف في كل بلد اتركها مغامرات كثيرة ، تبقى في ذاكرتي صورة احداها ـ اقواها على الاصح ـ . لم تكن مخلفاتي في (طهران) مثلا كفيلة بان تتكرر صورها مرة اخرى في مخيلتي . لقد جبت بلادا كثيرة ، ونفذ فخذاي البضان من خلال الثوب المقصب ، في اكثر من مئة مسرح ، كذلك كنت انفذ الى قلوب الاغبياء من الخمورين ، ثم الى محافظهم ، بوساطة هذين الفخذين العارمين اللذين اصيبا بعمى الاجساد ، فلم يعودا يميزان بين جسد

وجسد .. ولكنني سرعان ما اعود الى قوقعتي المعتمة بعد ممارستي عادة تدخين الرجال .

اكثر من ذلك .. هذا الشاب الصغير ، ذو العينين الغامضتين الحزينتين يعيد الي بعض صور طفولتي .. آه يا ايام الطفولة الزاخرة بعبق البراءة، وآه .. يا ايتها الخطيئات المتكدسة فوق جسدي ككومة من العقارب المتراكمة . ان الصور تأتيني مهزوزة ، يحجبها عني الخدر والنعاس والتعب . اكاد اتبين عبر هذه الستارة الكثيفة الفاصلة من الزمن ، القرية التي ترعرعت فيها .. قرية ذات احجار وارض سوداء ، في حوران . الرجال هناك قساة ، والنسوة تعودن على تأليه رغبة الرجل . كنت اشعر بامكانيتي وقناعتي لتقديم نفسي وجسدي لاي رجل يمكن ان يتيح لي فرصة الاطمئنان والكتمان . كان ابي فقيرا لدرجة مخجلة ، وكانت امي جميلة خلفت بنات كلهن جميلات ، انا اوسطهن. كنت اشعر احيانا بالطموح ، فاتخيل ان ابن امير القرية قد احبني وتزوجني .. وفي احدى الليالي شعرت بطموح ملح للسفر الى دمشق المدينة .. في دمشق المدينة يعرفون قيمة المرأة الجميلة ، والشوارع ليس فيها من روث البقر او الابل .. ربما يرشون هنالك رائحة الزنبق في كل مكان . وذات ليلة كنت فيها وحيدة واهلي في ضيافة جيراننا ، تعريت تماما امام المرآة ، واكتشفت امكانياتي .. وفوجئت بانها هائلة .. وتخيلت هذا الجسد البض وقد انحسر عنه الثوب البدوي الاسود ، ولفه ثوب هفهاف رقيق فاضح.. وانحسرت ايضا هذه (القمطة) التي تضم الرأس كلها ، فانسدل الشعر الفاحم من بعد متمتعا بحريته في الانتشار ... اي اغراء ! واية روعة يا زاهية ؟!.

★

كنت اطوي الليل احيانا من غير طعام . وبدأت اشعر بقيمة ان تكون المعدة ممتلئة ، ولم يكن في استطاعة ابي ان يعمل اكثر من فلاح مساعد.. واحيانا كان يمزقني بكاء امي، وشكوى شقيقاتي الصغيرات ... وفي نفس الوقت ، كانت فكرة الهرب تدق رأسي باستمرار، بينما معالم جسدي تتوضح وتتميز وتتضخم . وفي ليلة ليس فيها ضوء فاضح ، كان سائق السيارة الكبيرة الذي جاء الى قريتنا من دمشق ليشحن اكياس القمح، يضمني بين ذراعيه بوحشية ..

كانت السيارة تهزني بعنف وانا بين اكياس القمح الممتلئة ، وكانت تؤلمني في انضغاطها علي .. الا انني كنت اشعر بالخوف كلما توقف محرك السيارة فجأة ، ولا يلبث الاطمئنان ان يعود الي اذ يتحرك المحرك من جديد ، آخذا بي نحو المدينة .

وفي دمشق ، قال لي السائق المخمور ، ان لديه زوجة واطفالا ، ولكنه سيسكنني بيتا يستأجره لي . وفرحت .. لم يكن هو بالذات الهدف الذي ابتغيه .. كانت في راسي صورة مجهولة لامالي ، ولكنها كبيرة . كنت اريد من المدينة ان تقدم لي اشياء غير محدودة .. ان تقدم لي اشياء غير محدودة .. ان تقدم لي كل ما ارغب .

وبعد ايام ، غالب السائق العشيق في رحلة بعيدة لم يعد منها على الاطلاق. قالوا انه قد مات . وتعودت بعد ذلك ان اجوب الشوارع قبل ان اتعود اخير ا ان اجوب المدن .. وكنت الفف نفسي لكل من رغب بي.. كان احدهم مرة طبيبا يداوي المرضى .. عرض علي ان اكون في عيادته ... ولم امانع . وبعد شهر ، بدأت اشعر بالاهانة . كان هنالك رجل آخر يعرض علي وظيفة بمرتب احسن: امرأة تجلس ليراها السكارى فقط في حانته . وسرعان ما انتقلت من رائحة الدواء الذي يدخل الجسد فيشفيه او يميته ، الى رائحة الدواء الذي يدخل النفس فيشفيها او يميتها ايضا .. واذا بي فجأة اجلس كالمزهرية خلف منضدة الحانة الرطبة ، (موديلا) لاحلام المخمورين ، تماما كتلك التي تتسمر في وضع معين تحت رحمة الفنان الرسام ، واما انا فقد كان علي ان اتسمر في وضع الاغراء امام ممتهني الاحتساء والهروب من قصصهم الحقيقية . ولم اقتنع بهذه النتيجة ، ولم تكن هذه هي الصورة الحقيقية لاحلامي المجهولة . كنت ارتحل الى امام — او الى وراء — لا ادري — .. كالمسافر بالقطار يمر بعدة محطات .. قد يتوقف في احداها مدة طويلة ، ولكن يبقى عنده شعور من ينتظر الانتقال بعد مدة ، فهو لا يلبث ان يستانف الحركة نحو النقطة الجديدة الاخرى . كان جسدي هو القطار الذي انتقلت به من القرية الى المدينة ، ومن العيادة الى الحانة ، ومن الحانة الى الملهى المزخرف بالصخب والزيف ، وها انذا على رصيف المحطة التي طالت فيها اقامتي سنين عديدة .. سنين ثقيلة كالكراهية .. سنين متباطئة المرور كساعات الاحتضار .

★

اصعد يا مصعد ... اصعد يا مصعد نحو المصير .

— تفضلي ...

وفتح لي الشاب ذو العينين الحزينتين باب المصعد ، ودلفت منه نحو غرفة جديدة لم ارها من قبل .. ككلبة ودود .. بينما اخفى ظلام الممر بحرا من الدموع والشقاء اغرورقت به عيناي وصدري .

القاهرة **عبد الهادي البكار**

مُناقشات

الى محيي الدين محمد

ثلاثة مواقف ثورية..

الفوضوي ، الحزبي ، الشاهد

بقلم رينه حبشي

لا اقصد هنا الى تحليل هذه النماذج الثورية الثلاثة : الفوضوي ، الحزبي ، الشاهد ، انما اقصد الى الجواب على نتيجة ما كتبه السيد محيي الدين محمد في العددين الاخيرين من الاداب ، لانه تكلم عن تحليلي « للشاهد » في كتابي : « هل نقدر ان نصنع التاريخ ؟ » (١)

اخشى ان يكون مدلول « الشاهد » لم يظهر للسيد محيي الدين محمد غامضا الا لانه غير بسيط ، ولانه رآه كما يبدو في فصل من « هل نقدر ان نصنع التاريخ ؟ » حيث لم اتكلم عنه .

وبالفعل فان المصدر الذي أشار اليه هو تحليلي لرواية« الساعة الخامسة والعشرون » ، الذي يطرح مشكلة التقنية ، لا مشكلة الثورة . (٢)

***

كل ثورة هي وليدة « اللا » و « النعم » . انها تنقض الوضع الحاضر وتريد بناء وضع جديد . الوقوف عند « اللا » يؤدي الى نموذج الفوضوي . المسارعة الى « النعم » دون تأمل ودون وعي المسؤولية تؤدي الى نموذج الحزبي .

اما اذا اردنا البناء بتمعن ومسؤولية ، منقذين ما يمكن انقاذه ، فنحن اما نموذج الشاهد . يمكن للشاهد وحده اذ ذاك ان يحقق نموذج الحزبي الحق . ووحده يمكنه ايضا استخدام العنف اذا كان ضروريا .

١ ــ يريد الفوضوي قبل كل شيء ان يهدم الوضع الذي يثور ضده . لكنه ، اذا لم يكن في الوقت ذاته قد هيأ المستقبل ، لا ينتج غير الهدم ، وتفلت نتائج ثورته من رقابته وقد ترتد ضده .

٢ ــ ويهدف الحزبي من وراء الهدم الى نظام جديد يراه الافضل . وهو ، اذ يرى نفسه وحيدا ، عاجزا تقريبا ويرى ان في امكان القوة وحدها ان تهزم قوة اخرى ، ينتظم في حزب . الحزب مخطط ، طاعة ، جمهور . انه مخطط في كلمات بسيطة لضم العدد الاكبر من الناس وهو طاعة لان الحزب لا يقدر ان يأخذ برأي كل فرد ، ومن هنا يطلب عمليا من كل شخص رضوخا وغيابا للتأمل الشخصي الذي يراه الحزب ضروريا للعمل ، ــ بحيث ان الحزبي لا يحرِّك : انه محرَّك ، يقوده الحزب او الرئيس . اخيرا على

(١) عرض التحليل في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، في صدد مسرحية كامو ، « العادلون » . وقد شرفني الدكتور سهيل ادريس بترجمة جزءكبير من هذه الدراسة في احد الاعداد الاولى من « الاداب » .

(٢) نتيجة هذا التحليل الاخير هي ان التقنية قوة وان القوة ليست ، بحد ذاتها ، صالحة ولا سيئة . انها تأخذ دلالتها في استخدام الانسان لها. وبمعنى اخر ، اذا كانت نتائج التقنية سيئة ، فيجب الحكم على الانسان وليس على التقنية ذاتها . وهذا ينطبق على تقدم العلم ايضا .

الحزب ان يظهر بمظهر جمهور ما ، جمهور غفل ، يحمل كل فرد ، بدل ان يبني بالقوى الشخصية لكل فرد . هذا الشعور بان قوة لا حدود لها تحملنا ، موات الحماس ولتفجير الطاقات كلها .

بيد ان هذه العناصر الثلاثة ــ مخطط ، طاعة ، جمهور ــ قد تقود الحزبي للتخلي عن ذاته ، ولفقدان حاسته النقدية ومسؤوليته الشخصية بحيث انه غالبا ، يتخذ ، كحزبي ، احكاما يرفض دائما اتخاذها ، كانسان.

٣ ــ الشاهد اخيرا هو الذي لا يتخلىعن التأمل، ولا عن المعرفة الدقيقة للوضع ، ولا عن وضوح بصيرته ، ولا عن الارتباط بمسؤوليته الشخصية.

يكمن للشاهد ان يصير حزبيا وينضم الى شاهدين اخرين ، شريطة ان يقيِّم حيث يدعوه الامر . قد يصير الشاهد فوضويا ، الا انهلا يقبل بالعنف الا مكرها وحيث لا يمكنه ان يفعل خلاف ذلك . بيد انه حينذاك يتخذ قرارين : انقاذ ما يمكن انقاذه ، باديء بدء ، دون ان يهدم الا قصد ان يبني بشكل افضل ــ ومن ثم التماس الحب اكثر من التماس العدالة ، بهذا القرار الاساسي الذي يملي موقفه كله ــ لا تخليا عن العدالة ، بل طلب الى الحب ان يتجاوزها ، لانه يعرف انها تتركنا دائما اعداء وغير مقتنعين ، والحب وحده قادر على التوحيد وعلى انقاذ العدالة .

هنا يبدو ان الفوضوي والحزبي ليسا شيئا اخر ، غير خيبة الثورة ، في حين يكون الشاهد وحده ثوّريا صادقا يساعد بنائيا في تقدم التاريخ.

***

ولا اظن اذ اعتبر هذا كله ، ان السيد محيي الدين محمد كان محقا في قوله عن مفهومي للشاهد بانه مفهوم « سلبي » (١)

لذلك ينتهي كتابي « هل نقدر ان نصنع التاريخ ؟ » بهذا الجواب الذي يطرحه العنوان :

« تلكم هي الامثولة المفردة للتاريخ وليس هنالك غيرها . انها امثولة الشجاعة والمسؤولية . انها تضع بين ايدينا ثقل الماضي والمستقبل ، متوسلة الينا توسل الاعتراف ، ان نكشف سرها (غناها) في صميم الحاضر . هنا مأساة الحاضر التي تعني ان التاريخ مرتبط بعزمنا وانه ينتظر كل شيء من كل منا ، وان مهمتنا ، ان نجعل من كل حادثة صعودا انسانيا . يقول التاريخ لنا الا وقت لدينا للاضاعة ، ان انقاذ كل شيء « ممكن في كل لحظة . »

رينه حبشي

(١) لا ارى كذلك ان السيد محيي الدين محمد كان محقا في توكيده ان الشخصية هي مثالية وان الوجودية تؤول الى الوجودية الملحدة . ولا اعرف من جهة اخرى ، اين وجد مفهوم « الرؤية المسيحية للتاريخ » . وليسمح لي ايضا بهذه الملاحظة :

اذا لم نتطلب من الفلاسفة والعلماء مزيدا من الشكوك في توكيداتهم ، فكيف نتطلب اذن بعض الصلاح من السياسيين ؟

كبوة شاعر

بقلم وداد سكاكيني

تعود قراء الشاعر الكبير الاستاذ شفيق جبري ان يطالعهم بقصائده التي طالما هزت شعورهم الوطني والانساني بمعانيها الصادقة وقوافيها الفخمة التي ازجاها اغاريد وصيحات في نضال العرب للتحرر والتقدم وتطلعهم الى حياة يسودها العدل والعلم والائتلاف ولولا تجاوبه مع شعبه في الالام والامال لما عبر احساسه المرهف وبيانه البليغ عن الخطوب والتناصر والفرحات بشعره الذي ترك في دنيا العرب دويا ، وتغلغل في السجايا والنفوس ففذا شعورها بالقومية والمثالية وتذوق الجمال في الطبيعة والحياة .

لقد عرف الشاعر شفيق جبري بمواقفه الادبية والوطنية ، فما اقيم مهرجان او منتدى حتى هز فيه الاحساس بالنخوة والعروبة والامجاد بشعره الرصين ، غير ان قصيدته الاخيرة (1) التي القاها بصوته الجاهر في حفل التكريم لذكرى شوقي بالقاهرة منذ قريب ، لم يكن فيها كما عهده قراءه ، فان هذه القصيدة البائية ما كانت تصلح في وزنها وقافيتها ورويها ومعانيها ، لتكريم شاعر احبه جبري وعده في يوم من الايام خليفة المتنبي حتى غلا في رايه واعجابه بشوقي فقال انه لم يات بعد ابي الطيب شاعر مثل شوقي فسامحه الله ، وان لم يسامح في قصيدته الاخيرة التي كانت فجاءة خيبت امل المعجبين بشعره وجعلت الهمسات والتعليقات تدور حولها في المجالس والندوات .

فهذه القصيدة العمودية التي ما يزال شاعرنا الكبير حفيظا على نسقها وبنائها لم يكن في اكثر ابياتها اثر او لمحة من التجديد والابداع ، ولو ان الزمن مضى عليها وجهل اسم قائلها لعدت من شعر الاقدمين ، لا في فورة التألق في الشعر العباسي والاندلسي بل في فتور الحركة الادبية وشيوع الصفة اللفظية ، ولردها الباحثون والمؤلفون الى الشعر التقليدي الذي تكررت فيه الصور المتداولة الدانية والمعاني الصحراوية الجافة ، ولقد تساءل الاستاذ جبري عن هياج الحمى في مطلع قصيدته فكان في حسبانه ووهمه لهبوب النسيم من شاعر العرب شوقي حتى انبعثت ذكراه، وما كانت الا كعاصف يثور او اعصار يهيج ، فيهتاج الحمى من جرائه ، اما النسيم فلا يدعو للثوران والهيجان ، وقد فاتت الاستاذ جبري روعة المطلع في قصيدته ، وكم غلا القدماء والمحدثون باتقان الفاتحة والاستهلال، وهو من المنسحبين على المثل الفنية التقليدية ، ومن دأبه ان يطالع قراءه بوجوه القصيد .

وفي المقطوعة الثانية من قصيدة جبري هذا البيت : « اية شوقي لو كان للشعر رب جعلتك الاذواق للشعر ربا » وهو بهذا يخرج من طبائع التفكير الاسلامي الى مياسم الفكر الاغريقي حين كان لاهله ارباب « وهل فات شاعرنا الكبير ان للشعر نفسه ربا عند اليونان يسمى « موز » وربات الفنون لديهم تسع ،فكان جميلا من الشاعر ان يضع كلمة الفنون بديلا من الاذواق التي لا تبدع الارباب وانما الفنون هي المبدعة .

وفي هذه المقطوعة شبه جبري شعر شوقي تارة بالنسيم وتارةبالعضب اي السيف ، ولا يجوز في التشبيه التمثيلي الا ان يكون منتزعا من قياس واحد فكان على الشاعر ان يشبهه طورا بنسيم الصبا وطورا بالاعصار ..

اما في المقطوعة الرابعة التي وقفها جبري على غزل شوقي فيخيل فيها الى القاريء الذي لم يعرف هذا الغزل ان شوقيا ملأ دواوينه من هذا اللون ، وما كان فيه الا تقليديا على طراز القدامى ، لكن الشاعر جبري تجاوز الحد في وصف هذا الغزل حتى جعله للسامعين والقراء ماديا حسيا منغمسا في الصبابة والدعابة يتلاقى فيه العناق ضما وشما ، ويهيج فيه هوى الشيوخ « واقوى غرام المرء في حين يهرم »

ومن هوى جبري في الطوابع القديمة بشعر العرب ترديده الفاظا تجافى عنها ذوق العصر مثل الرضاب ، وارداف بقافية نابية او اصطناع المفعول المطلق والبدل المكرور

ويضيق المجال في تتبع السقطات في كل مقطوعة فقد كرر الاستاذ جبري كلمات بعينها في الصدر والعجز حتى كاد لا يخلو بيت من هذا التكرار وقد غلبت عليه صناعة اللفظ في المزاوجة والجناس والترادف ومعاني الصحافة اليومية وجاء بالفاظ غلاظ غير مألوفة ، منها الدرفس والقضب والعضب والرضب وامثالها وان اضطرته اليها الاوزان والقوافي، اما الابيات المنظومة التي فقدت المعاني الشعرية وندت في القصيدة فهي كثيرة منها :

واتوه بالاكل والشرب حتى ... رات العين اكله والشربا

ليتك اليوم في الجماهير والشعب تغني جمهورنا والشعبا

فاذا ما سجا فؤاد ولب ... هجت منا فوادنا واللبا

الا تردك هذه الابيات ايها الطالب المثقف اذا كنت متتبعا لادبنا الحديث وعائدا بالذكرى البعيدة الى مهرجان المتنبي بدمشق – الى قصيدة لاحد اساتذتنا الاجلاء ممن نبغوا في علوم العربية والتحقيق اذ قال في مطلعها :

عاش فوق الثرى وتحت التراب ... خالدا في قلوبنا المتنبي

فالقصيدتان في مهرجاني ابي الطيب ١٩٣٦ وشوقي ١٩٥٨ من نبع متشابه وقافية واحدة وان اختلفت حركة الروي وتفاوت الطعم والمذاق ، على اني لا اغض من بعض الابيات الجبرية التي تلحق باخواتها الروائع من شعره السابق ، وقد افسح شاعر الشام بقصيدته هذه مجال النقد والتهكم والادعاء لبعض المستهينين بادب الكبار وعبقرياتهم ليزدادوا سخفا وبطلا في تجديدهم ومحاولاتهم

ولا افقد الامل بشاعرنا الكبير ، فلسوف يأتينا وقد تفرغ للانتاج والتاليف والشعر بما يرفع شأن الادب في هذه البلاد ، فان شوقيا لم يخلف من الشعراء من يحفظ للعربية رونقها الاصيل ومجدها المعاصر غير جبري وامثاله من الموهوبين المعدودين

دمشق — **وداد سكاكيني**

(1) راجع العدد السابق من « الآداب » نوفمبر ، ففيه القصيدة كاملة

مشكلة نقد الابحاث..!

بقلم محي الدين محمد

لنقرر قبل كل اشهار للسلاح ، ان المقال او البحث ليسا سوى وجهتين للنظر . بؤرتين نرى من خلالهما الشيء المنظور ، وكل بؤرة نظر تختلف نوعيا عن الاخرى طولا وعرضا وعمقا ، وليس كل من ينظرون خلال فتحات عديدة في جدار يشهدون نفس المنظر ..

البحث هو كذلك ، باختلاف العمل الفني ، فاذا كان ناقد يباشر عملية جز صوف الفنان في عمل فني ، فانه يرتبط منذ البداية بحدود هذا العمل ولا يخرج عنه ، اما حين يكون العمل المنكود مقالا او بحثا فان الناقد يتجاوز الحدود التي اعلن عنها الكاتب ليصطنع حدودا من مخيلته هو ، وذلك لانه ينسى ان المقال هو وجهة نظر فيبادر الى رفض كلمة الكاتب لاعلان وجهة نظره هو ..

المفروض ان ينشأ بين الناقد والفنان شيء من علاقة التقابل ، الذي هو تسليم الناقد بالخوض - في - هذه - المغارة بالذات ، والمبارزة بالسلاح ذاته الذي اختاره الفنان ، ولا يصح ، ولا يمكن ان تقبل محاولات الناقد الخبيثة للتغرير بالفنان ، والعمل على الاطاحة بحدود وجهة النظر التي تحميه ...

والتقابل يفترض شيئا من التضاد ، درجة خفيفة منه ، بين الكلمة الناقدة والعمل المنقود .. ويفترض ايضا درجة اكثر ثقلا من علاقة المشاركة والقبول .. ولذلك يصل الناقد في كثير من الاحيان الى اثارة الفنان الذي ينزع الى الاستعلاء (الناشيء من دعوة الفنان لكل نقد بوجهة نظر الناقد) ويخوض هذا الهم !.

اما حين تسخن درجة التقابل فتصل بين الناقد والفنان الى درجة التعارض ، فيستحيل ان يكون التوفيق والاخلاص سندا لهما .. ويمكن الوصول الى درجة التعارض بوسيلتين الاولى منهما هي اطراح وجهة نظر الفنان والتمسك بوجهة نظر النقد ، وتهدم هذه العملية كل البناء الجذري الفني هدما شاملا من الداخل ، والوسيلة الاخرى لذلك هي الفجاجة .. وما اكثر هذه الصورة الاخيرة في الاعمال النقدية بشرقنا العربي !!.

وليس الناقد حرا في ان يختار احد الطريقين، فليسا منهجين او مدرستين. انهما يعودان الى شخصية الناقد وتشريحه الفكري والنفسي والعصبي جميعا ، ومن هنا ينزلق الناقد من شخصية الاخر الذي لا بد منه كي يصبح العمل الفني اجتماعيا ، الى شخصية الحاكم الذي لا يريد شيئا اخر سوى - ذلك - بالذات !!.

تسخن درجة التقابل فتصل الى التعارض حين يهمل الناقد وجهة نظر الفنان ويحارب بوجهة نظره هو .. وذلك هو الخطأ الوحيد الذي نقرنه بمبدأ (نقد الابحاث) الذي تباشره مجلة الاداب ..

فلو اختارت المصادفة - بالنسبة لي على الاقل - وظروف الدكتور سهيل ، ناقدا اخر لذبح ابحاث العدد الماضي ، وليكن عبد الفتاح ابو راس ، لكانت النتيجة وجهة جديدة للنظر ، ولاضطررت ان احارب موضوعا جديدا جدا ، وتتوالى هذه النتيجة المفزعة فيما لو جندت الاداب مائة ناقد ، فيصبح علي ان اصارع مائة وجهة جديدة للنظر.. ولن اجد سوى الانتحار حلا فريدا ..!

اما لو كنت كتبت قصة او قصيدة ، فسوف يصبح الناقد مربوطا ومشدودا الى خيوط القصة والابيات بدون ان يستطيع التفلت ، ويصبح عليه ان يخوض النزال في ارض اخترتها وفي جو اخترته ، وبسلاح اعرف تماما انه ضد الخيانة ..

عملية نقد الابحاث تصل بالتقابل المفروض الى درجة التعارض ، وذلك حتمي ، اذا لاحظنا ان البحث وجهة نظر ، وليس العمل الفني كذلك ..

فاذا حدث - ويحدث ذلك احيانا وفي النادر - ان اضاف الناقد الى (دينامية) شخصيته ، درجة الفجاجة التي هي احدى الوسيلتين للوصول الى التعارض ، اصبح شائكا وصعبا ومستحيلا ان تمهد الارض بين الكاتب والناقد .! وبازاء ذلك ، ونظرا الجمجمة الطاحنة التي لا بد ان تحدث لايجد الكاتب - آسفا - الا ان يلقي بالقلم مكتفيا بقرض اظفاره .!

وقد قلت في مقدمة كلمتي التي نشرتها لي الاداب في العدد الرابع تحت عنوان: (حدود الفنون وحكاية الالتزام) ما يلي بالحرف « اذن يصبح السؤال الضروري بدل ما المقصود من الالتزام هو : هل كل الفنون تقبل الالتزام ؟! » وقلت كذلك « وفي هذا المقال حاولنا ان نضع للالتزام حدودا من ناحية خصوصية الفنون وعموميتها .. » .. وعلى هذا الاساس (عدم فوضى في مشكلة الالتزام ذاتها) امسكت بالقلم وخططت المقال .. ولكن الناقد الكريم حمل كلمتي اثقالا من ابعاده هو الذاتية فحاول ان يرد (جهلي) الى تمسكي بالتجريد .!

وانا اقول له : لو كنت انا مكانه وقرأت ذلك المقال (مقالي) وفاتت على الملاحظة السابقة (وهي اني لن اتحدث عن الالتزام في ذاته وطبيعته) لاعلنت فورا ، وبدون مواربة ان الكاتب مغفل ، ولا يفهم ما يكتب ..!!

تمسكه الجامد بوجهة نظره وحسب هو الذي ادى الى ان يشجب (اعترافي) بان المقال ليس شرحا للالتزام ، كما حاول هو ان يحدد من نقاطه الخمس غير الضرورية .. ثم انظر اليه يقول « لو كان لي ان اخوض في حديث (الفن والالتزام) لتحدثت بالتسلسل عن شاعر مثل طاغور .. الخ.. » في السطر ١٧ من كلمته ...

مسألة وجهة نظر اذن .! « لو كان لي!! » .. ولو كان ذلك متاحا لعشرة الاف رجل ، لخرجنا بعشرة الاف نتيجة مختلفة ولادى ذلك الى تشنج فكري لا طائل وراءه ..

وآه .. لو كان متاحا لي ان استاذن الدكتور سهيل في نشر مقالي مرة ثانية .!! بيد ان ذلك محال ، ولا بد اذن ان اطلب مد الايدي الى الرفوف لاجتذاب عدد ابريل من الاداب ، وقراءة المقال مرة اخرى .. متبصرين ، متأنين ، مخلصين !..

ولندع الاناة تعود الى الاستبصار ، قبل ان يقود الاستبصار غير المتأني الى الوقوع في الخطأ ، ثم وجوب الدفاع عن هذا الخطا بدافع الحماسة ، والامر الواقع ...

القاهرة — محي الدين محمد

دفاع عن قضايانا

بقلم علي شلش

ما اقسى ان نعالج قضايانا ببساطة وانعزال عن الواقع الثري .. تلك حقيقة واجهتني وانا أطالع مقال « نحو صف ثالث » للصديق نجيب سرور في عدد الاداب السادس .

فقد تردد لدينا في الشهور الاخيرة حديث طويل عن الازمة في الادب والابداع ، واختلف المعقبون في طبيعة هذه الازمة واسبابها . فمن قائل انها ازمة تنصرف الى الادب بالوانه المختلفة سببها الداعون الى الاتجاه الواقعي وتخبطهم في مفاهيمه ، ومن قائل ايضا انها ليست الا احتباسا في الطاقات الثورية لدى الكتاب الجدد ، ومن قائل اخيرا انها انعكاس للحيرة والقلق اللذين يتسم بهما العصر .. وهكذا .

وحين عقب نجيب سرور على ما يسمى بالازمة حصرها فيما سماه بالكهانة التي تسيطر على نقادنا الواقعيين ، وكذلك الوساطة التي تخضع لها عمليات الثقافة بالنسبة لمتلقى هذه الثقافة .. ذلك ما عبر عنه نجيب سرور في جريدة المساء منذ شهور . فاذا عدنا الى مقاله الاخير بالاداب فاننا نواجه بحكاية الكهانة وحكاية الوساطة مرة اخرى ...

والسؤال الذي نطرحه الان هو : « هل حقيقة ان حياتنا الادبية يسيطر عليها نوع من الكهانة ، تفرض وتتعسف ؟ » .. ذلك ايضا هو السؤال الذي اجاب عليه نجيب بالايجاب . غير ان المسالة ليست اطلاقا مسألة ايجاب او رفض ، بقدر ما هي تفهم واضح شامل للامور يعني الظواهر ويعالجها . اذن هل هناك وساطة وكهانة فعلا ؟ وهل تلعب الوساطة دورا في توصيل الثقافة الى الاجيال ؟.. لا شك ان « نعم » هي الرد السليم خاصة في بلد يقوم ببناء نفسه . غير اننا يجب ان نعرف ان هذه الوساطة لا تشكل « فعلا » دورا خطيرا في عملية التوصيل والتلقي هذه . وازدياد الحاجة الى التعلم والتثقيف – مع اتساع المدارك وانتشار الوعي – يؤدي بالوساطة الى الانحسار ، فتكون نوعا من التوجيه ليس غير . اما الكهانة – وهي مدعاة للجمود في اغلب الاحيان – فلا تخلق شيئا نافعا . وهي لم توجد لدينا ، ولم تفرض على ثقافتنا لسبب بسيط هو عدم وجود الامكانيات المنشطة والمدعمة لها الا في الحدود التي يرسمها النظام القائم ويدعمها ويقترحها . والذي عرفناه في الفترة الاخيرة هو مطالبة نقادنا الواقعيين لمبدعينا الجدد بالالتزام وتطويع الابداع لمواكبة الحركة القومية الواقعة في صراع مستمر مع الاستعمار العالمي . ويمكن ان نوضح الامر اكثر بالاشارة الى نماذج الشعر الجديد الكثيرة التي خرجت الى الناس في السنوات الاخيرة ، هذه النماذج جاءت – في أكثرها – حافلة بالنثر احيانا ، او بالشعارات والجلجلة احيانا اخرى . كذلك اصيب بعضها بتورم في المضمون على حساب الشكل كما قال نجيب . فما سبب ذلك . هل هم النقاد ؟ لا . فقد دعا النقاد الى مراعاة التوازن بين الشكل والمضمون . ان السبب الموضوعي الحقيقي هو التحام الطاقات المبدعة بالاحداث الوطنية المتفجرة خلال الصراع والنضال الوطني مما ادى الى سيطرة « الرؤية السياسية » . هذا من جهة المضمون ، اما من جهة الشكل فقد لاحظنا كثيرا من الشعراء الجدد يعتمدون – في التكنيك – على زملائهم الذين سبقوهم في الطريقة الجديدة . وكان هذا خطأ سبب سقوط كثير من النماذج . اذ ان الشعر الجديد حديث العهد وهو لا ينشيء تكنيكا وحده . وكان اغفال التراث الشعري العربي ونسيانه عاملا مهما ادى الى ضعف اداة الشاعر الجديد ووقوعه فريسة لكافة الامراض التي اصابت القصيدة الجديدة كالتقرير والتصقيل والتجريد والانشاء . ان كل جديد دائما يحمل معه في البداية اخطاء ما لم تحتوه نظرية علمية تقومه وتسنده . والشعر الجديد – حتى الان – ليس سوى محاولات للوصول به الى الشكل الفني المتطور المطلوب .. فاذا تعسفنا والغينا كل المحاولات ، فنحن لم نفعل شيئا . ومن هنا يكون علينا ان نحتفل دائما بالمحاولات الجديدة ، ان نقيمها ، ان نكتشف خصائصها ، ان نستخرج عناصر دفعها وتسليمها الى محاولات ابعد . ولقد لخصت الازمة التي يعانيها كثير من شعرائنا الذين تقدمهم لنا صفوف الناشئين في كلمتين هما : الثقافة اولا والتكنيك ثانيا ...

ينتقل الصديق نجيب الى الحديث عن حاجتنا الى مراجعة ميزانيتنا النقدية والابداعية في السنوات الست الاخيرة . وهذا لا شك امر طيب يجب ان يسهم فيه الجميع بما فيهم نجيب سرور نفسه .

تحدث نجيب بعد ذلك عن الثقافة الانفصالية وانتقل الى النصف الثاني من القرن الحالي فتحدث عما اسماه بالصف الاول في الاتجاه الواقعي الذي يدعو الى ربط الثقافة بالواقع والحياة . يقول : « في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت حركة (بدائية !!) في طليعتها الشرقاوي والخميسي وصلاح حافظ وكمال عبد الحليم وغيرهم من ادباء الصف الاول . » وشرع يحمل عليهم قائلا : « كانت تنقصهم المعرفة ... كان ينقصهم الوعي.. كان ينقصهم المنهج » اما انتاجهم فقد تميز بتضخم في الرؤية السياسية سبب ورم جانب من جوانب المضمون على حساب الجوانب الاخرى وكذلك هزال الشكل وتهافته » .. هنا نتساءل : « ما هي المقدمات او المبررات الموضوعية التي دفعت بهذا الصف الى وجه الحياة ؟ » هذا ما لم يجب عليه نجيب سرور . وهذا ايضا ما نأخذه عليه . كذلك لم تكن تلك الحركة « بدائية » بل جاءت في حدود النظام الاجتماعي القائم وقتذاك وفي حدود الظروف الموجودة ، وفي حدود فترتهم ووضعهم التاريخي ، واذا اطلقنا الاحكام فقلنا : كانت تنقصهم المعرفة ، والوعي والمنهج ، فماذا يتبقى اذن بعد المعرفة والوعي والمنهج ؟! ان الاحكام هنا اصابها كثير من التسرع وداخلها كثير من التحامل ..

لقد ظهر الشرقاوي والخميسي وصلاح حافظ وكمال عبد الحليم «واعضاء الصف الاول « الاخرون في فترة – بدأت حوالي عام ١٩٤٦ – حافلة بالمتناقضات والطغيان في الداخل ، ومهادنة الاستعمار في الخارج . فماذا ننتظر منهم في ظروف كهذه ؟ ان العمل الايجابي هنا هو الكفاح السري.. ذلك ما كان . ولقد كانوا ايضا مبدعين . فهل صرفهم كفاحهم عن الابداع. لا ... ولم تكن تنقصهم المعرفة الا اذا كانت المعرفة هنا من نوع خاص يعنيه الكاتب ولم يفصح عنه . ولم يكن ينقصهم الوعي لانهم ليسوا خونة او مصابين بالعته والغباء . اما المنهج – ولم يوضح الكاتب اي منهج يقصد – فلست اعرف احدا يطالب الشاعر او القصاص بمنهج – ايا كان – يلتزمه في تخطيط ابداعه . ان المنهج خاص بالدراسة والبحث والمقال ليس غير . اما « منهجة » الابداع فمعناها تحويله الى صناعة .. ان الذي اطالب به المبدع هو « النظرة » لا المنهج ..

الواقع هنا انني لا ادافع عن افراد معينين . غير انني احاول رد الامور الى نصابها . ولست هنا اريد الخوض كثيرا في الظروف التي نشأ فيها

هذا « الصف الاول » . ولذا انتقل الى نقطة اخرى اثارها المقال .. يقول ان صفا ثانيا ـ يحمل الاتجاه ذاته ـ قد ظهر بعد هذا ... غير انه حمل ايضا مهمات ثلاثا هي ـ كما حددها الكاتب :القيام بانقلاب شامل في ثقافتنا ونظرتنا العامة ، ثم التاسيس للواقعية على ضوء الفلسفة العلمية ، ثم النقد الصارم لنتاج الصف الاول . وقد تكون هذا الصف ـ من الاستاذ محمود امين العالم والدكتور عبد العظيم انيس ـ مكملا للحركة ـ او الصف ـ السابق .

والى هنا نناقش مسالة الصفوف هذه . ما علاقتها بالحركة الواقعية ؟ ما المبررات الموضوعية التي انشأت الصف الثاني وجعلته وريثا ـ او مكملا ـ للصف الاول ؟ لماذا لا نضع الاستاذ العالم والدكتور انيس في « الصف الاول » ؟ ولماذا نتعسف فنفهم الحركة الواقعية على انها صفوف متراصة يخرج الواحد بعد الاخر دون مبرر .. ؟ هكذا اراد الكاتب. اما علاقة الصفوف بالحركة الواقعية فلا ادري لم شدد عليها نجيب سرور. ذلك ان تاريخ الحركة الواقعية في مصر ليس منفصلا عن تاريخ الادب في مصر في الفترة التي نشأ فيها . وهي ـ اي الحركة الواقعية ـ لم تنشأ لتنقسم صفوفا . كذلك كان « الصف الاول » ـ كما نلاحظ ـ من المبدعين. فاين اذن النقاد ؟ هنا كان العالم وانيس هم نقاده ـ اذا اخذنا بمسالة الصفوف ـ الذين اقاموا جزءا هاما من تطبيقاتهم على انتاج الشرقاوي وغيره . بالاضافة الى ان الفترة الزمنية كانت واحدة تضم كلا من الصفين .

غير ان الصف الثاني هذا يفشل في المهمتين الاولى والثانية . فقد تبدأ النهايات اي من مجرد المعايير النقدية كما بدأ الصف الاول من النماذج الواقعية في القصة والرواية والذي اعرفه هنا ان«المعايير النقدية» التي اخذ بها « الصف الثاني » لم تكن منفصلة عن الانتاج نفسه فقد كانت معايير كتاب « في الثقافة المصرية » من داخل اعمال الصف الاول، بل ومن داخل اعمال الصف الثالث ـ الذي سيجيء ذكره ـ اي من داخل اعمال نجيب سرور وغيره من « اعضاء الصف الثالث » الذي ظهر على الابواب .

ثم يقول : « كان نصيب الصف الثاني من الحساسية الفنية ـ من ملكة التذوق ـ اقل بكثير من نصيبه في الفهم .. بعكس الصف الاول » وهذا ايضا ليس صحيحا. اذ ان التذوق مرتبط بجودةالاعمال نفسها او ضعفها، واذا كان اختيار الصف الثاني للنماذج التطبيقية يحالفه نقص في الحساسية الفنية او التذوق ، فهذا يرجع ـ اولا واخيرا ـ الى اعمال الصف الاول واعمال الصف الثالث في الشعر خاصة . هل كان امامهم نماذج سواها . لا فالتذوق هنامرتبط بما هو موجوه فعلا من انتاج لا بما يجب ان يوجد . اما « بعكس الصف الاول »ـ اي تمتع الصف الاول بحساسية فنيةاكثر بكثير من الفهم ـ فهذا ايضا ليس سليما كل السلامة ، والا لتساءلنا اي نوع من الفهم هو المقصود ؟ ان الاحكام هنا غير محددة ، وغير موضوعية وهي غامضة في الوقت نفسه.

ويقول : « واذا كان الصف الاول قد تمتع بشعبية عريضة فاتجه الى ابعد قاريء .. فان الصف الثاني قد اتجه الى فئة من خاصة المثقفين التي امكنها ان تشارك في الطقوس السرية » .. فما هي الطقوس السرية ؟ ومن هم خاصة المثقفين ؟ اي نوع منهم ؟ تلك ايضا اسئلة لم اجد لها جوابا شافيا .

ثم ينتقل الى قوله ان « عبد العظيم انيس سكت عن النقد الادبي نهائيا ... ومحمود العالم راح يكرر نفسه .. اذن فقد اشهر الصف الثاني عجزه عن التاسيس للواقعية » .. الحقيقة انني لم افهم شيئا . فاذا كانت الواقعية شركة مساهمة مثلا يعمل فيها العالم وانيس اعضاء مؤسسين في مجلس الادارة ، هنا تستطيع جمعية المساهمين ان تنحيهم لانهم عجزوا عن التاسيس لاغراض الشركة . اما والواقعية ـ فيما اعرف ـ ليست شركة ، فلا معنى اذن في هذا الحكم ، طالما لم يوكل الى محمود العالم وعبد العظيم انيس القيام بالتاسيس للواقعية . وهنا ايضا يتبدى التناقض في مفهوم الصفوف . اذ اننا لو نظرنا الى الحركة الواقعية كحركة تغذيها وجوه وبراعم جديدة دائما ، وتستمد عناصر بقائها من تجدد الوجوه والبراعم ، لما وقعنا في ذلك الحكم الخاطيء .

ومن قبيل التناقض ايضا ما ذكره نجيب عن « الصف الاول » كصف يفتقر الى المنهج والثقافة والمعرفة ، والصف الثاني كصف راح يؤسس للواقعية مسلح بالفهم اكثر بكثير من الحساسية الفنية . هنا الامر واضح ولكنه ياتي فيقول : « لم يختلف دور الصف الثاني عن دور الصف الاول في شيء » ... كيف يتبدى الاختلاف بينهما منذ قليل ، ثم لا اختلاف بينهما هنا ؟

بقي الصف الثالثالذي يتكون من نجيب سرور وباقي الصف ، والذي نتمنى له كل النجاح ، وتحقيق ما فشل فيه « الصفان » الاخران ... يقول نجيب : « ومرت الايام واذا بكتب الفلسفة المادية تباع في المكتبات وفي اكشاك الصحف بل وعلى سور الازبكية ... فاتصل القاريء المصري لاول مرة بالمعرفة دون وسطاء .. فكفت المعرفة عن ان تكون طقوسا سرية واسال : « ماذا فعلت المعرفة بعد ان كفت « عن ان تكون طقوسا سرية » هذا ما يجب انيجيب عليه الصديق نجيب سرور .

الواقع انني اطلت الحديث . ولكن الذي اريد ان اقوله اخيرا هو وجوب التسلح بمنهج علمي موضوعي عند مناقشة قضايا كهذه حتى لا نقع في التناقض والخطأ والتعميم والتحامل وغير ذلك .

علي شلش

القاهرة

نقد الشعر بالعدد الماضي

بقلم محمد البخاري

بهذه الاهتزازة الكبيرة التي حركتها في وجداننا ثورة العراق المظفرة وضعت بين يدي العدد الممتاز من الاداب عن الثورة العربية في لبنان والعراق ، لتتجاوب روحي مع قصائده وبحوثه صدى هذه الفرحة ولاسترجع معه كل خفقاتها . ثم كانت كلمة الاستاذ الناقد رجاء النقاش فرصة جديدة لاستعادة القصائد والحياة معها لحظات جديدة .

غير اني احسست هذه المرة مبالغة في نقد الاستاذ النقاش ابعده في بعض ملاحظاته عن الموضوعية الخالصة ، فقد جعل لنقده مقدمتين او مقدمة ذات شطرين تحدث في احداهما عن صلاح الصباغ ومذكراته على انها المادة الاصيلة لو اريد التحدث عن ثورة العراق ، وتحدث في الشطر الاخر عن شعر المناسبات، كانت هذه المقدمة وحدها من الوضوح بحيث تكون ارهاصا لمسلكه النقدي لقصائد العدد الممتاز . وكان معنى هذا قبل ان ينهي اخر فقرة من المقدمة انه سيضع قصيدة « بغداد والموت » للشاعر حجازي في كفة على انها الوحيدة التي استخدمت مادة اصيلة وانه سيضع غيرها

في كفة اخرى على انها اشعار مناسبات فجة كخطب الجمعة .

ورغم ان ثورة العراق اعظم واشمل من مجرد احداث ومواقف فردية لا ننكر دورها واهميتها . ورغم المبالغة في التحدث عن « فن المناسبات » فما يمكن ان يكون هناك فن دون مناسبة والمناسبة هي مصدر هـــذه الانفعالة المحركة للوجدان الفني عند الشعراء. وان الشاعر الفنان الاصيل يعيش هذه الاحداث العامة بوجدانه وتختلط بمشاعره كجزء من الانسانية الكبرى ثميطغى احد مشاعرهعلى الاخر،وينسج من احاسيسهخيوطايسكبها في ابيات من الشعر تتدخل « صنعته الفنية » في ابرازها على نحو معين. ان الحديث اذن هو عن عمق المشاعر ونوعها وصياغتها لا عن المناسبـة المظلومة . رغم كل ذلك فقد اخذت اتتبع الاستاذ النقاش لارى تطبيقـه لمقدماتـه .

فاذا بهيقسو علىنازك الملائكةقسوةتجعله يتراجععنشيءمما قالويحاول ان يرفع عنها الاتهام بعدم صدق تجربتها في قصيدتها قائلا انها عاشت التجربة بعقلها لا بقلبها وامسكت بقلمها الصانع ولم تمسك بقلمها الموهوب

ومعاتفاقي مع الاستاذ النقاش فيضعف مسترى القصيدة الفنيالا انني ارى انه لم ينفذ الى الشعور الرئيسي في قصيدتها والذي طغى على كل ما عداه في نفسها حتى ابرزته وهو « شعور الفرحة » شعور اصيـل عميق صادق لا يعيبه ان تجمع له صورا عديدة مختلفة من المشاعر المادية والمعنوية . ان الانسان ليحس بفرحة نازك الحقيقية تطرق عليه كـــل احاسيسه دون احساس بأي تنافر من ضمة اب يتلقاها يتيم مختلطـة بجرعة ماء تروي ظمأه ونفحة نسيم يملأه انتعاشا . لقد ارادت نازك ان تعبر عن الفرحة وهكذا جاءت قصيدتها مرحة خفيفة توحي بان ثـورة العراق هي نهاية حاسمة لكل الالام .

ثم كان نقد الاستاذ النقاش لقصيدة نزار القباني نقدا سديدا موضوعيا وان كان قد اختار بيتا قلقا على انه الذي هزه . كل جرح وله ميعاده ـ يعطش الجرح ولكن ليس يفطم . ومع ما في هذا البيت من دفقة شاعرية الا انني لا ادري لماذا قال الشاعر (ولكن) وسط يعطش الجرح وليـس يفطم والمفروض انه اراد ان يقول يعطش الجرح ولا يفطم مع ان « لكن » تقتضي العطف على شيء مغاير

ويجيد الاستاذ النقاش في نقد اغنية محمود حسن اسماعيل ويقســو على فاروق شوشه رغم ايمانه بانه ما يزال يصعد الدرج. ان اتهام فاروق شوشه بالتقليد مع المبالغة في تحديد المقلد نابع من ان فاروق شوشـه كاغلب الشعراء الجدد لم تكتمل شخصيتهم بعد .

ثم نأتي الى بيت القصيد الى قصيدة « بغداد والموت » لحجازي ، وكان لا بد كما استنتجت من المقدمة ان يبدأ الاستاذ النقاش الحديث عنها بقوله « انها رائعة ناضجة الى ابعد حد يشعر القاريء انها قصيـدة تنبع من القرار البعيد » ...

ونقرأ النقد فيخيل للمرء ان الاستاذ النقاش معجب بالقصيدة « الى ابعد حد » وانه يتلمس ما يمتدحها به حتى ليدافع عما بدا من معايب.

وقد قرأت القصيدة اكثر من مرة وسمعتها من ناظمها واصارح بان بها بعض الصور الفنية الرائعة تصويرا وتعبيرا الا انه يعيبها شيئان رئيسيان اولهما انعدام شخصية الشاعر حتى ليمكن المرء ان يتصور انها لعدة شعراء ، والثاني انعدام الترابط بين اجزائها حتى ليجزم المرء انها عدة مقاطع او عدة قصائد ضم بعضها الى بعض دون اي محاولة لايجاد حلقات انتقال ، فهي تبدأ بداية تقليدية متهافتة من قبل ان يذبح كان ميتـا ـ يبكي ببغداد زمانا ميتا ـ يبحث عن بغداد بصور اخاذة وان كان يدس بينها الضعيف « كذبابة في الصيف لا يهزها تيار ريح » وان كان يبدع في وصف السرداب والفجر في سواد احرف على الورق والشمعة وجبـاه الرجال والعيون المشدودة نحو الباب واعلان ثورة دمشق .

ثم بلا مقدمات نسمع صوت صلاح الصباغ في حفرته يحلم وينتظـر وان كانحديثه يضعف خلال ذكر الشمس التيتشرق كل يومدون ان يدعها كف وذكر الايام الرتيبة ثم يعلو شيئا فشيئا حتى يهز .

طفلك القتيل ساهر تحت الرماد ـ ينتظر ان تكتبي بالفأس تاريخ المعاد وان يكن قد اضعف الصورة بجعل البطل الشهيد طفلا ينتظر .

ويصل الشاعر الى النقطة التي يصوغ فيها فلسفته التي جعلها الفكرة الرئيسية في قصيدته فلسفة الموت والحياة فيصوغها في اسلوب هريء تقليدي : الموت ليس ان توارى في الثرى ـ ولا الحياة ان تسير فوقهـالزرع يبدأ الحياة في الثرى ويبدأ الموت اذا ما شقه وبهذا البيت الثاني يحول معركة الحياة كلها الى موت فالزرع يولد في الثرى كما نولد في الارحام ويبدأ معركة الحياة كلها فوق الارض من اجل نمائه واستمرار وجوده ولو قال الشاعر ان البذور تنتزع وجودها من بين الثرى لكان ادل على المعنى ثم نرى الشاعر يضل وسط المعاني فيقول « فامنح هواك للذي يحيا واعط التراب ما استباحوا خنقه »

وتتساءل عن هذا الهوى وذلك الذي يحيا وذلك الذي نلقى به الى التراب لانهم استباحوا خنقه .

ويأخذنا الشاعر مرة جديدة الى صلاح الصباغ ولكنه ليس في حفرته هذه المرة بل معلقا على باب وزارة الدفاع فيجيد في وصفه وان كانـت الصورة قد بهتت منه حين جعل اطفال بغداد لا رجالها ، بغداد كلها . ومع هذا تتزاحم الصور القوية لا يشوبها غير « يايا » وغير الخلط بـين الذي عاد واسمه « باسم جديد عدت يا عبد الكريم » وهو يقصد باسم جديد هو عبد الكريم « عدت يا صلاح » .

واخيرا فان قصيدة بغداد والموت هي مجموعة من المقاطع ينقصها الترابط الفني وصورها جميلة تنقصها الفاعلية . هي قصيدة ينقصها التخطيط الفني وكان يمكن لو حذفت منها المقاطع الغنائية الدخيلة ان تكون فـي المستوى الفني الذي وصلته قصيدة نازك او قصيدة نزار

ثم

ثم لقد افزعني ان يسدل الاستاذ النقاش الصمت على قصيدة شاعر كبير هو حسن فتح الباب وقد كنت اتوق ان استمع الى رأيه فحسن فتح الباب رغم صمت الاستاذ النقاش عليه هو بلا شك شاعر ذو نسج خاص واسلوب متميز ولعل فتح الباب هو الوحيد بين شعراء مصر الذي تكاملت شخصيته حتى لتحس به من ابياته الاولى وتحس به مقلّدا منقولا فيثنايا اشعار غيره . ويتميز حسن فتح الباب بالاضافة الى نضج شخصيته وتميزها بعمق احاسيسه الانسانية وحيوية صوره الناضجـة المعبرة المتماسكة وقوة عبارته العربية وتخطيطه الفني الفريد لقصيدته حتى ليحس الانسان من تتبع قصائده طريقة بنائه لها .

وقصيدته عن العراق ـ اقصد « النهر لا يموت » فله في العراق قصيدة سابقة نشرت بالرسالة الجديدة ـ عبرت في ايجاز فني عن المعنى الرئيسي لقصيدة بغداد والموت حيث يقول في مطلعها في اغوار الظلم ـ تحت رماد المأساة ـ عاش شهيد مات طغاة ـ وانطلقت ثورة ثم ينهيها بهذه الدفقـة القوية الشاعرية

ولتسقط بين اغاني الثوار ـ وازيز المدفع ـ لتسد بأشلائك ثغرة ـ في حصن البشرية ـ من صلب شهيد يولد ـ صناع الغد ـ عشاق الحرية .

اما قصيدته « النهر لا يموت » التي صمت عنها الاستاذ النقاش فقـد عبرت في ايجاز جدير بالاعجاب عـن بوادر الثورة « على مشارف النهار دم

ـ يهيج وحشي النغم ـ وصيحة الشهيد كل يوم تؤرق الجلاد ـ ويوجز الثورة نفسها في صورة رائعة يزيدها تأكيدا وعمقا وايمانا

النور كسر الجليد ـ النهر لا يموت

وبعد فان مهمة الناقد شاقة فان لم نتخلص من عواطفنا قليلا ضللنا طريقنا الى الانصاف والى الناقد الفاضل تحياتي وتقديري لمجهوده النقدي.

القاهرة **محمد البخاري**

قصيدتان ..

بقلم محمود ظاهر

في قصائد صديقي الاستاذ عبد الجبار البصري موسيقى خفية ، وعمق في المعنى يخالطه ابهام لا مبرر له ابدا . ومن عرأ قصيدة «اغنية الكرمة» يوافقني على ذلك .

واظن ان الاستاذ عبد الجبار قد ادرك ذلك فحاول ان يتهرب من حلقة الابهام الملتفة حول عنقه في قصيدتيه « في بداية الصيف » و « انشودة عبد العزيز » ففشل في الاولى ونجح في الثانية . والسبب معروف وهو ان الشاعر قد عاش تجربة داخلية عنيفة في « انشودة عبد العزيز » فخرجت الى حيز الوجود .. اغنية لطيفة وثائرة .. اغنية كل شاب عربي .. واغنيتي ايضا .. اننا بحاجة الى شاعر يلمس قلوبنا ويشد اوتارها سواء اكانت اغنية ثورية سياسية ام اغنية داخلية خارجة من اعماق الشباب العربي الذي يبحث عن نفسه .

ان « لن اغمض الجفن .. اريد ان اراك

اريد ان احيا مع الورود والاراك

اريد ان لا التجي الى سواك »

اغنية كل شاب محروم يبحث عن المرأة فلا يجدها الا بشق الانفس . او بعد لكمات وصفعات يتلقاها من اخيها او قريبها .

ويستمر الاستاذ عبد الجبار بثورته العنيفة على هذه الفتاة التي يريد منها ان تمزق قصائده وان تتمرد عليه ... « ومزقي قصائدي .. تمنعي .. تمردي « مللت من سيادتي ، فلا تقولي : سيدي »

لقد مل من السيادة ومل من الخنوع المخيم على فتاته .... الخنـوع الذي جمد عواطفه « اريد من يهيج لي عواطفي » « التي تجمدت ومن يزيل لي مخاوفي » . وهو بعد كل هذا يخاف ان يتزوجها رغم حبه لها ويقول لهـــا :

... أينتهي الاغراء في تبادل الخواتم ؟

اخاف ان يبدأ موسم الشتائم

وموسم المحاكم

وموسم المظالم

تميعي ، وحاربي وسالمي

اريد ان احيا بافق حالم

اريد أن تصبي نهدك الاسمر في دنيا فمي »

لقد عبر هنا عن انانية الشاب العربي الذي يريد كل شيء ولا يعطي اي شيء . وعبر كذلك عن القلق النفسي والجنسي عند الشباب ... الشباب التائه غير المستقر . وكيف يستقر وهو يقول :

« اريد ان افرغ من مسائل الهوى الى الكثير

الى الكثير من مشاكل الحياة

مشاكل الحفاة والعراه

اريد ان احارب الجناه

واصنع الوجود من جديد

اريد ...

اريد ... »

ماذا يريد ؟.. لا شيء ، او كل شيء .. انه لا يدري ، وسيظل لا يدري !..

وبعد . هذه هي اغنية عبد العزيز التي امتلات بالموسيقى ذات الايقاع الخفيف الجميل ...

اما القصيدة الاولى « في بداية الصيف » فقصيدة لم تستطع ان تشدني اليها والسبب هذه الالوان القاتمة المبهمة التي لا داعي لها مطلقا وخاصة في مثل ايامنا هذه التي انتصرنا بها على الاستعمار . اننا في حاجة الى اغان ثورية لـ « عدن » الحبيبة ولـ « المحميات » . بعد ان مات الاستعمار في لبنان البطل وفي العراق العملاق .. حولوا اغانيكم ايها الاخوان الى هنـاك .. الى الوجوه السمراء الثائرة على الاستعمار .. اسمعوهـم اصواتكم واحتجاجاتكم . وثقوا بانتصاراتهم العظيمـة .. انهم في حاجة اليهـا .

العراق ـ بصره **محمود ظاهر**

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الجمهورية العربية المتحدة

لمراسل « الاداب » محيي الدين صبحي

وزارة الثقافة في الاقليم الشمالي

في هذه الفترة الانتقالية من حياة اقليمنا السوري ، نواجه مشاكل البناء والخلق مواجهة امور صعبة بفعل رواسب الماضي العفن ، فما تكاد النية تنعقد على القيام بعمل ما حتى تنهض اكداس من الانقاض تعيق كل عمل ايجابي . والصعوبات التي تواجه وزارة الثقافة صعوبات ناجمة عن جسامة مسؤوليتها وكثرة التبعات الملقاة على عاتقها .

ذلك ان الحياة الاجتماعية قد اتسعت واحتاجت الى المزيد من الحرية والنشاط بفعل نمو الطبقة البورجوازية الصغيرة واقبالها على العلم والفن اقبالا ضاقت عليه سبل النشاط في الحياة الماضية . فقد كان المقهى والسينما العنصرين الاساسيين لتمضية اوقات الفراغ ، ورغم خضوعهما للشروط التجارية في الربح فقد قصرا عن استيعاب الشبان المثقفين الذين لم يعودوا يجدون في لعب النرد او الورق ما يرضي ميولهم ويلائم اذاوقهم كما ان الحكومات الماضية لم تفكر في توسيع مجالات النشاط . فكانت الحياة الرياضية مقصورة على المحترفين وعلى الهواة الذين هم في طريقهم الى الاحتراف ، وظلت الرياضة محرومة من اي تشجيع يجعلها شائعة بين الشبان او خارجة عن جدران المدارس والاندية القليلة في الجمهورية . اما السينما ففضلا عن قلة دور العرض ، مما يميت التنافس بينها ، فان سواد الشعب متعلق بالافلام المصرية وما فيها من سل ثقافي وسرطان في الذوق ، اما الذين يشاهدون الافلام الاجنبية فهم واقعون تحت رحمة مسدسات الكاوبوي ، ولا يكاد يمر في الموسم الشتوي كله اكثر من ثلاثة افلام او خمسة ذات مستوى رفيع . ومن المؤسف ان رقابة الافلام تكتفي بتحديد وقت القبل او قصر المايوه ولا تلتفت ابدا الى الاثار السيئة التي تتركها الافلام التافهة في اذواق الناس وعقولهم وسلوكهم . اننا نحتاج الى رقابة من نوع جديد ، ليست « رقابة اخلاقية » وانما « رقابة ذوقية » تسمو باحاسيس الناس وتلطف من حدتها وتثقف العقول ايضا . ولعل اصعب ما يواجه وزارة الثقافة في سورية هي الكباريهات وامور التسلية الليلية ، ذلك انها كانت ولا تزال حتى اليوم تحمل مفهوم المواخير وكانت الارتيستات الاجنبيات ذوات مستوى فني تافه جدا لكي يصلحن للبقاء عن طريق الشمبانيا ، ولكن التحرر الاجتماعي الذي اجتاح سورية اخرج « بنت البيت » من عزلتها والان عقل والدها وقلبه فلم يجد باسا من اصطحاب اسرته الى الكباريه فاذا بنا تجاه وضع جديد ... تجاه اسر كثيرة تحب ان ترفه عن نفسها بقضاء سهرة ممتعة في منتدى ليلي تشاهد رقصا فنيا وتستمع الى الموسيقى صافية في جو حلو نظيف ، وشد ما كنت اتألم حين ارى شبانا ناشئين وفتيات مراهقات ينظرون الى بطن الراقصة المهتز وردفها المرتج ويستمعون الى نقر « الدربكة » و « تقسيم القانون » بدلا من مشاهدة « باليه » والاستماع الى « سمفوني » . وعلى وزارة الثقافة يقع عبء تطهير الفن من العهر وتقديمه الى الناس بلوريا شفافا . ولا تقتصر مضار هذه البرامج على افساد الذوق والاخلاق بل سوف تتعداها حتما الى افساد المفهوم الانساني وتخريب كل حس اجتماعي في نفوس المشاهدين اذ سيعتقد الذكر ان المرأة هي شيء مثير فقط وسوف تعتقد الانثى ان قيمتها تكمن في اثارتها وبذلك نرجع الى عصر الجواري والعبيد ، بل ان هذا المفهوم موجود بفعل رواسب الماضي الذي دعمته السينما المصرية والترجمات اللبنانية ومؤلفات عبد القدوس والسباعي فرسخ في الاذهان وبدأ يؤثر على سلوك الجيل الذي يتصنع في تمثيله ويجتهد في محاكاته للنماذج الاصلية . وهذا يقودنا الى الحديث عن جهازين من اخطر اجهزة النواحي الثقافية في الدولة وهما مراقبة المطبوعات والاذاعة. اذ يجب ن يشرف عليهما مثقفون يعرفون ما يحجزونه وما يسمحون به للجمهور ، وقد كانت الرقابة الى الان صارمة جدا في كثير من النواحي وبخاصة ما يتعلق بالمجلات الاجنبية ، ولا ارى ضررا فتح النوافذ على العوالم الاخرى بل من الواجب السماح للمجلات الثقافية والفنية لكي يعيش مثقفونا عصرهم ويفكروا في اهم قضاياه ويطلعوا على اراء غيرهم من المفكرين ففي احتكاك الثقافات دائما خير اكيد .

اما الاذاعة ، ذلك الجهاز الخطير فقد كانت تقوم دائما – في النواحي الثقافية – على « التنفيعية » فلا يدخلها الا المقربون من المتنفذين مهما كانت ثقافتهم ، مما جعلها اشبه بهيئة مرتزقة . كما انه لا بد من احتذاء اذاعة القاهرة في احداث برنامجين واحد للمثقفين والاخر لعامة الشعب. ولنا في تجربة اخواننا المصريين في البرنامج الخاص خير مثال نحتذيه. اما البرنامج العام فيجب ان يتجه وجهة اكثر فائدة وعمقا مما هو عليه الان ، اذ من الواجب تعليم الفلاح والعامل معنى الاشتراكية العربية وفائدة التحرر الاجتماعي . عن طريق برامج فنية هما التمثيليات الشعبية التي تتجه الان الى التهريج بدل الافادة .

ثمة ناحية اخرى خطيرة في حياة الجيل المتعلم هي فقد المكتبات العامة . فمن الناحية النظرية البحتة يوجد في دمشق مثلا مكتبة هي المكتبة الظاهرية : بناؤها قديم ، مكانها منعزل عن البلد . معتمة قاتمة ، هي بالتلخيص مكان أثري اكثر منها مكتبة معاصرة، يرتادها شبان في بيوتهم « نيون » و « برادات كهربائية » وبذلك لا تصلح ان تكون مكانا عاما يرتادها الشبان للراحة او لمطالعة المجلات بل لا يكاد المختص ان يقصدها الا عند الضرورة القصوى ، وبذلك يتكاتف على محاربة المطالعة غلاء اسعار الكتب وفقدان المكتبات العامة التي تغري الشبان بالدخول اليها واذا اضفنا ان من قوانينها الا تعير كتابا ما الا اذا مر على صدوره عامان عرفنا استحالة استخدامها مركزا ثقافيا .

وانا لا اتوقع من وزارة الثقافة ان تحدث مكتبات عصرية تقدم احدث الكتب والمجلات فقط وانما اطالبها بان تنشىء مكتبات سيارة على نمط المكتبات السيارة في انجلترا وامريكا . واظن ان رسوم الاشتراكات تغطي نفقات المشروع وتخلق طبقة من هواة القراءة يتزايد عددهم باستمرار. بقيت ملاحظة بسيطة ومؤلمة لكن لا بد منها على ما يظهر ، هي عدم اعتماد الوزارة في الشؤون الادبية اعتمادا كليا على الادباء لانهم يشكلون طبقة نفعية وصولية في معظم حوالهم . فان كانوا ضمن رابطة يجمعها مذهب سياسي فهم عصابة ، وان كانوا ضمن جماعة يضمهم رأي فكري فهم شيع متفرقة ، وان كانوا افرادا فهم اما مخلصون او منبوذون . ولعل اكبر خطر يهدد كل اصلاحات الوزارة فيما يتعلق بالشؤون الادبية ، هو ان يتولى

امور الادباء واحد منهم ! ذلك لانه ليس لدينا ـ كما في مصر ـ اساتذة كبار يوثق بتجربتهم وحيادهم ، وكل الذين يستحقون الاشراف يعيشون خارج سورية . والملجأ الاخير في هذا الامر هو اساتذة الجامعة والمثقفون الذين يتمتعون بسمعة حيادية نوعا ما .

اما الصحافة فيجب الانتباه الى مستواها من حيث الكيف لا من حيث الكم فقط . فما فائدة فرض حجم معين على جريدة ما ، اذا كان باستطاعة الجريدة ان تملأه بالاعلانات واخبار الوفيات ؟

ان القارىء لا يشتري الجريدة ليقرأ الاخبار فقط ، وانما ليطلع ايضا على ريبورتاج او بحث او قصة ، فان لم تلب الصحافة الجديدة حاجته فقدت ثقته وانصرف عنها الى غيرها .

واخيرا فاننا نرجو ان يبث الوزير الشاب روحه الثائرة في وزارته حتى تنشأ خارجة عن روتين الوزارات القديمة وتكون وزارة بناء وانشاء وتكون حجرا اساسيا في حضارة عربية جديدة .

اشتات

* القى الدكتور جميل كبة في الجمعية العربية بدمشق محاضرة بعنوان « لبنان بعد الثورة .. كيف نبنيه » .
* اقيم احتفال بذكرى مرور اربعين يوما على وفاة المناضل الاردني « عبدالله نعواس » . تكلم فيه علي ابو نوار وعبدالله الريماوي .
* تكلم بمناسبة الذكرى الخامسة لثورة الجزائر كل من الدكتور امجد الطرابلسي والاستاذرياض المالكيكما تكلمعن الجزائر مندوب الحكومة الجزائرية الاستاذ محمد الغسيري ، ثم القى الشاعر القروي قصيدة عصماء عن نهضة العرب وثورة الجزائر .
* القى الدكتور ابراهيم الكيلاني في منتدى سكينه محاضرة شرح فيها انطباعاته عن « مؤتمر طاشقند » .
* القى الدكتور « أنطون جناوي » على مدرج جامعة دمشق محاضرة بعنوان « الذرة في خدمة الانسانية والعلم » .